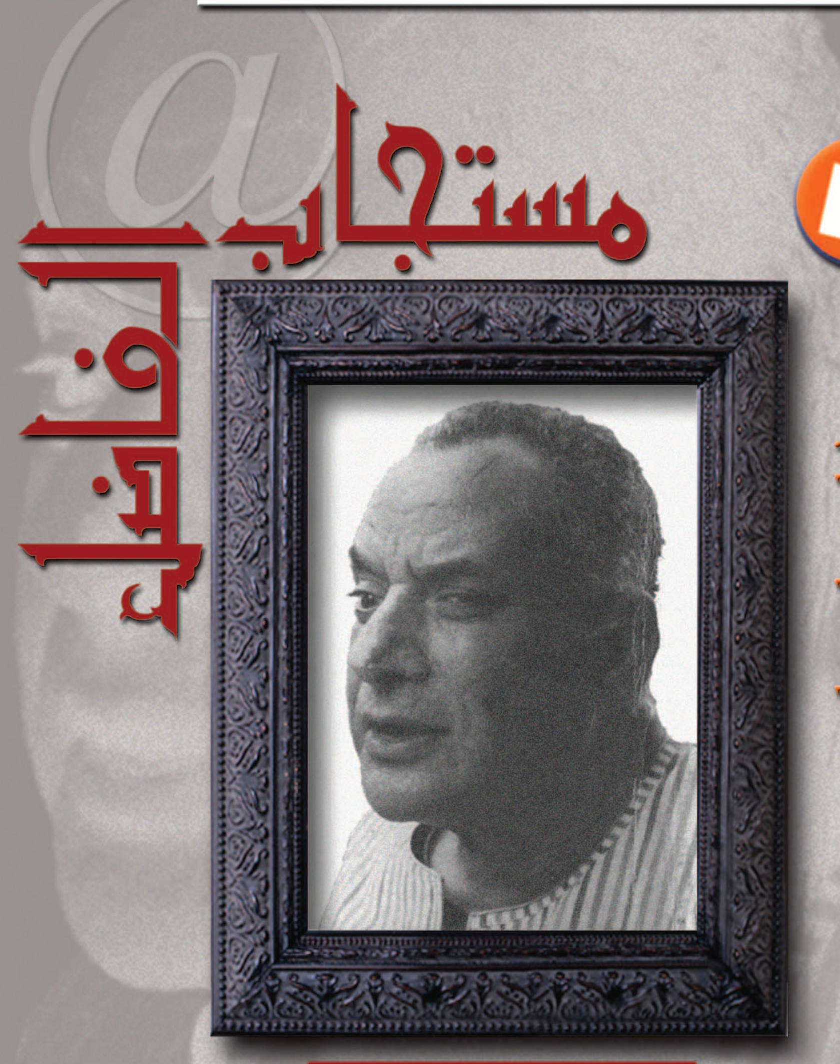


www.kotobarabia.com

محمد مستجاب

مستجاب الفاضل
هذا ليس كتاب البأف

كلب آل مستجاب

محمد مستجاب

إليـها .....

أم آل مستجاب ـ تلك المرأة

العظيمة الفاضلة ـ التي دفعها

اعتزازها ووفاؤها لزوجها

مستجاب الأول والذي رحل

دون أن يرى وليدا له منها ـ

أن ظلت تلد دون توقف منذ

ذلك العصر وفاء له ـ حتى

الآن .

مستجاب الفاضل

ظللت أبحث لهذا

الرجل العظيم عن لقب

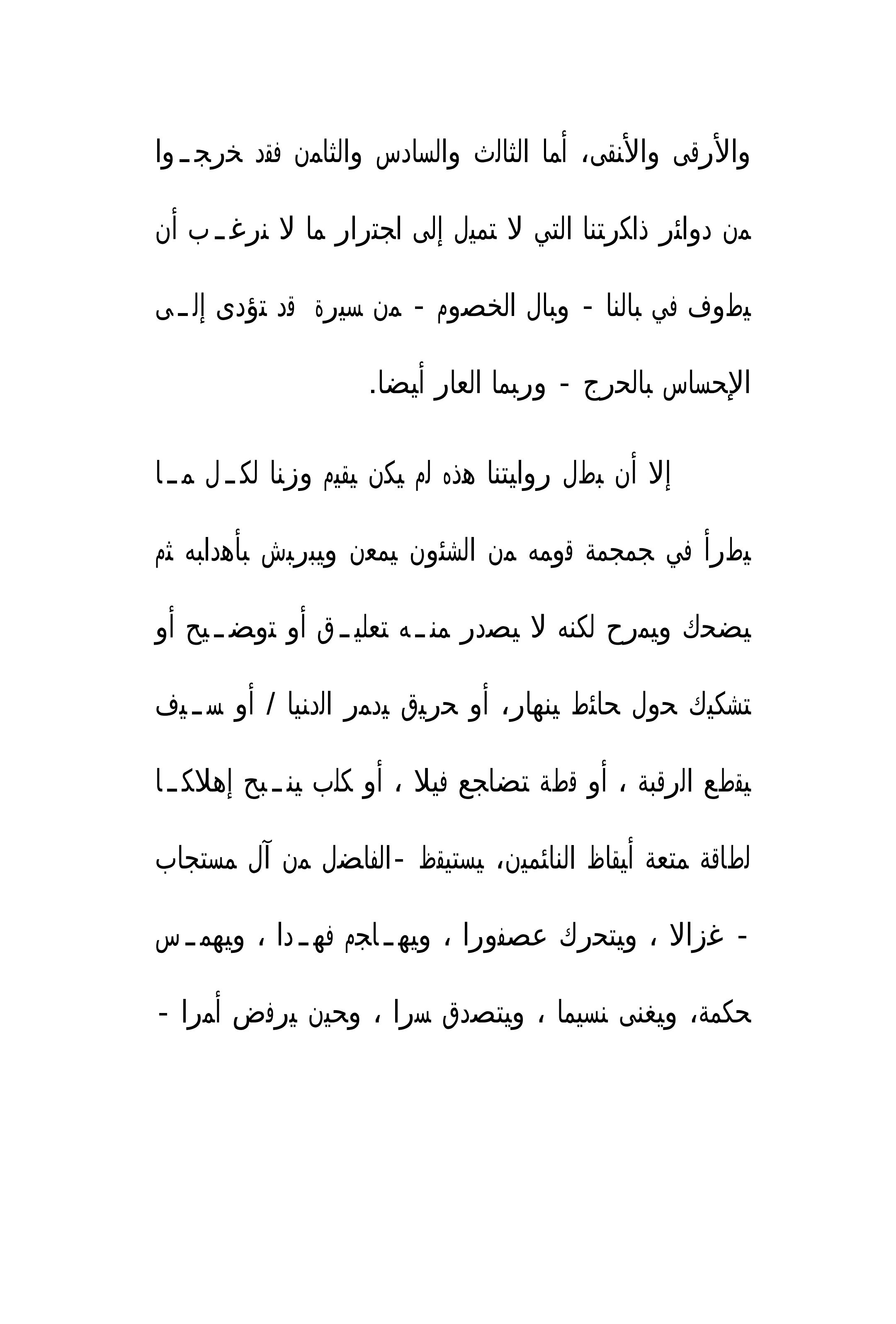
- أوصفة - تعلو حتى على الفضيلة...

لكن بطلي - رعاك الله - مات

أغسطس ٢٠٠٢

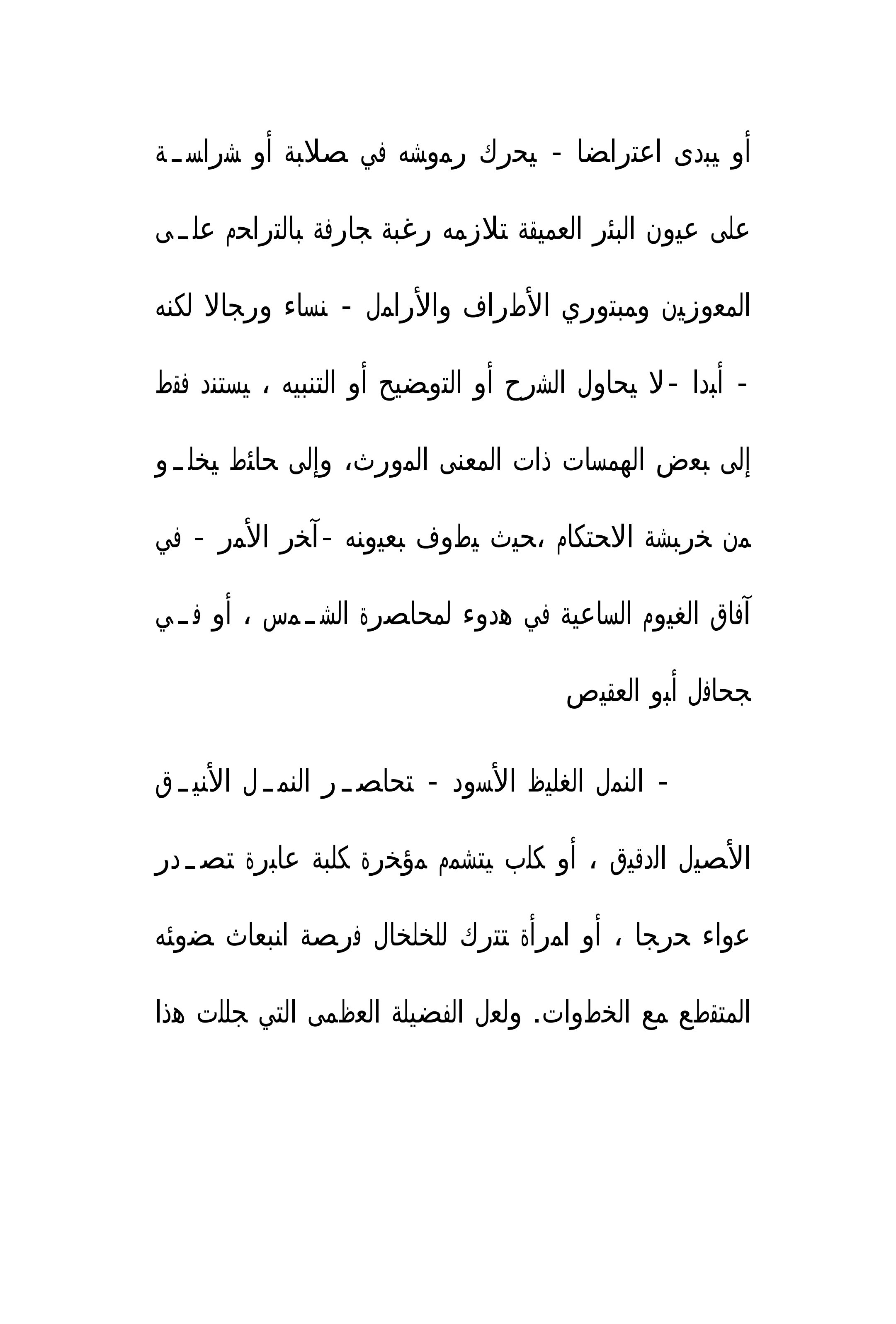
لا أنا ، ولا أنت ، ولا العفريت الأحمـر يمكنـه أن يرفع عينه في وش هذا الفاضل الجميل الأنيق: مسـتجاب ، والذي خرج على الترتيب والتـرقيم دون أن يحمـل رقمـا يضعه في الموقع المناسب - والدقيق - في سلسلة عائلتـه ، قيل إنه التاسع فظهرت آراء ضيقة الصـدر لأن رقـم (٩) يحمل أمورا تتصل بالاشتهاء والحمـل والوضـع المـرتبط بالأنثى ، ثم بدا أن رقم (٤) يناسبه فاتضح أن سيرة سـابقة لأهل هذا الرجل الفاضل وضعت الرابع في موقف محـرج كانت نهايته أن لفظ أنفاسه في محل الأدب ، وقام المناوئون والأعداد بالإشارة الساخرة إلى أن هذا النوع من المخلوقات لا يمكن أن تكون نهايته في محل آخر غير محل الأدب مـع

إصدار حركات صوتية بذيئة لا يجوز لنا التأكيد عليها، وقـد حالت.عوائق أخرى دون اقترابهم من أرقام عديدة تشي بمـا لا يحبون: الشؤم الكامن وراء رقم خمسـة فأضـافوا إليـه صياغة تربطه بخمسة مع تحريك أصابع اليـد فـي إشـارة قابضة طاردة للشر المحتمل ، رقم سبعة وما يـؤدى إليـه تسبيع الراحلين في سبعة وما يؤدى إليه من تسبيع الـراحلين في آخر ليالي المأتم تمهيدا لا نتظار آخر دورات الفناء فـي الأربعين ، دون اهتمام بما يعنيه تفاؤل ذات الرقم - سـبعة ومن سبوع آخر احتفاء بمولود ذكر- حيث لاسبوع لمولودة أثنى، كما أن إضفاء (الثاني) علـى مسـتجابهم الجميـل سيضعه في موقف حرج يجعل من مستجابهم الأول- العظيم - في موقع الترتيب الذي لا يخضع لـه بصـفته الأعلـى



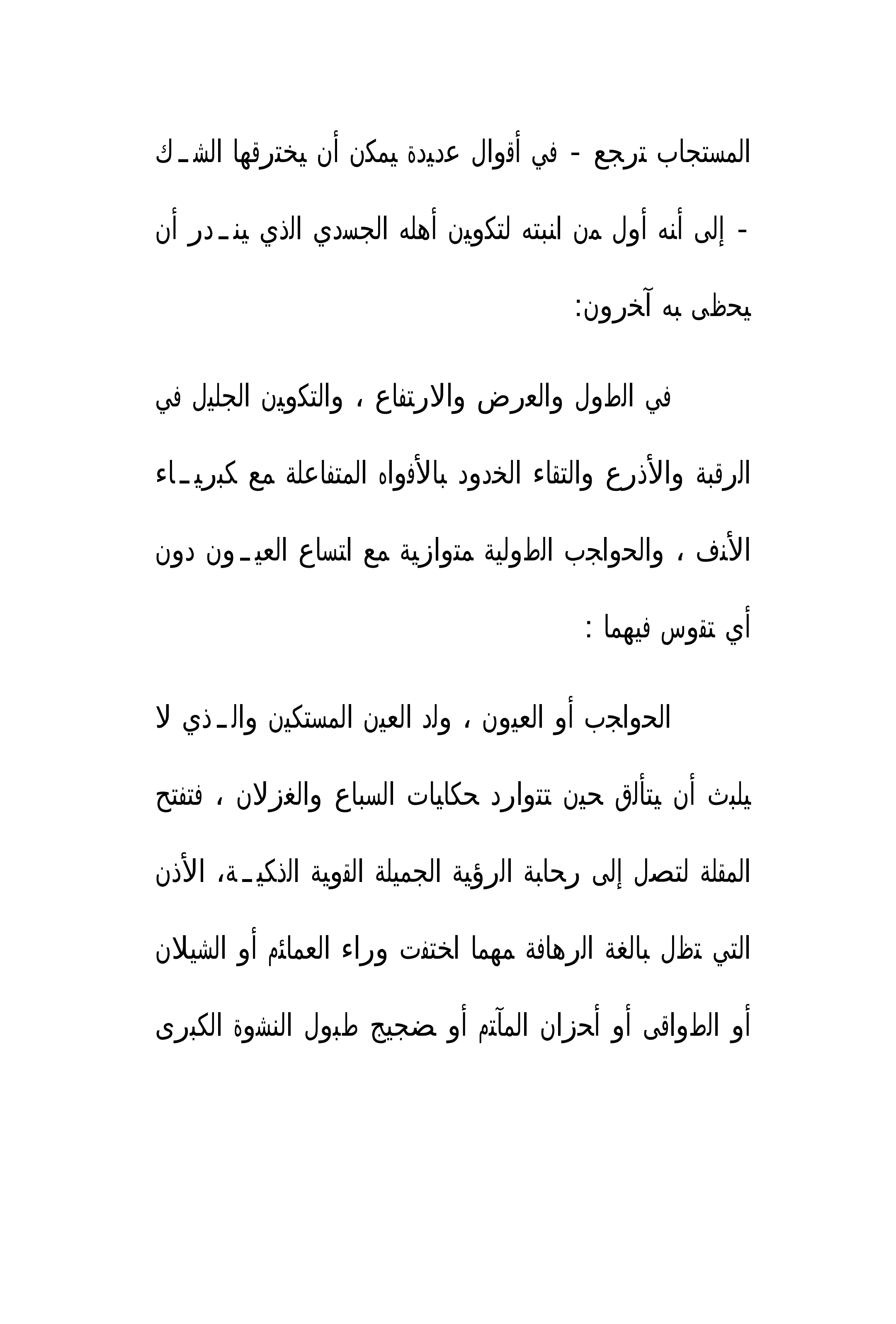
والأرقى والأنقى، أما الثالث والسادس والثامن فقد خرجـوا من دوائر ذاكرتنا التي لا تميل إلى اجترار ما لا نرغـب أن يطوف في بالنا - وبال الخصوم - من سيرة قد تؤدى إلـى الإحساس بالحرج - وربما العار أيضا.

إلا أن بطل روايتنا هذه لم يكن يقيم وزنا لكـل مـا يطرأ في جمجمة قومه من الشئون يمعن ويبربش بأهدابه ثم يضحك ويمرح لكنه لا يصدر منـه تعليـق أو توضـيح أو تشكيك حول حائط ينهار، أو حريق يدمر الدنيا / أو سـيف يقطع الرقبة ، أو قطة تضاجع فيلا ، أو كلب ينـبح إهلاكـا لطاقة متعة أيقاظ النائمين، يستيقظ -الفاضل من آل مستجاب - غزالا ، ويتحرك عصفورا ، ويهـاجم فهـدا ، ويهمـس حكمة، ويغنى نسيما ، ويتصدق سرا ، وحين يرفض أمرا -



أو يبدى اعتراضا - يحرك رموشه في صلابة أو شراسـة
على عيون البئر العميقة تلازمه رغبة جارفة بالتراحم علـى
المعوزين ومبتوري الأطراف والأرامل - نساء ورجالا لكنه
- أبدا -لا يحاول الشرح أو التوضيح أو التنبيه ، يستند فقط
إلى بعض الهمسات ذات المعنى المورث، وإلى حائط يخلـو
من خربشة الاحتكام ،حيث يطوف بعيونه -آخر الأمر - في
آفاق الغيوم الساعية في هدوء لمحاصرة الشـمس ، أو فـي
جحافل أبو العقيص

- النمل الغليظ الأسود - تحاصـر النمـل الأنيـق
الأصيل الدقيق ، أو كلب يتشمم مؤخرة كلبة عابرة تصـدر
عواء حرجا ، أو امرأة تترك للخلخال فرصة انبعاث ضوئه
المتقطع مع الخطوات. ولعل الفضيلة العظمى التي جللت هذا

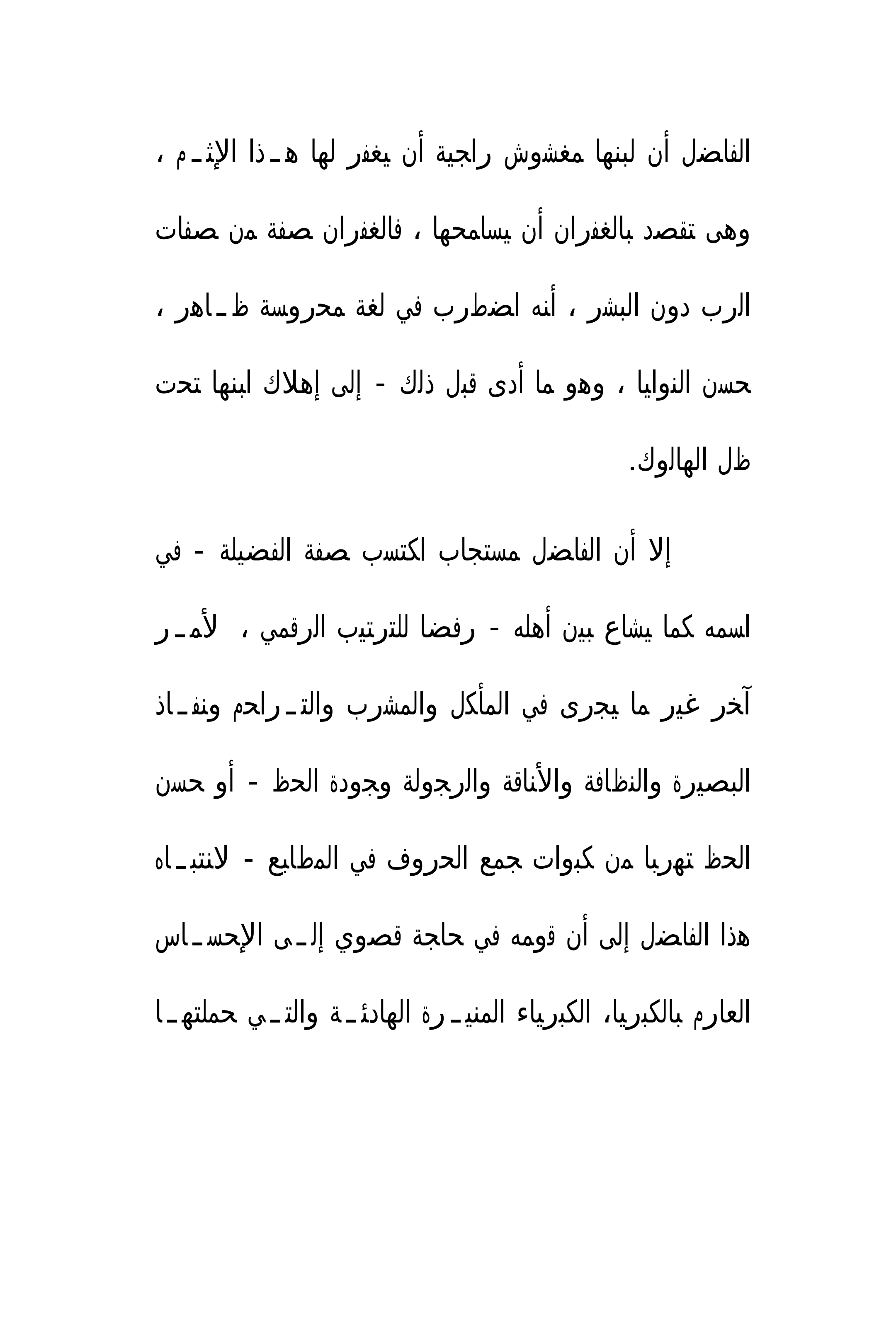


المستجاب ترجع - في أقوال عديدة يمكن أن يخترقها الشـك - إلى أنه أول من انتبه لتكوين أهله الجسدي الذي ينـدر أن يحظى به آخرون:

في الطول والعرض والارتفاع ، والتكوين الجليل في الرقبة والأذرع والتقاء الخدود بالأفواه المتفاعلة مع كبريـاء الأنف ، والحواجب الطولية متوازية مع اتساع العيـون دون أي تقوس فيهما :

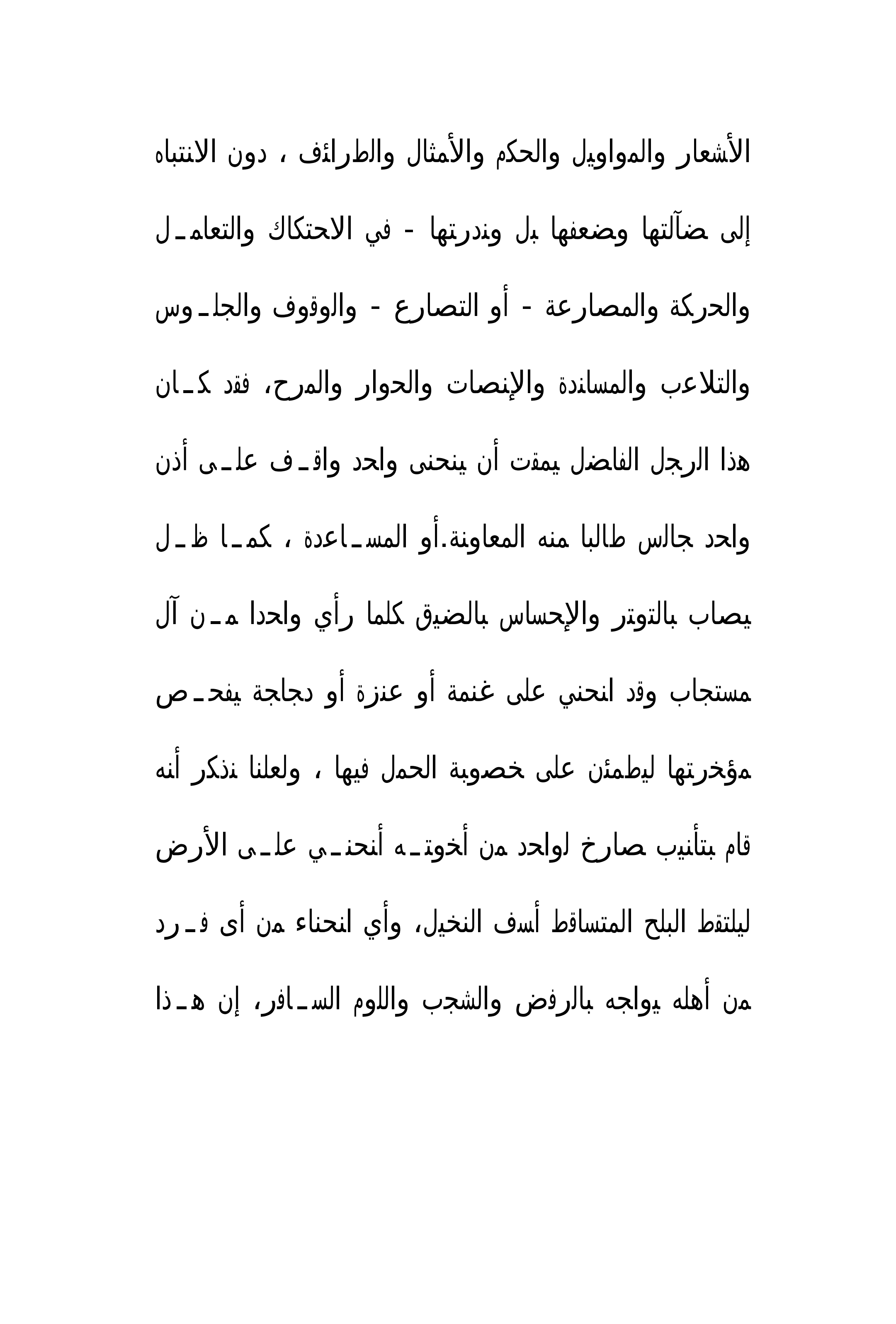
الحواجب أو العيون ، ولد العين المستكين والـذي لا يلبث أن يتألق حين تتوارد حكايات السباع والغزلان ، فتفتح المقلة لتصل إلى رحابة الرؤية الجميلة القوية الذكيـة، الأذن التي تظل بالغة الرهافة مهما اختفت وراء العمائم أو الشيلان أو الطواقى أو أحزان المآتم أو ضجيج طبول النشوة الكبرى

، حتى أنه الفاضل مستجاب - أحس بشكشكة أصوات التهام النار للبوص قبل أن تصل رائحة الدخان إلى انفه ، كما أنـه أوقف جولة مبارزة بالسيوف بين اثنين من عائلته ليحول بين شراسة حركة مراكيبهم وعقرب تسعى فـي التـراب بـين المراكيب بحثا عن قوت لأطفالها ، كما أن حكايته الشـهيرة مع محروسة بائعة اللبن لا نزال نتذكرها في مجال النوادي ، حينما توقف عن سيره عمدا وأشار إليها كي تنتبه إليه جيدا، وما كادت ترفع عيونها إليه حتى أصدر لها أمرا بأن تعـود بما تحمله من لبن لتسكبه بعيدا في التراب، لأن اللبن - يا أم فراج - مغشوش بالماء ، فاضطربت محروسـة وانتحبـت معترفة بان ذلك يحدث لأول مرة وعليه أن يسامحها لكنه - وحتى قضت نحبها بعد ذلك بأيام - لم تعرف كيـف تشـمم



الفاضل أن لبنها مغشوش راجية أن يغفر لها هـذا الإثـم ، وهى تقصد بالغفران أن يسامحها ، فالغفران صفة من صفات الرب دون البشر ، أنه اضطرب في لغة محروسة ظـاهر ، حسن النوايا ، وهو ما أدى قبل ذلك - إلى إهلاك ابنها تحت ظل الهالوك.

إلا أن الفاضل مستجاب اكتسب صفة الفضيلة - في اسمه كما يشاع بين أهله - رفضا للترتيب الرقمي ، لأمـر آخر غير ما يجرى في المأكل والمشرب والتـراحم ونفـاذ البصيرة والنظافة والأناقة والرجولة وجودة الحظ - أو حسن الحظ تهربا من كبوات جمع الحروف في المطابع - لانتبـاه هذا الفاضل إلى أن قومه في حاجة قصوى إلـى الإحسـاس العارم بالكبريا، الكبرياء المنيـرة الهادئـة والتـي حملتهـا



الأشعار والمواويل والحكم والأمثال والطرائف ، دون الانتباه
إلى ضآلتها وضعفها بل وندرتها - في الاحتكاك والتعامـل
والحركة والمصارعة - أو التصارع - والوقوف والجلـوس
والتلاعب والمساندة والإنصات والحوار والمرح، فقد كـان
هذا الرجل الفاضل يمقت أن ينحنى واحد واقـف علـى أذن
واحد جالس طالبا منه المعاونة.أو المسـاعدة ، كمـا ظـل
يصاب بالتوتر والإحساس بالضيق كلما رأي واحدا مـن آل
مستجاب وقد انحني على غنمة أو عنزة أو دجاجة يفحـص
مؤخرتها ليطمئن على خصوبة الحمل فيها ، ولعلنا نذكر أنه
قام بتأنيب صارخ لواحد من أخوتـه أنحنـي علـى الأرض
ليلتقط البلح المتساقط أسف النخيل، وأي انحناء من أى فـرد
من أهله يواجه بالرفض والشجب واللوم السـافر، إن هـذا

السلوك لا يليق بهم ولا يتناسب مع ما منحهم ا من فـارع

الطول الذي يعلو بهم على الأرض ، الانحناء فقط في حالتين

سجودا وركوعا وابتهالا وتوسلا ، أو في حالة نـادرة ::

الانحناء عطفا على طفل في مأزق أليم أو إنصـاتا لشـكوى

أنثى هامسة حتى ولو لم تكن مضطربة أو باكيـة أو علـى

جسد ممزق أحاق به الأعداء انتقاما.

وقد تشعبت سطوة الكبريـاء حتـى حالـت دون آل

مستجاب والانحناء على النخيل الأخضر تشذيبا ، حتـى أن

النجيل ظل يسعى .بين أقدامهم غليظا متضخم الملامح فـي

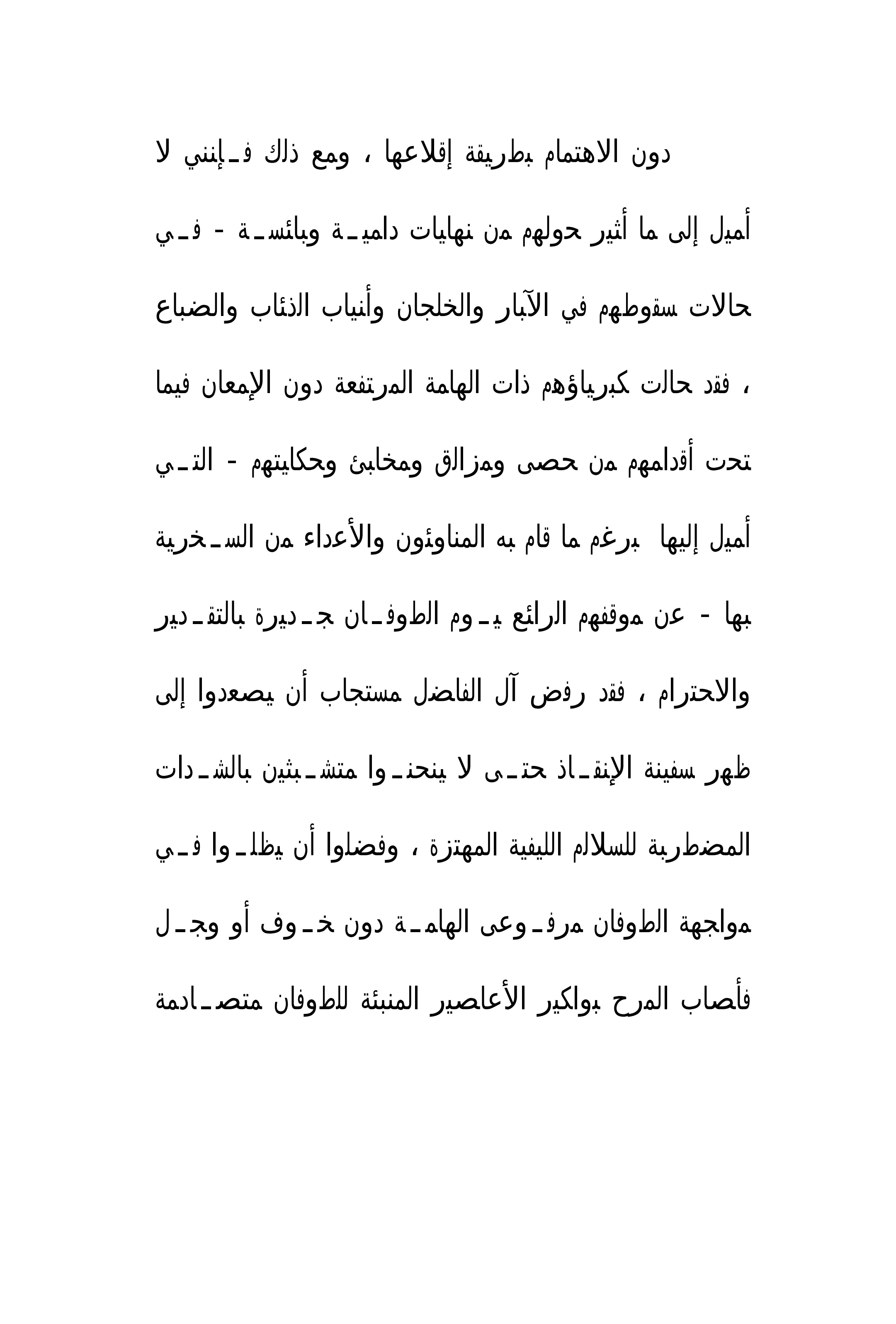
الآفاق المتسعة مختلطا بالأشواك وذيـل القـط وسـراديب

الفيران ومقابر السحالي، ولم تلبث الكبرياء أن رفعت عيونهم

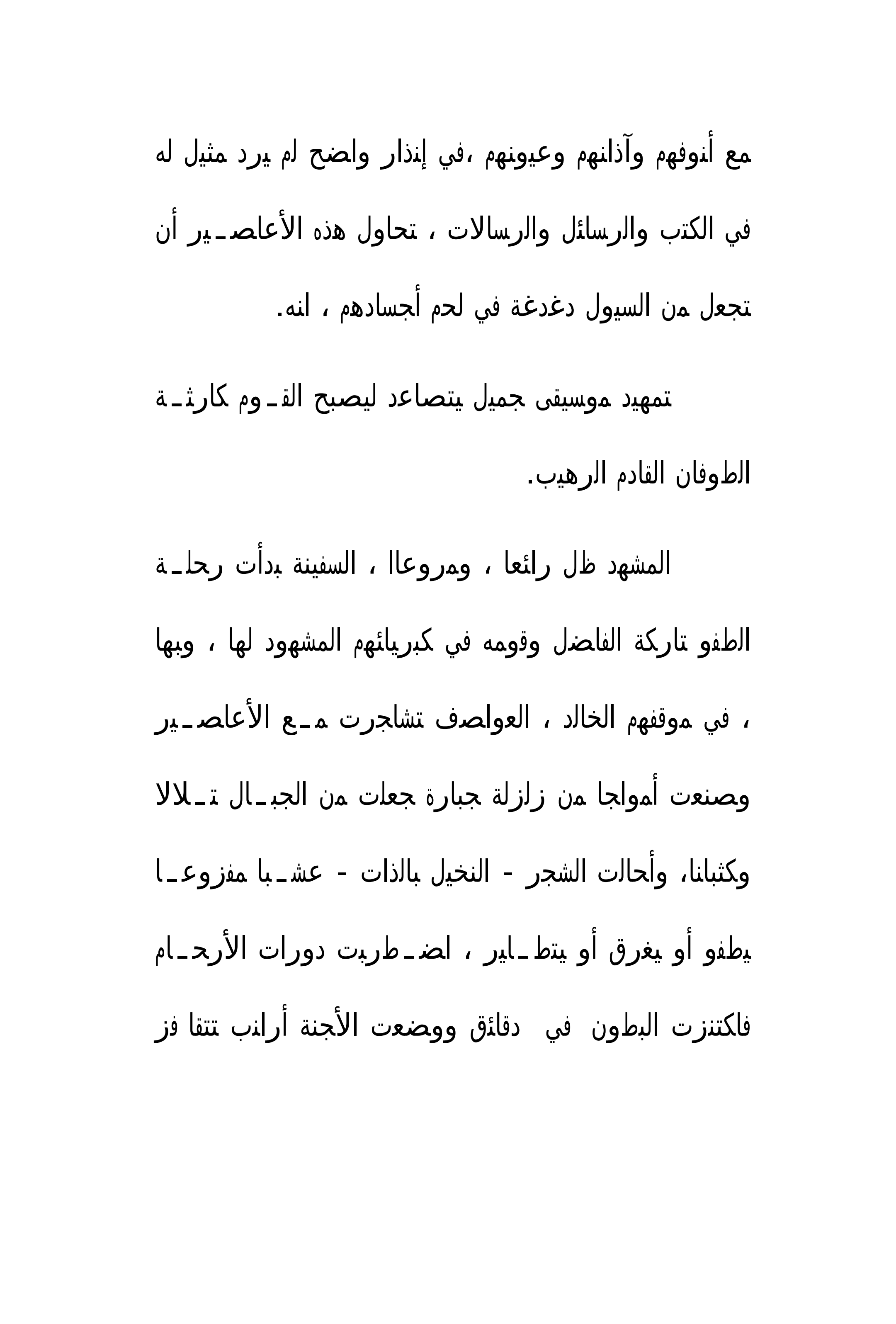
إلى أعلى الأشجار : النخل والتوت والجميز ، ممـا جعـل

حمرة ثمارها تحتل أشعار الغزل في خدود عشـيقاتهم دون الهبوط إلى مدارات الأجساد الفاتنة (تحـت الرقبـة مـروا بالأثداء والسرة)

وفوهات الاشتعال أو الاشتهاء : أيهما أكثـر فتنـة وانخرطت السحب والبرق والرعد والملائكـة والشـياطين والصقور وبنات الحور ونجوم الإلهام وقمر الشجن يمزجون عالم الإدراك الواسع ذا الخيال المتألق في الكـلام والهمـس والصمت والصبر والحنين والحنان ، حتى أن واحدا من آل الفاضل ذي الكبرياء ما وقع في براثن نسـر أو عقـارب أو صقر حتى اخترق به جزيرة الفردوس أو مغارة الكنوز دون الهبوط إلى سراديب عروق الذهب، وما ركب أحدهم سـفينة حتى يظل ممعنا بعيونه إلى أعلى قلوعها.



دون الاهتمام بطريقة إقلاعها ، ومع ذلك فـإنني لا
أميل إلى ما أثير حولهم من نهايات داميـة وبائسـة - فـي
حالات سقوطهم في الآبار والخلجان وأنياب الذئاب والضباع
، فقد حالت كبرياؤهم ذات الهامة المرتفعة دون الإمعان فيما
تحت أقدامهم من حصى ومزالق ومخابئ وحكايتهم - التـي
أميل إليها برغم ما قام به المناوئون والأعداء من السـخرية
بها - عن موقفهم الرائع يـوم الطوفـان جـديرة بالتقـدير
والاحترام ، فقد رفض آل الفاضل مستجاب أن يصعدوا إلى
ظهر سفينة الإنقـاذ حتـى لا ينحنـوا متشـبثين بالشـدات
المضطربة للسلالم الليفية المهتزة ، وفضلوا أن يظلـوا فـي
مواجهة الطوفان مرفـوعى الهامـة دون خـوف أو وجـل
فأصاب المرح بواكير الأعاصير المنبئة للطوفان متصـادمة



مع أنوفهم وآذانهم وعيونهم ،في إنذار واضح لم يرد مثيل له

في الكتب والرسائل والرسالات ، تحاول هذه الأعاصـير أن

تجعل من السيول دغدغة في لحم أجسادهم ، انه.

تمهيد موسيقى جميل يتصاعد ليصبح القـوم كارثـة

الطوفان القادم الرهيب.

المشهد ظل رائعا ، ومروعاا ، السفينة بدأت رحلـة

الطفو تاركة الفاضل وقومه في كبريائهم المشهود لها ، وبها

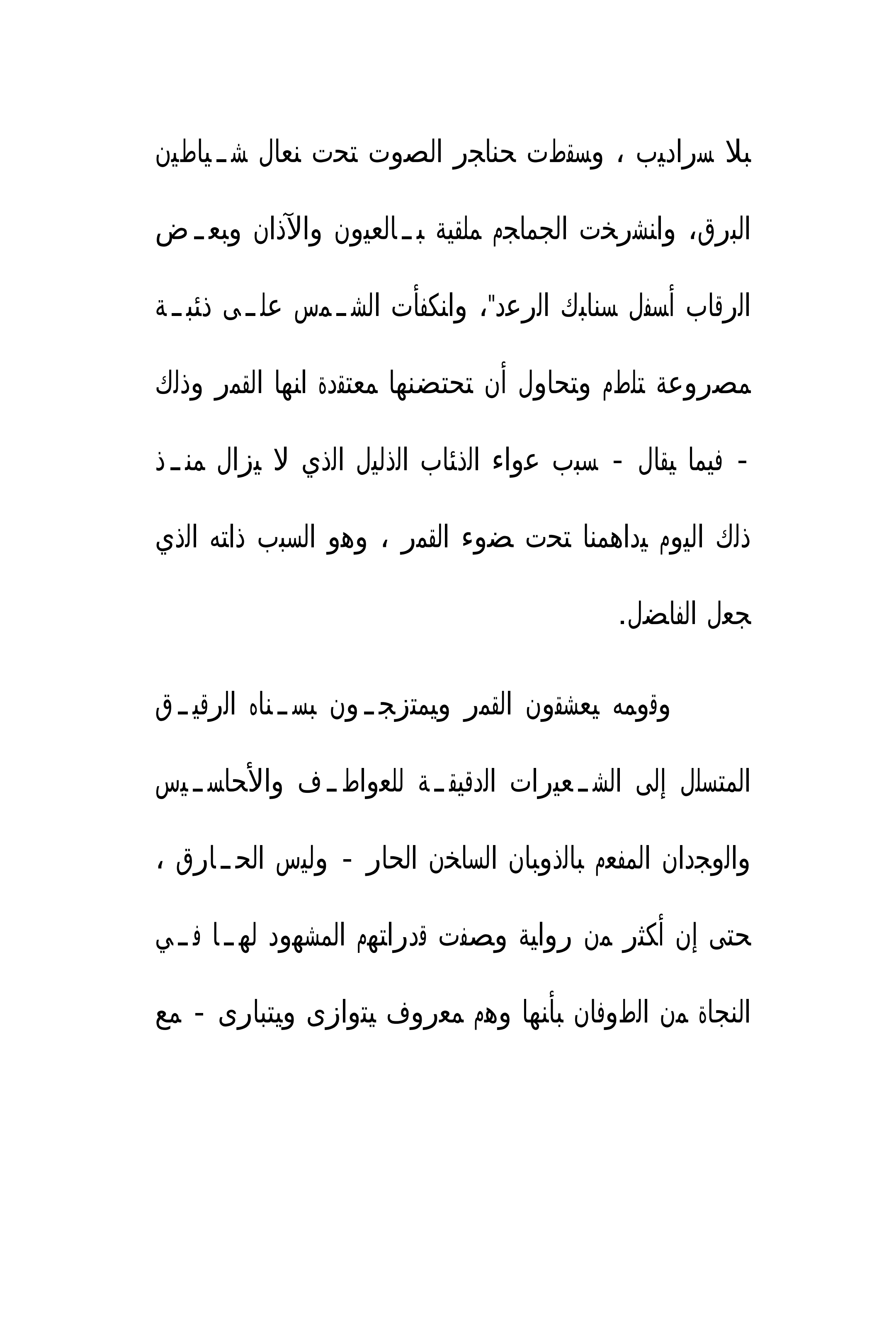
، في موقفهم الخالد ، العواصف تشاجرت مـع الأعاصـير

وصنعت أمواجا من زلزلة جبارة جعلت من الجبـال تـلالا

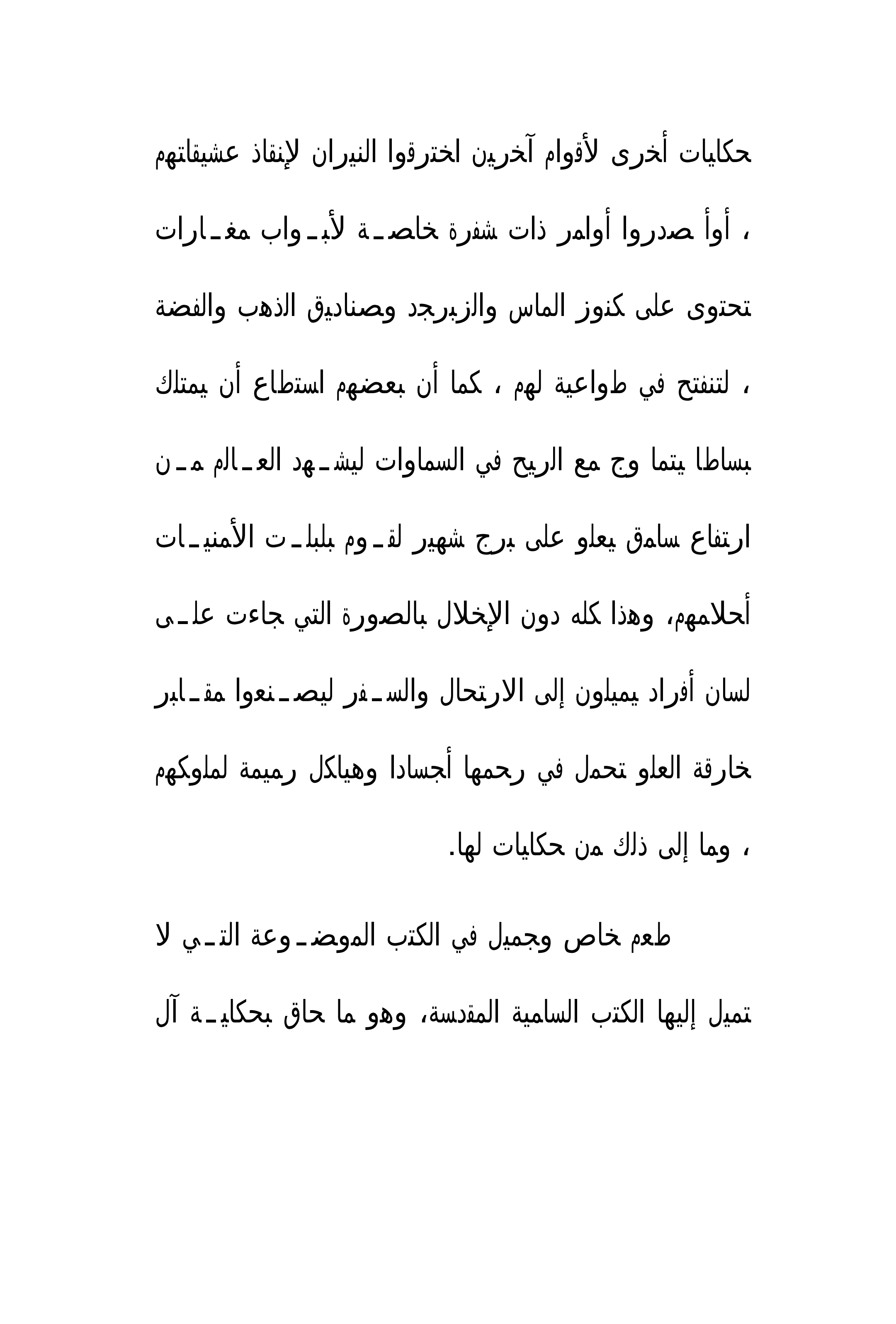
وكثبانا، وأحالت الشجر - النخيل بالذات - عشـبا مفزوعـا

يطفو أو يغرق أو يتطـاير ، اضـطربت دورات الأرحـام

فاكتنزت البطون في دقائق ووضعت الأجنة أرانب تتقا فز


بلا سراديب ، وسقطت حناجر الصوت تحت نعال شـياطين البرق، وانشرخت الجماجم ملقية بـالعيون والآذان وبعـض الرقاب أسفل سنابك الرعد"، وانكفأت الشـمس علـى ذئبـة مصروعة تلطم وتحاول أن تحتضنها معتقدة انها القمر وذلك - فيما يقال - سبب عواء الذئاب الذليل الذي لا يزال منـذ ذلك اليوم يداهمنا تحت ضوء القمر ، وهو السبب ذاته الذي جعل الفاضل.

وقومه يعشقون القمر ويمتزجـون بسـناه الرقيـق المتسلل إلى الشـعيرات الدقيقـة للعواطـف والأحاسـيس والوجدان المفعم بالذوبان الساخن الحار - وليس الحـارق ، حتى إن أكثر من رواية وصفت قدراتهم المشهود لهـا فـي النجاة من الطوفان بأنها وهم معروف يتوازى ويتبارى - مع

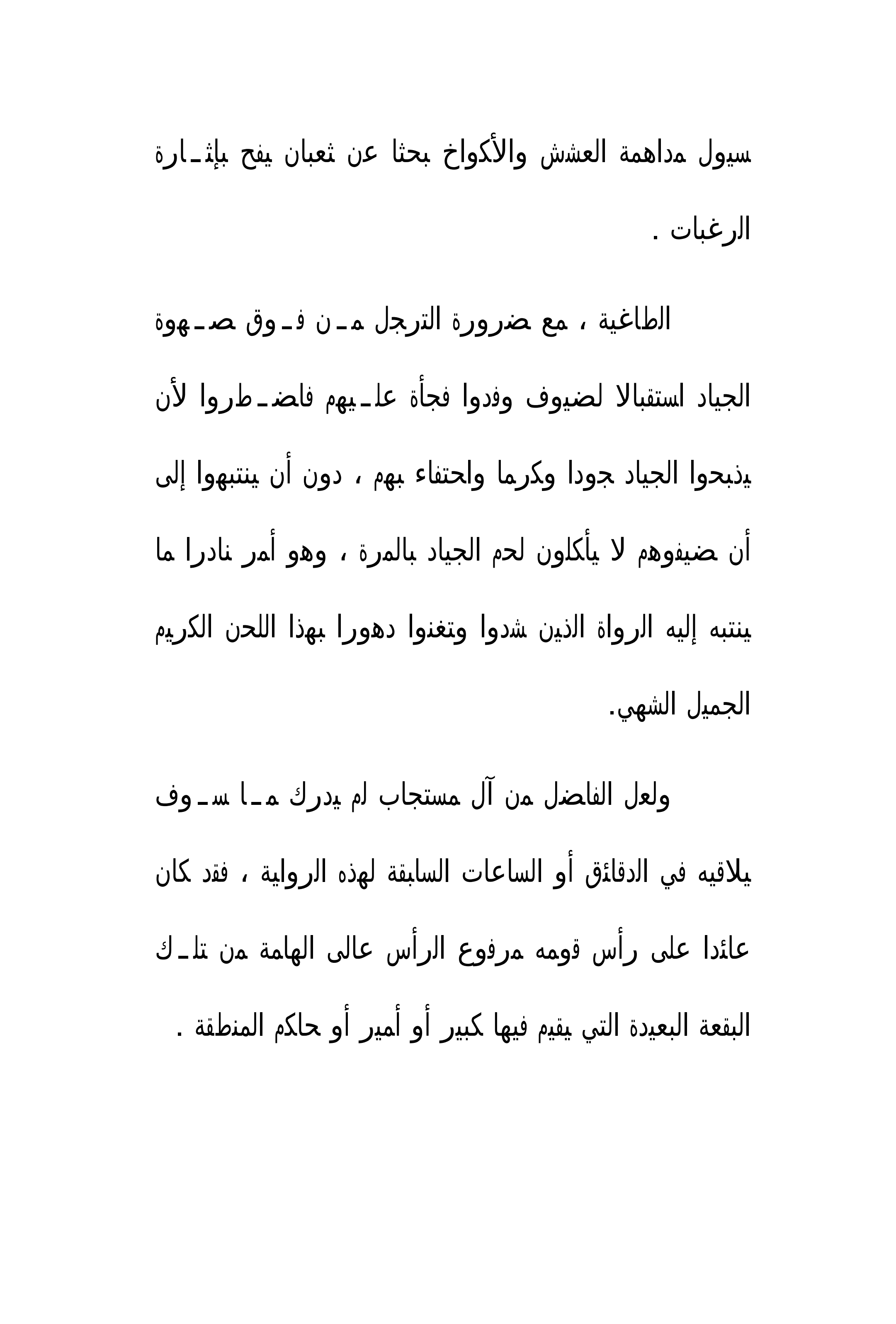


حكايات أخرى لأقوام آخرين اخترقوا النيران لإنقاذ عشيقاتهم
، أوأ صدروا أوامر ذات شفرة خاصـة لأبـواب مغـارات
تحتوى على كنوز الماس والزبرجد وصناديق الذهب والفضة
، لتنفتح في طواعية لهم ، كما أن بعضهم استطاع أن يمتلك
بساطا يتما وج مع الريح في السماوات ليشـهد العـالم مـن
ارتفاع سامق يعلو على برج شهير لقـوم بلبلـت الأمنيـات
أحلامهم، وهذا كله دون الإخلال بالصورة التي جاءت علـى
لسان أفراد يميلون إلى الارتحال والسـفر ليصـنعوا مقـابر
خارقة العلو تحمل في رحمها أجسادا وهياكل رميمة لملوكهم
، وما إلى ذلك من حكايات لها.

طعم خاص وجميل في الكتب الموضـوعة التـي لا
تميل إليها الكتب السامية المقدسة، وهو ما حاق بحكايـة آل

مستجاب الرائعة في مواجهتهم للطوفان الطاغي ليحققوا نجاة ذات كبرياء ليس من السهل غض البصر عنها ، مع رغبتنا الضاغطة في التشكيك والارتياب حين نمعن فيها.

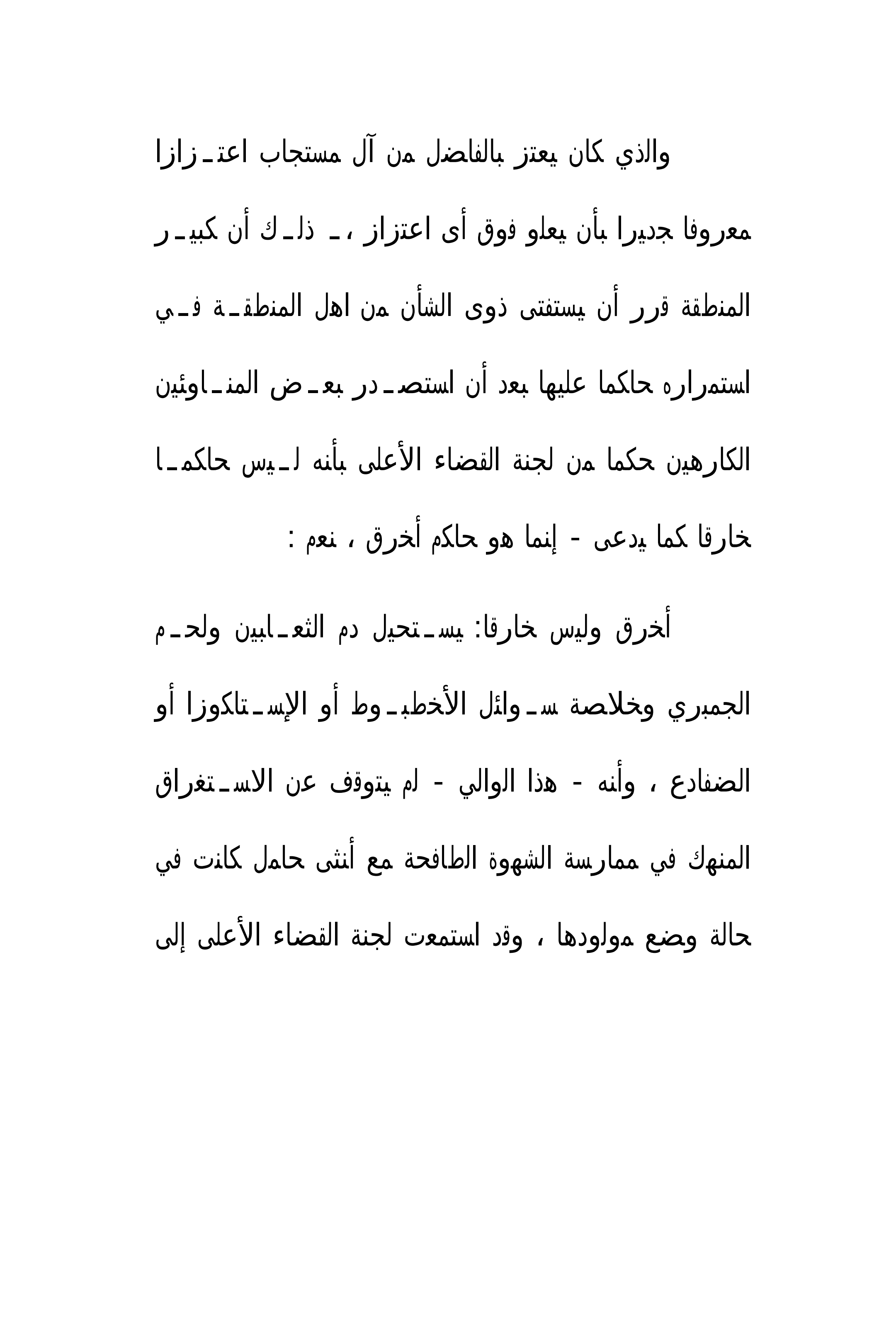
ولم يكن الفاضل من آل مستجاب يرتاح لمـا قـدر يرويه كثيرون من الذين يعيشون تحت ظلـه الممتـد حـين يقتربون من الزهو بما جرى لهم بل إنه أمر ٠ عمـدا - ألا تتضمن ورقة واحدة وبالذات كتب المدارس وألواح الكتاتيب وأسفار البحوث والنظريات والحفريات - أى إشـارة لمثـل ذلك ، واكتفي بمتعة المشاركة في عزف ألحان تمزج رائحة الورود بمسك نشوة المضاجعة مع قليل من مشاهد بـراكين الجحيم أو قنابل تدمر الجزر والمدن والبيوت والأطفال ، أو



سيول مداهمة العشش والأكواخ بحثا عن ثعبان يفح بإثـارة الرغبات .

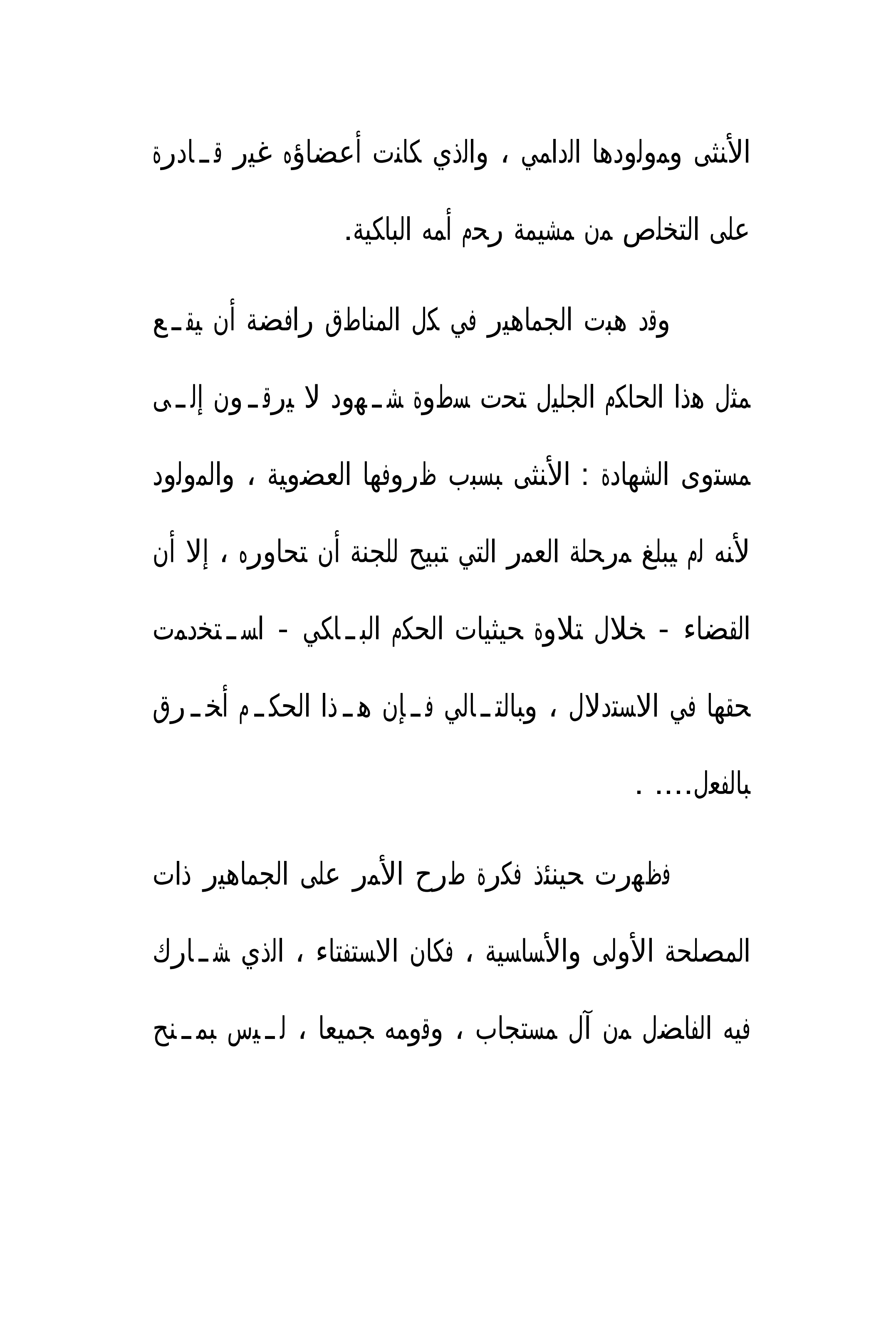
الطاغية ، مع ضرورة الترجل مـن فـوق صـهوة الجياد استقبالا لضيوف وفدوا فجأة علـيهم فاضـطروا لأن يذبحوا الجياد جودا وكرما واحتفاء بهم ، دون أن ينتبهوا إلى أن ضيفوهم لا يأكلون لحم الجياد بالمرة ، وهو أمر نادرا ما ينتبه إليه الرواة الذين شدوا وتغنوا دهورا بهذا اللحن الكريم الجميل الشهي.

ولعل الفاضل من آل مستجاب لم يدرك مـا سـوف يلاقيه في الدقائق أو الساعات السابقة لهذه الرواية ، فقد كان عائدا على رأس قومه مرفوع الرأس عالى الهامة من تلـك البقعة البعيدة التي يقيم فيها كبير أو أمير أو حاكم المنطقة .



والذي كان يعتز بالفاضل من آل مستجاب اعتـزازا معروفا جديرا بأن يعلو فوق أى اعتزاز ،ـ ذلـك أن كبيـر المنطقة قرر أن يستفتى ذوى الشأن من اهل المنطقـة فـي استمراره حاكما عليها بعد أن استصـدر بعـض المنـاوئين الكارهين حكما من لجنة القضاء الأعلى بأنه لـيس حاكمـا خارقا كما يدعى - إنما هو حاكم أخرق ، نعم :

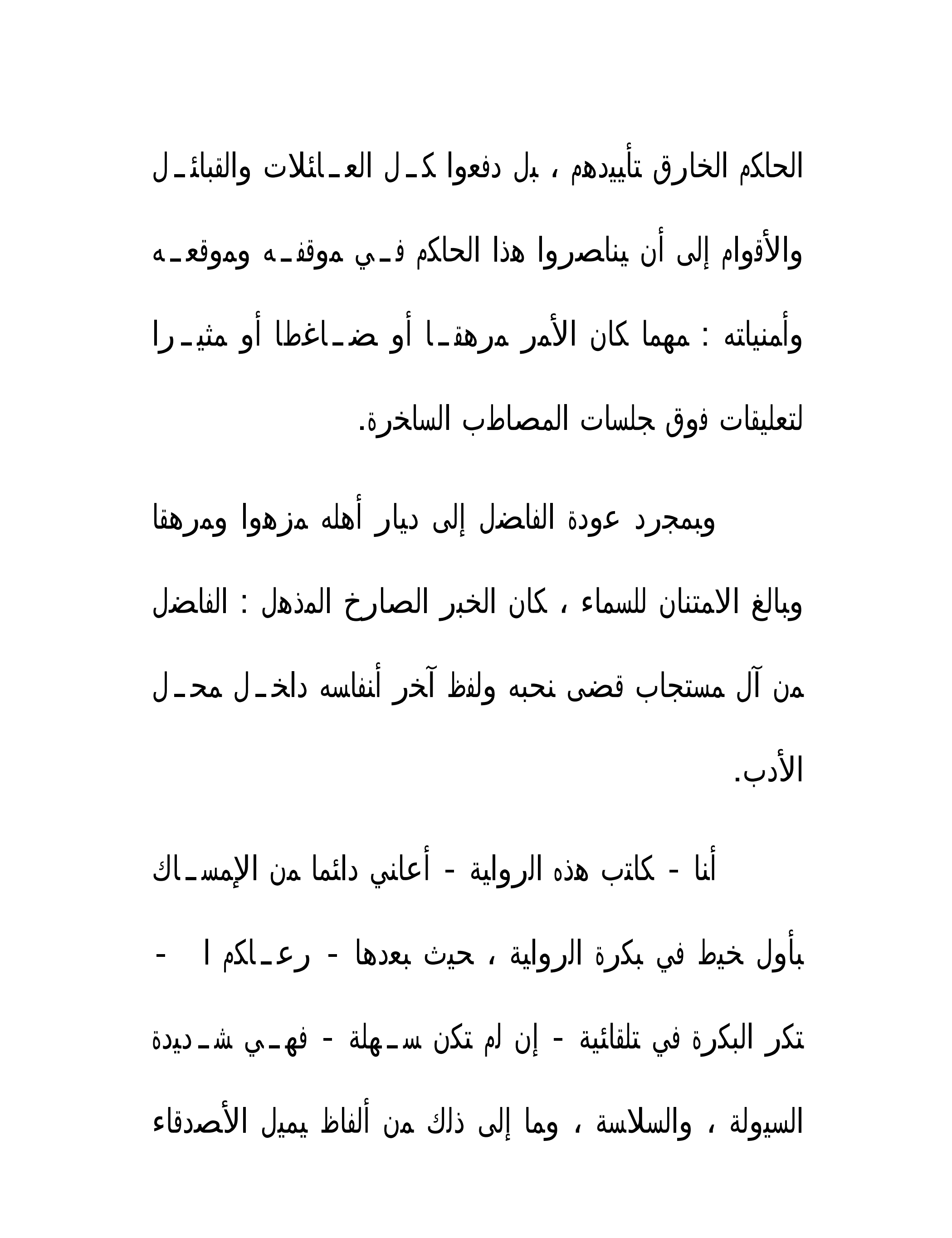
أخرق وليس خارقا: يسـتحيل دم الثعـابين ولحـم الجمبري وخلاصة سـوائل الأخطبـوط أو الإسـتاكوزا أو الضفادع ، وأنه - هذا الوالي - لم يتوقف عن الاسـتغراق المنهك في ممارسة الشهوة الطافحة مع أنثى حامل كانت في حالة وضع مولودها ، وقد استمعت لجنة القضاء الأعلى إلى



الأنثى ومولودها الدامي ، والذي كانت أعضاؤه غير قـادرة على التخلص من مشيمة رحم أمه الباكية.

وقد هبت الجماهير في كل المناطق رافضة أن يقـع مثل هذا الحاكم الجليل تحت سطوة شـهود لا يرقـون إلـى مستوى الشهادة : الأنثى بسبب ظروفها العضوية ، والمولود لأنه لم يبلغ مرحلة العمر التي تبيح للجنة أن تحاوره ، إلا أن القضاء - خلال تلاوة حيثيات الحكم البـاكي - اسـتخدمت حقها في الاستدلال ، وبالتـالي فـإن هـذا الحكـم أخـرق بالفعل.... .

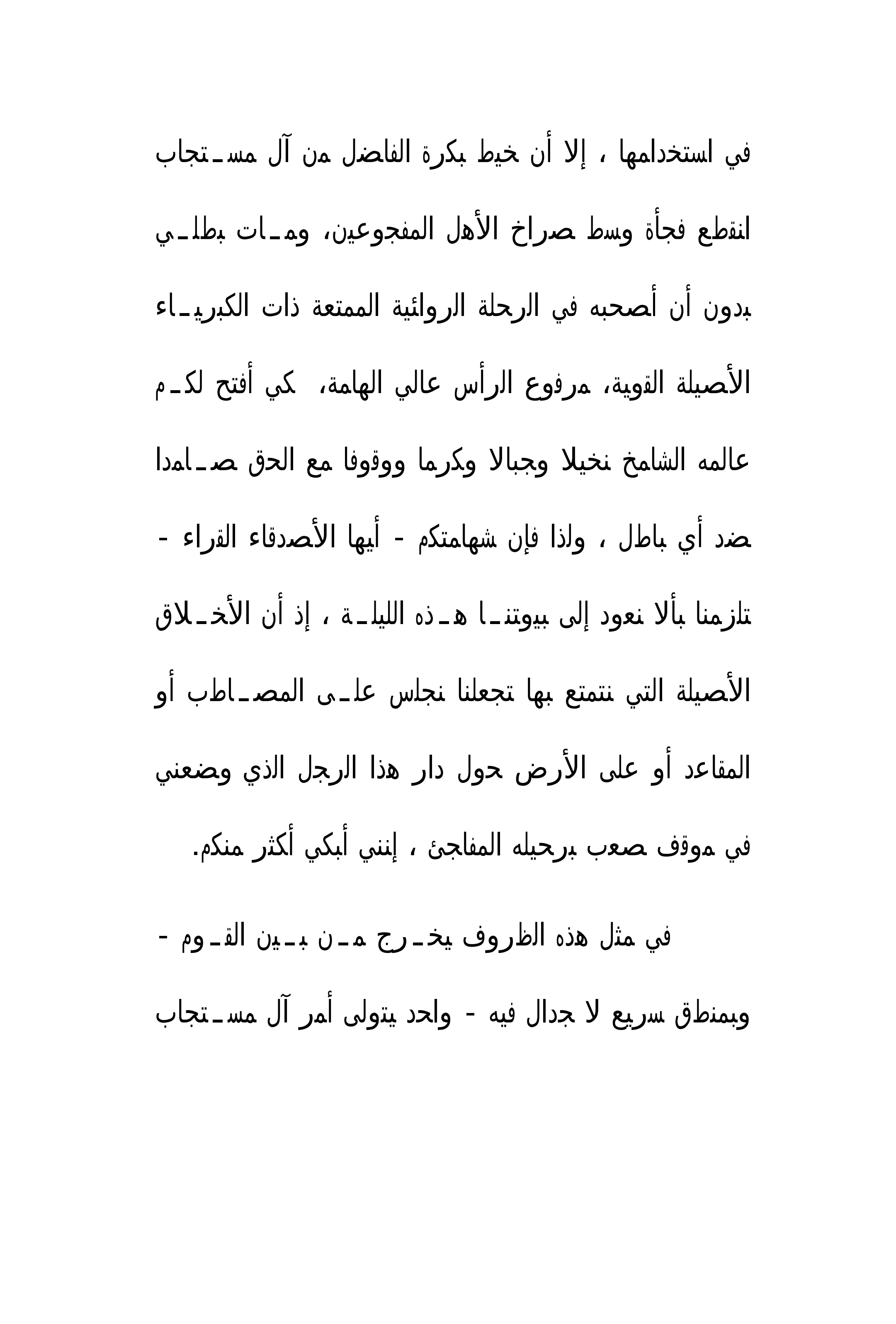
فظهرت حينئذ فكرة طرح الأمر على الجماهير ذات المصلحة الأولى والأساسية ، فكان الاستفتاء ، الذي شـارك فيه الفاضل من آل مستجاب ، وقومه جميعا ، لـيس بمـنح



الحاكم الخارق تأييدهم ، بل دفعوا كـل العـائلات والقبائـل والأقوام إلى أن يناصروا هذا الحاكم فـي موقفـه وموقعـه وأمنياته : مهما كان الأمر مرهقـا أو ضـاغطا أو مثيـرا لتعليقات فوق جلسات المصاطب الساخرة.

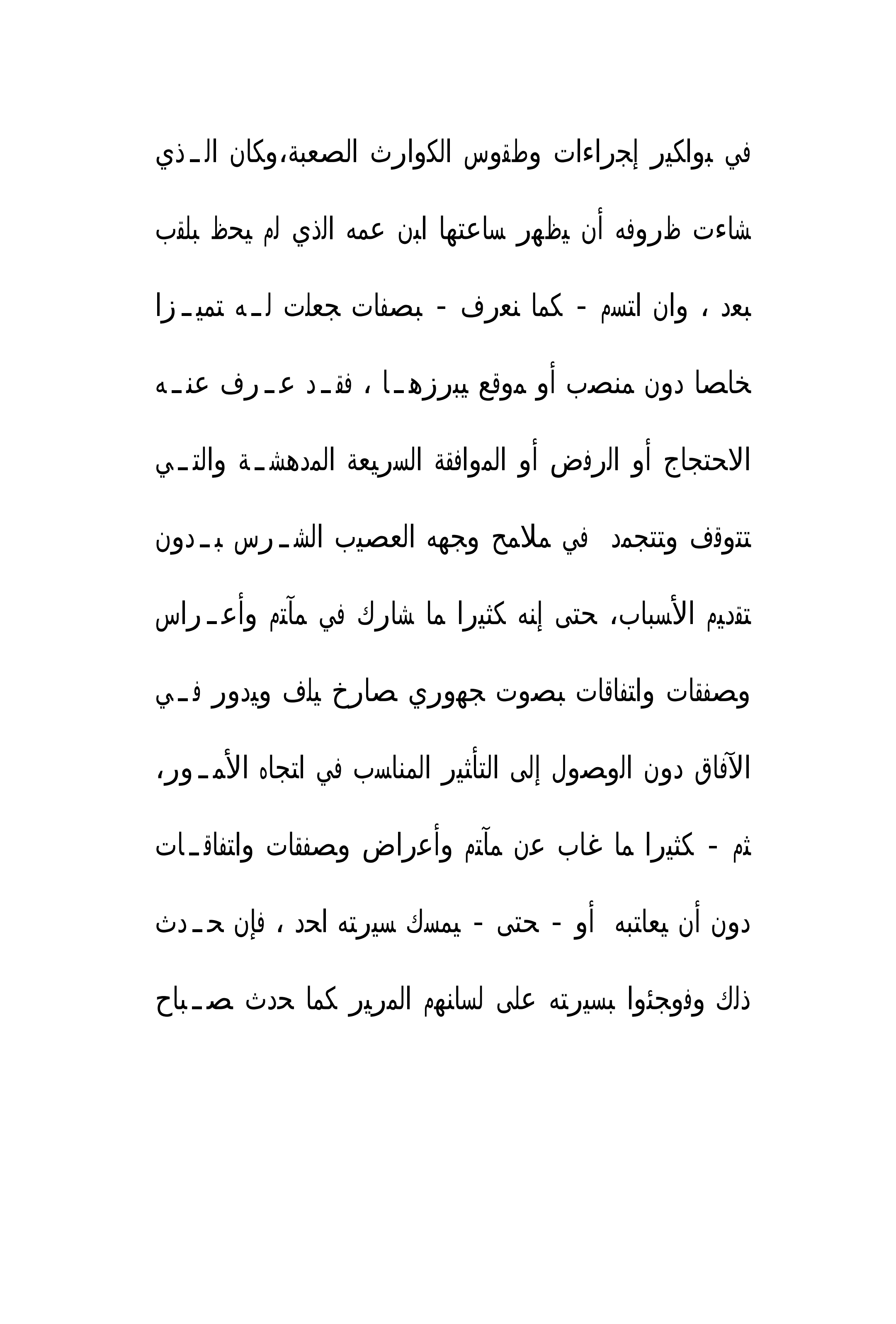
وبمجرد عودة الفاضل إلى ديار أهله مزهوا ومرهقا وبالغ الامتنان للسماء ، كان الخبر الصارخ المذهل : الفاضل من آل مستجاب قضى نحبه ولفظ آخر أنفاسه داخـل محـل الأدب.

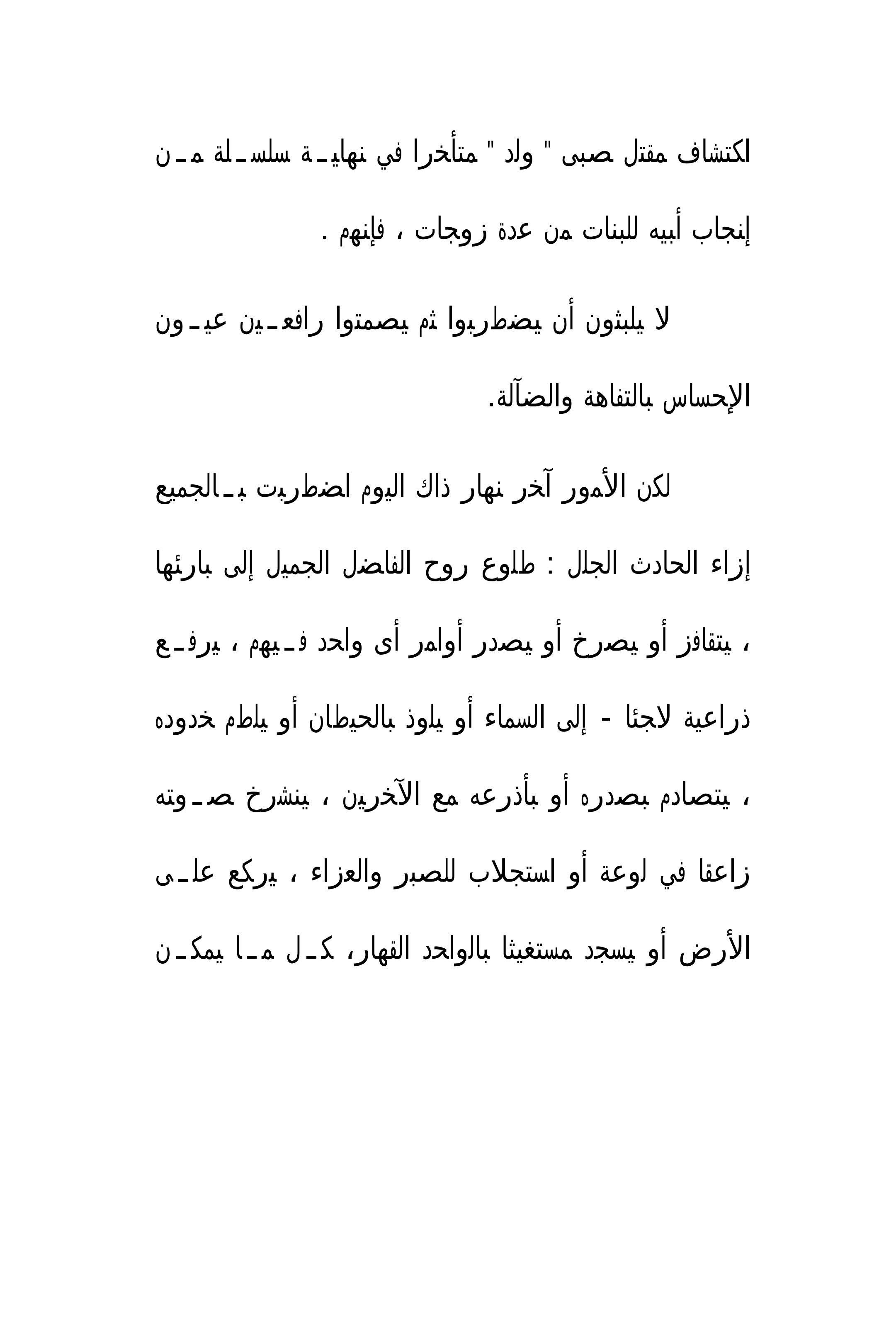
أنا - كاتب هذه الرواية - أعاني دائما من الإمسـاك بأول خيط في بكرة الرواية ، حيث بعدها - رعـاكم ا - تكر البكرة في تلقائية - إن لم تكن سـهلة - فهـي شـديدة السيولة ، والسلاسة ، وما إلى ذلك من ألفاظ يميل الأصدقاء



في استخدامها ، إلا أن خيط بكرة الفاضل من آل مسـتجاب انقطع فجأة وسط صراخ الأهل المفجوعين، ومـات بطلـي بدون أن أصحبه في الرحلة الروائية الممتعة ذات الكبريـاء الأصيلة القوية، مرفوع الرأس عالي الهامة، كي أفتح لكـم عالمه الشامخ نخيلا وجبالا وكرما ووقوفا مع الحق صـامدا ضد أي باطل ، ولذا فإن شهامتكم - أيها الأصدقاء القراء - تلزمنا بألا نعود إلى بيوتنـا هـذه الليلـة ، إذ أن الأخـلاق الأصيلة التي نتمتع بها تجعلنا نجلس علـى المصـاطب أو المقاعد أو على الأرض حول دار هذا الرجل الذي وضعني في موقف صعب برحيله المفاجئ ، إنني أبكي أكثر منكم.

في مثل هذه الظروف يخـرج مـن بـين القـوم - وبمنطق سريع لا جدال فيه - واحد يتولى أمر آل مسـتجاب

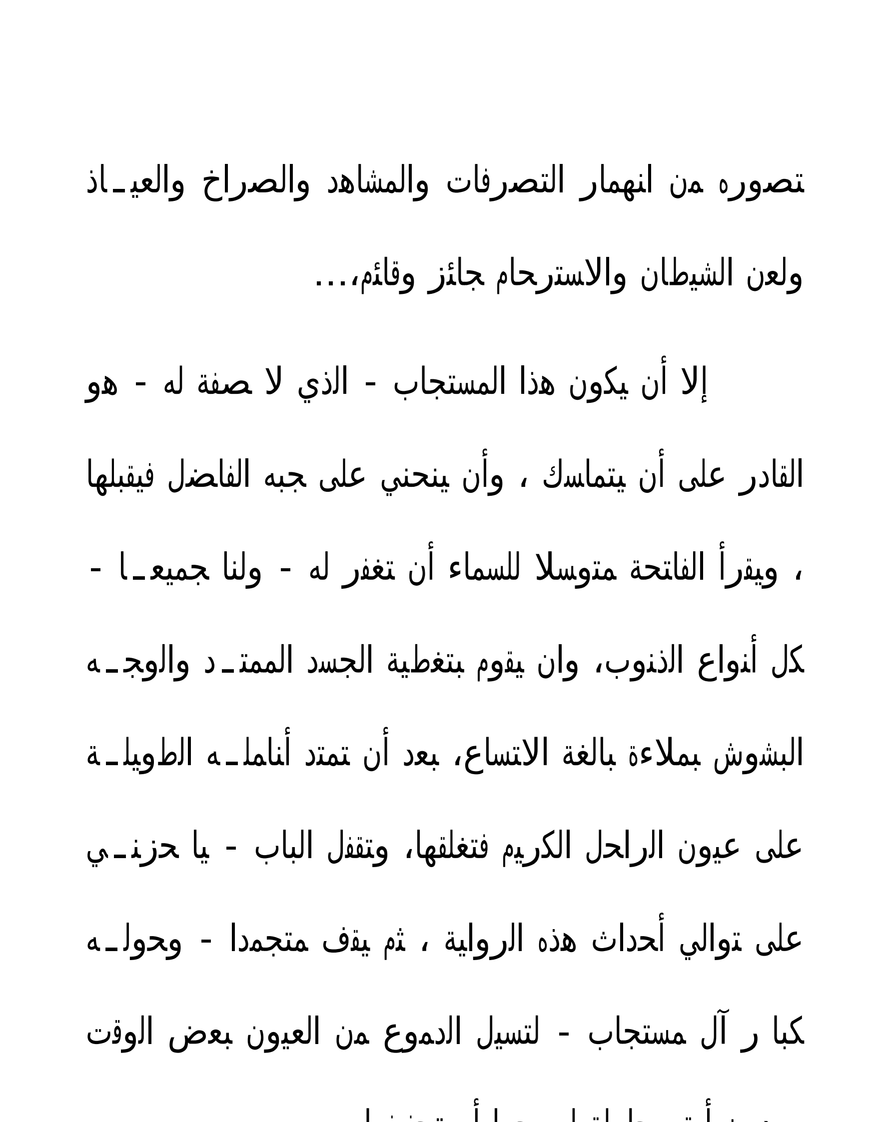

في بواكير إجراءات وطقوس الكوارث الصعبة،وكان الـذي
شاءت ظروفه أن يظهر ساعتها ابن عمه الذي لم يحظ بلقب
بعد ، وان اتسم - كما نعرف - بصفات جعلت لـه تميـزا
خاصا دون منصب أو موقع يبرزهـا ، فقـد عـرف عنـه
الاحتجاج أو الرفض أو الموافقة السريعة المدهشـة والتـي
تتوقف وتتجمد في ملامح وجهه العصيب الشـرس بـدون
تقديم الأسباب، حتى إنه كثيرا ما شارك في مآتم وأعـراس
وصفقات واتفاقات بصوت جهوري صارخ يلف ويدور فـي
الآفاق دون الوصول إلى التأثير المناسب في اتجاه الأمـور،
ثم - كثيرا ما غاب عن مآتم وأعراض وصفقات واتفاقـات
دون أن يعاتبه أو - حتى - يمسك سيرته احد ، فإن حـدث
ذلك وفوجئوا بسيرته على لسانهم المرير كما حدث صـباح



اكتشاف مقتل صبى " ولد " متأخرا في نهايـة سلسـلة مـن إنجاب أبيه للبنات من عدة زوجات ، فإنهم .

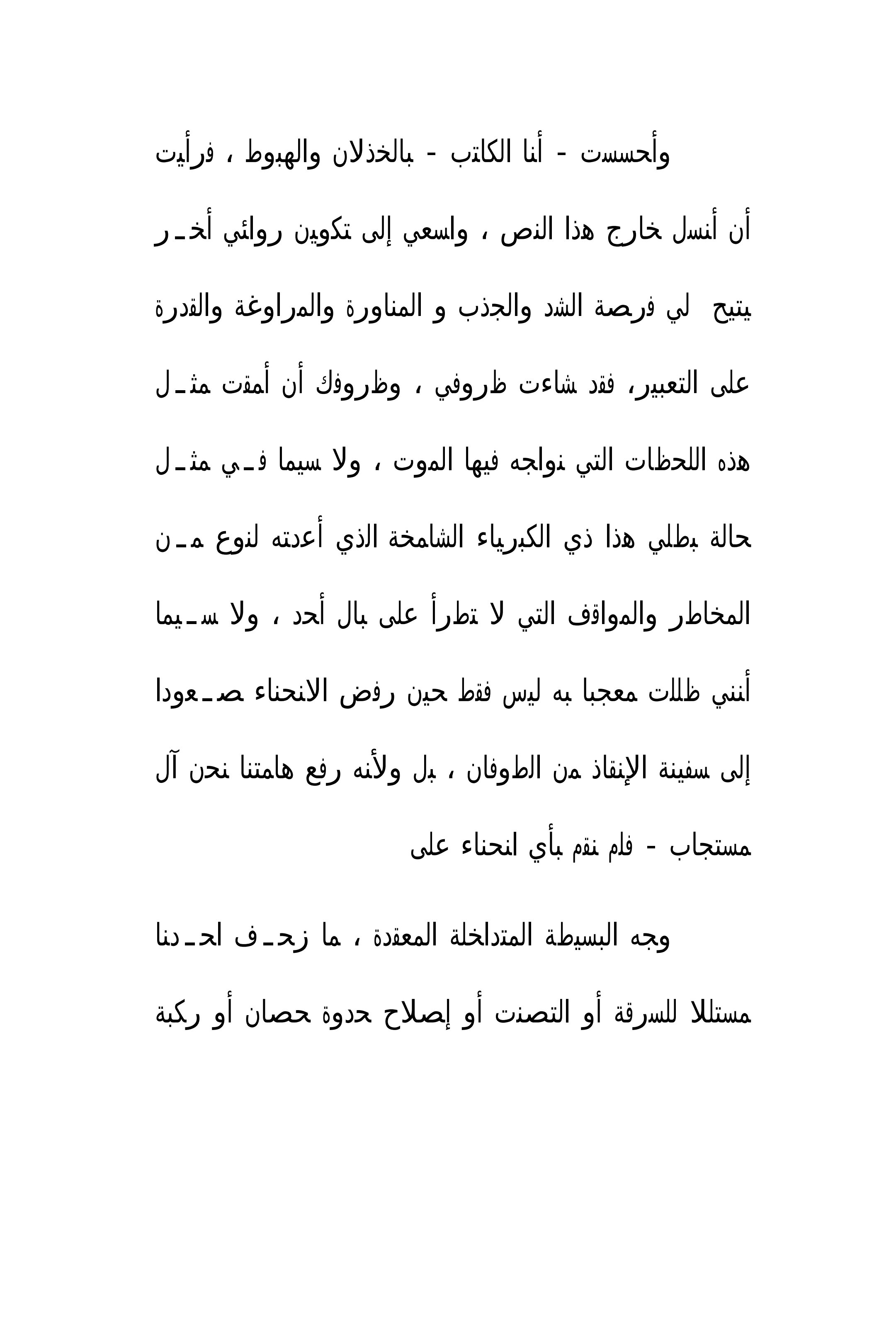
لا يلبثون أن يضطربوا ثم يصمتوا رافعـين عيـون الإحساس بالتفاهة والضآلة.

لكن الأمور آخر نهار ذاك اليوم اضطربت بـالجميع إزاء الحادث الجلل : طلوع روح الفاضل الجميل إلى بارئها ، يتقافز أو يصرخ أو يصدر أوامر أى واحد فـيهم ، يرفـع ذراعية لاجئا - إلى السماء أو يلوذ بالحيطان أو يلطم خدوده ، يتصادم بصدره أو بأذرعه مع الآخرين ، ينشرخ صـوته زاعقا في لوعة أو استجلاب للصبر والعزاء ، يركع علـى الأرض أو يسجد مستغيثا بالواحد القهار، كـل مـا يمكـن



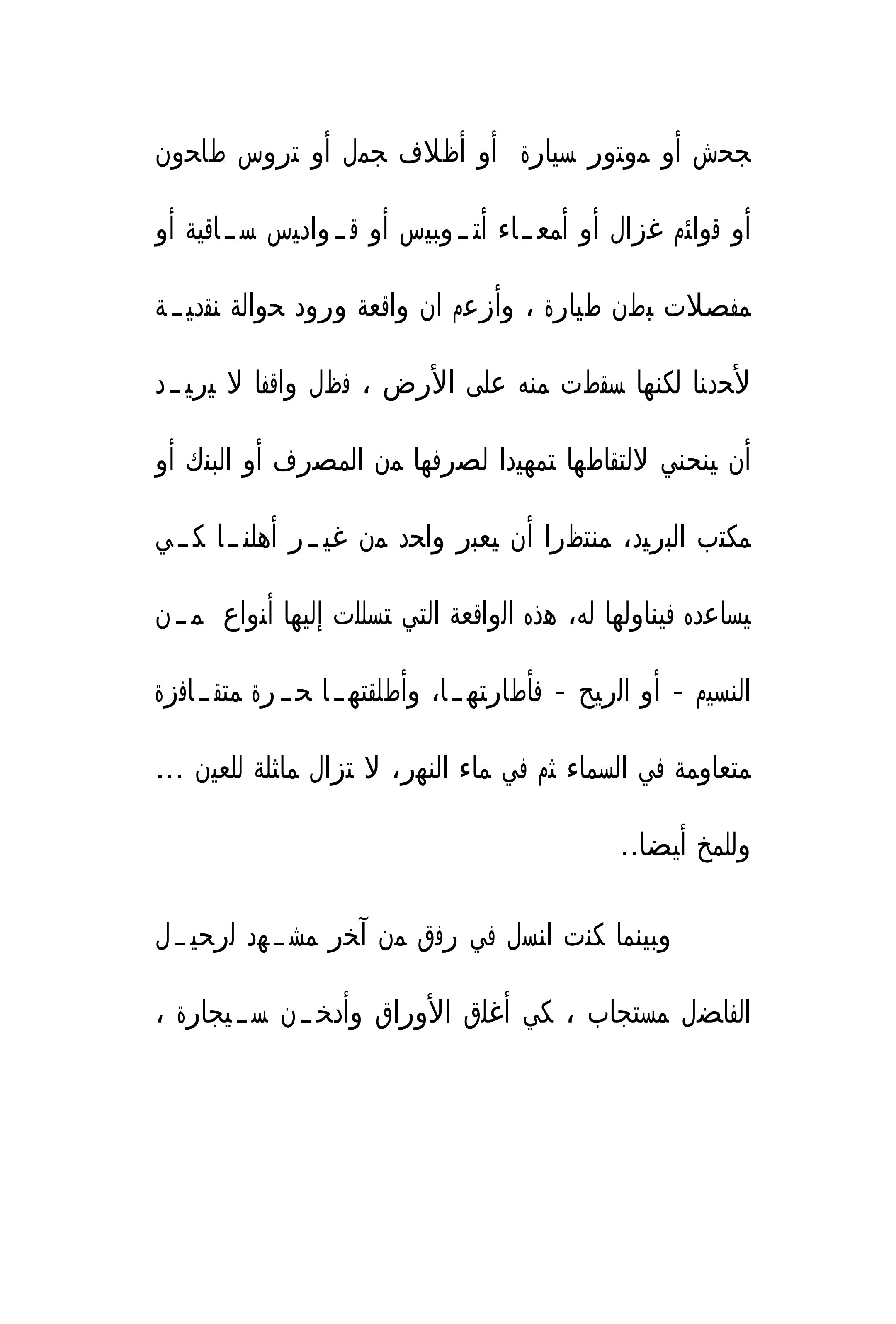
تصوره من انهمار التصرفات والمشاهد والصراخ والعيـاذ ولعن الشيطان والاسترحام جائز وقائم،...

إلا أن يكون هذا المستجاب - الذي لا صفة له - هو القادر على أن يتماسك ، وأن ينحني على جبه الفاضل فيقبلها ، ويقرأ الفاتحة متوسلا للسماء أن تغفر له - ولنا جميعـا - كل أنواع الذنوب، وان يقوم بتغطية الجسد الممتـد والوجـه البشوش بملاءة بالغة الاتساع، بعد أن تمتد أناملـه الطويلـة على عيون الراحل الكريم فتغلقها، وتقفل الباب - يا حزنـي على توالي أحداث هذه الرواية ، ثم يقف متجمدا - وحولـه كبا ر آل مستجاب - لتسيل الدموع من العيون بعض الوقت - دون أية محاولة لمسحها أو تجفيفها..



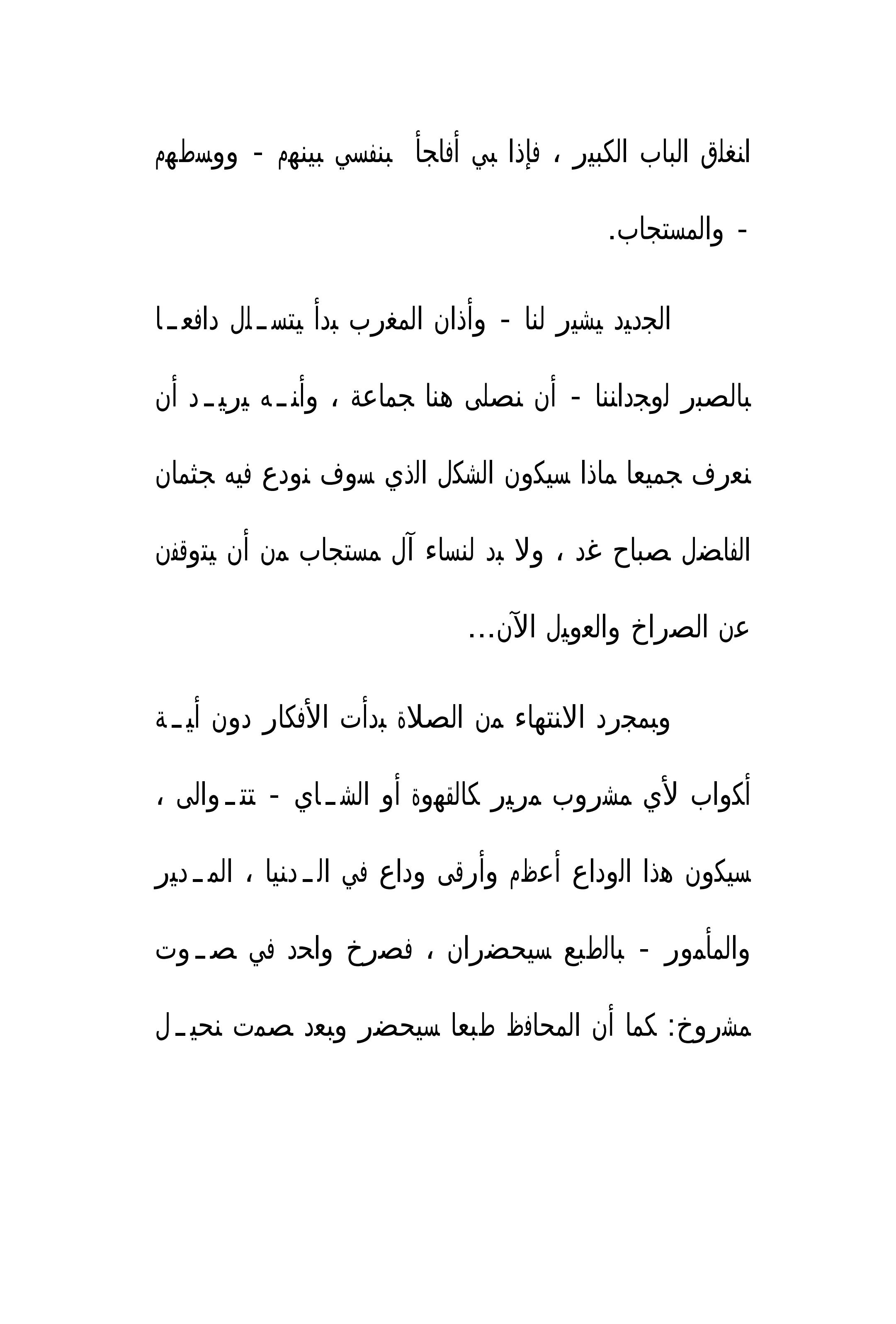
وأحسست - أنا الكاتب - بالخذلان والهبوط ، فرأيت
أن أنسل خارج هذا النص ، واسعي إلى تكوين روائي أخـر
يتيح لي فرصة الشد والجذب و المناورة والمراوغة والقدرة
على التعبير، فقد شاءت ظروفي ، وظروفك أن أمقت مثـل
هذه اللحظات التي نواجه فيها الموت ، ولا سيما فـي مثـل
حالة بطلي هذا ذي الكبرياء الشامخة الذي أعدته لنوع مـن
المخاطر والمواقف التي لا تطرأ على بال أحد ، ولا سـيما
أنني ظللت معجبا به ليس فقط حين رفض الانحناء صـعودا
إلى سفينة الإنقاذ من الطوفان ، بل ولأنه رفع هامتنا نحن آل
مستجاب - فلم نقم بأي انحناء على

وجه البسيطة المتداخلة المعقدة ، ما زحـف احـدنا
مستللا للسرقة أو التصنت أو إصلاح حدوة حصان أو ركبة



جحش أو موتور سيارة أو أظلاف جمل أو تروس طاحون أو قوائم غزال أو أمعـاء أتـوبيس أو قـواديس سـاقية أو مفصلات بطن طيارة ، وأزعم ان واقعة ورود حوالة نقديـة لأحدنا لكنها سقطت منه على الأرض ، فظل واقفا لا يريـد أن ينحني لالتقاطها تمهيدا لصرفها من المصرف أو البنك أو مكتب البريد، منتظرا أن يعبر واحد من غيـر أهلنـا كـي يساعده فيناولها له، هذه الواقعة التي تسللت إليها أنواع مـن النسيم - أو الريح - فأطارتهـا، وأطلقتهـا حـرة متقـافزة متعاومة في السماء ثم في ماء النهر، لا تزال ماثلة للعين ... وللمخ أيضا..

وبينما كنت انسل في رفق من آخر مشـهد لرحيـل الفاضل مستجاب ، كي أغلق الأوراق وأدخـن سـيجارة ،



انغلاق الباب الكبير ، فإذا بي أفاجأ بنفسي بينهم - ووسطهم - والمستجاب.

الجديد يشير لنا - وأذان المغرب بدأ يتسـاءل دافعـا بالصبر لوجداننا - أن نصلى هنا جماعة ، وأنـه يريـد أن نعرف جميعا ماذا سيكون الشكل الذي سوف نودع فيه جثمان الفاضل صباح غد ، ولا بد لنساء آل مستجاب من أن يتوقفن عن الصراخ والعويل الآن...

وبمجرد الانتهاء من الصلاة بدأت الأفكار دون أيـة أكواب لأي مشروب مرير كالقهوة أو الشـاي - تتـوالى ، سيكون هذا الوداع أعظم وأرقى وداع في الـدنيا ، المـدير والمأمور - بالطبع سيحضران ، فصرخ واحد في صـوت مشروخ: كما أن المحافظ طبعا سيحضر وبعد صمت نحيـل

جاء صوت مشروخ بدون صراخ: وربما يأتي من يشـاركنا من السيد الرئيس، نظرا إليه الجميع - في تساؤل صـامت ، فقال واحد ثان : طبعا لا بد من أن يحضـر نائـب رئـيس الجمهورية ، فقام ثالث بالتصحيح الدقيق : ليس نائب الرئيس ، إنما أنت تقصد مندوب السيد الرئيس...

إذن فموكب توديع الفاضل لن يكون عاديا ، كما أن السرادق - أو الصوان - لا بد من أن يمتد من قلـب البلـد حتى آخر بحري البلد لأن نائب الرئيس الأعلى لم يسـبق أن شرف بحضوره أية عائلة أو قبيلة سوانا...

فاستدرك واحد له دراية أكثر: إذن لا بـد مـن أن يكون التوديع والسير بالجثمان الكريم والسرادق فـي موقـع

بعيد عن مكان عزاء النساء ، لماذا ؟ لكنهم حين أمعنوا فـي الاستدارك صمتوا جميعا.

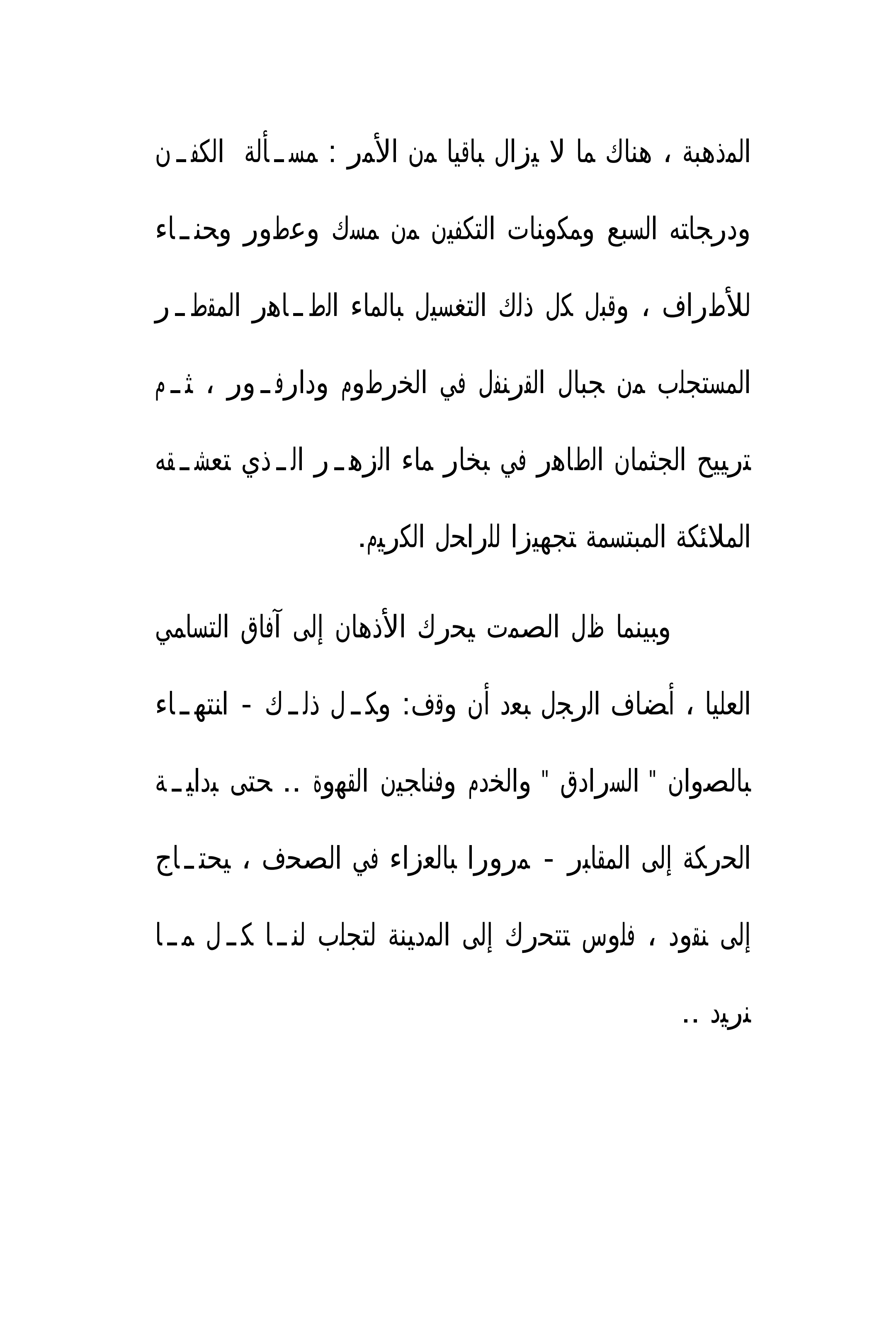
من المفروض أن نتحرك الآن - والبقية في حياتكم ، منحكم ا العمر الطويل، حينما قام قريبنا ذلك الذي لا طعم له ، والذي فوجئنا به يتولى زمام المسائل ، وقال في هـدوء اسمعوني..

وكنا جميعا - حين رفعنا رؤوسـنا - نسـمعه لأول مرة ، المسائل بهذا الشكل - ورمقنا في هدوء - تحتاج إلى مصاريف ، ولا تنسوا أن فقيدنا العزيز نظـر إلينـا نظـرة أخيرة معلنا أنه لا يصح أن نستقبل المعزين القـادمين مـن أطراف الكون دون أن ننشر في الجرائد العزاء الواجب.. .

داهمنا - حينذاك - إحساس جديد لم نألفه من قبل ،

ولقد كان الذين يجيدون القراءة منا ومنهم هذا الذي يـتكلم - يستثيرون فينا أن نكون ذوى شأن خطير يتوافق مع ما يفعله من هم اقل شأنا - ثم يفتحون الجريدة على أعمدة من عزاء قبائل وعائلات في فزارة ودشلوط والجرف والقوصية وببلاو وبنى حرام ، فهل يجوز لنا أن نظل داخل السرداق وفتحات المقابر دون عظمة الكبرياء فوق أعمدة الصحف ؟؟

فلوس للسرادق الضخم ، والكلوبات (أنـواع مـن المصابيح) والسعاة الذين يقدمون القهوة المريرة، مع أهمية ارتدائهم أزياء لها وقع في نفوس المعزين ، كما أن مقرئـي القرآن الكريم لا بد من أن يكونوا من ذوى الشهرة في العالم كله ، شهرة تتوافق مع اتساع السرادق وفخامـة المقاعـد



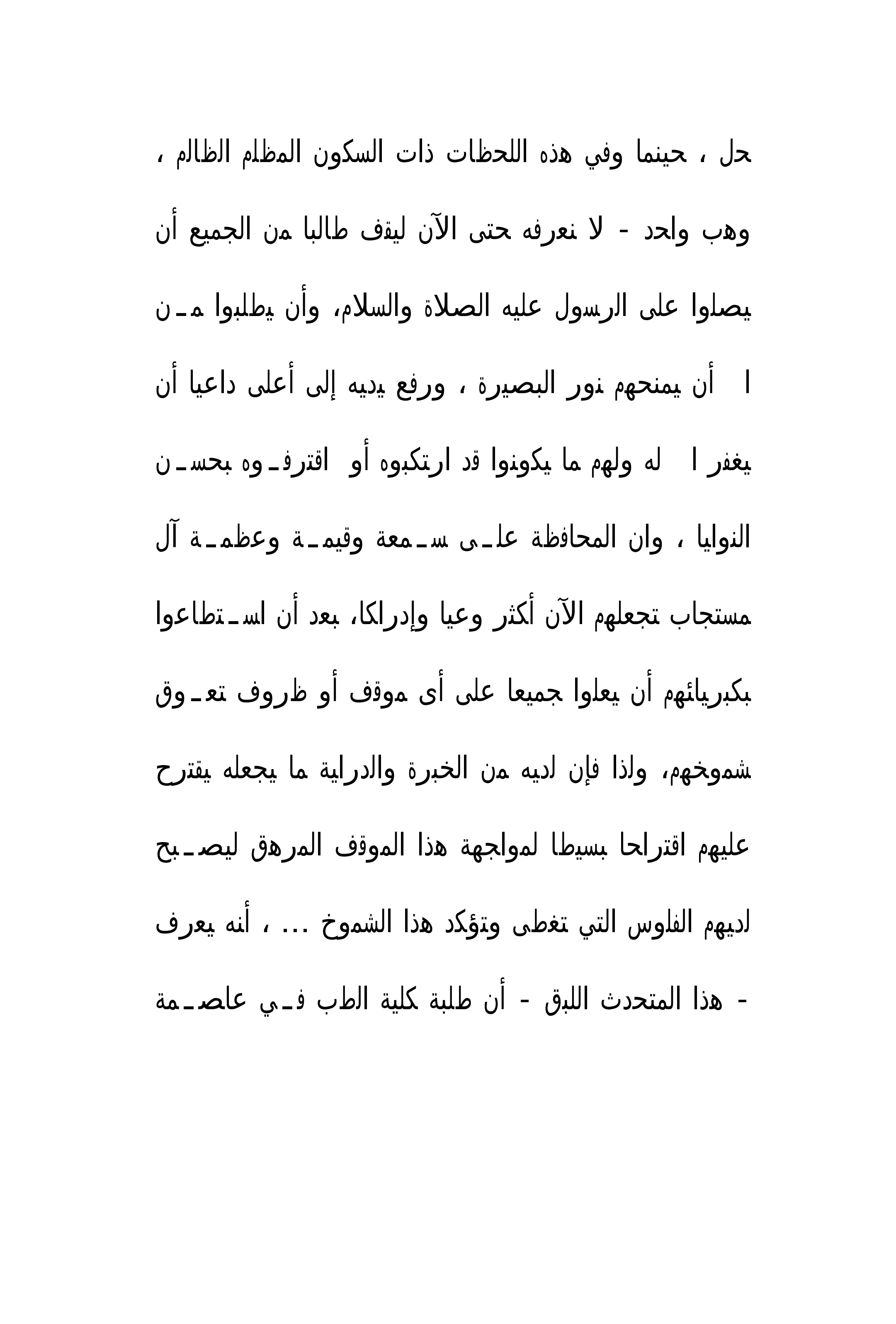
المذهبة ، هناك ما لا يزال باقيا من الأمر : مسألة الكفن ودرجاته السبع ومكونات التكفين من مسك وعطور وحناء للأطراف ، وقبل كل ذلك التغسيل بالماء الطاهر المقطر المستجلب من جبال القرنفل في الخرطوم ودارفور ، ثم ترييح الجثمان الطاهر في بخار ماء الزهر الذي تعشقه الملائكة المبتسمة تجهيزا للراحل الكريم.

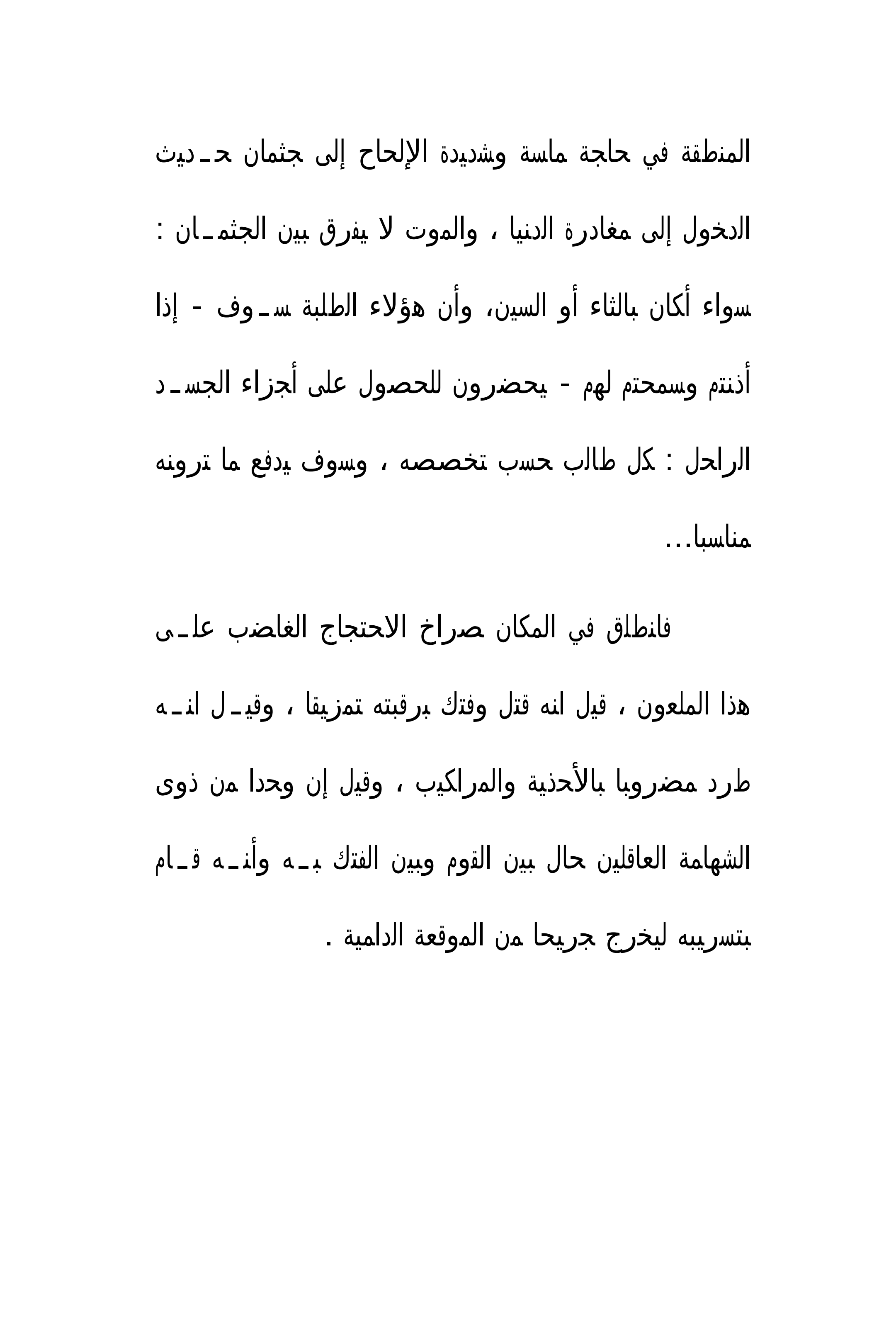
وبينما ظل الصمت يحرك الأذهان إلى آفاق التسامي العليا ، أضاف الرجل بعد أن وقف: وكل ذلك - انتهاء بالصوان " السرادق " والخدم وفناجين القهوة .. حتى بداية الحركة إلى المقابر - مرورا بالعزاء في الصحف ، يحتاج إلى نقود ، فلوس تتحرك إلى المدينة لتجلب لنا كل ما نريد ..

حينئذ اكتشفوا ما يعرفونه جيدا : أن القرية بطبيعتها يمكنها وتفخر - بأن يكون فيها قوم مثل آل مسـتجاب ذوى كبرياء يعلون على الحياة المادية بما فيها من زرع وضرع وتجارة ولف.

ودوران ، ويأتيهم الرزق من أبواب ا المفتوحة في أجران القمح ولحم الماعز وأعراف الديوك ورقاب الضـأن وسنام الجمال ومسا طيح البلح، لكـن المدينـة المعاونـة لا تعرف سوى الفلوس: كن عظيما أو شهيرا أو كريما: ادفـع الفلوس وسوف تصلك كل امنياتـك علـى عربـات النقـل وصفحات العزاء في الصحف..

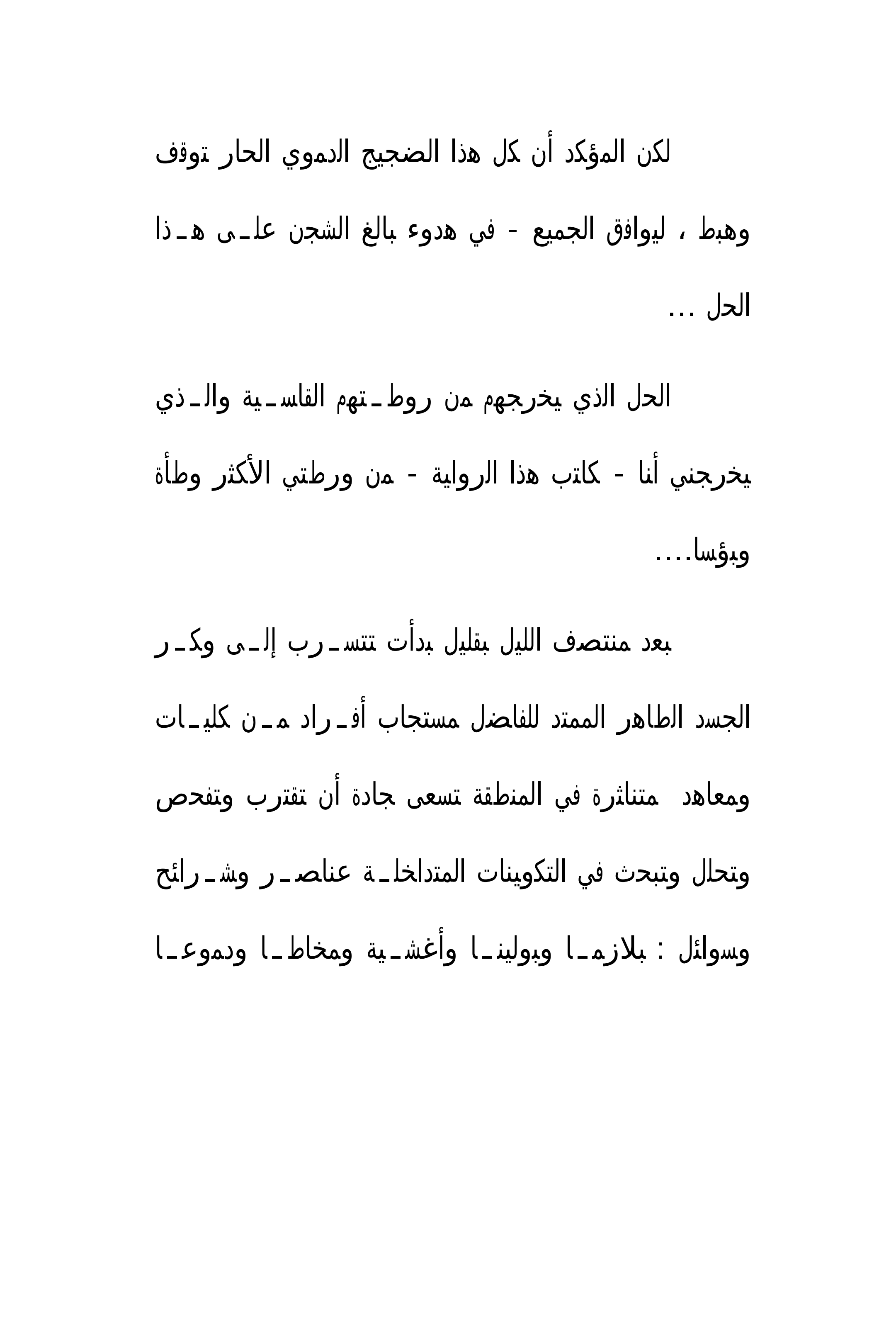
الصمت هذه المرة كان قاسيا ، وبالغ المارة ، وكـل الرؤوس فقدت القدرة على الحركة والتصور والبحـث عـن


حل ، حينما وفي هذه اللحظات ذات السكون المظلم الظالم ،
وهب واحد - لا نعرفه حتى الآن ليقف طالبا من الجميع أن
يصلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يطلبوا مـن
ا أن يمنحهم نور البصيرة ، ورفع يديه إلى أعلى داعيا أن
يغفر ا له ولهم ما يكونوا قد ارتكبوه أو اقترفـوه بحسـن
النوايا ، وان المحافظة علـى سـمعة وقيمـة وعظمـة آل
مستجاب تجعلهم الآن أكثر وعيا وإدراكا، بعد أن اسـتطاعوا
بكبريائهم أن يعلوا جميعا على أى موقف أو ظروف تعـوق
شموخهم، ولذا فإن لديه من الخبرة والدراية ما يجعله يقترح
عليهم اقتراحا بسيطا لمواجهة هذا الموقف المرهق ليصـبح
لديهم الفلوس التي تغطى وتؤكد هذا الشموخ ... ، أنه يعرف
- هذا المتحدث اللبق - أن طلبة كلية الطب فـي عاصـمة



المنطقة في حاجة ماسة وشديدة الإلحاح إلى جثمان حـديث الدخول إلى مغادرة الدنيا ، والموت لا يفرق بين الجثمـان : سواء أكان بالثاء أو السين، وأن هؤلاء الطلبة سـوف - إذا أذنتم وسمحتم لهم - يحضرون للحصول على أجزاء الجسـد الراحل : كل طالب حسب تخصصه ، وسوف يدفع ما ترونه مناسبا...

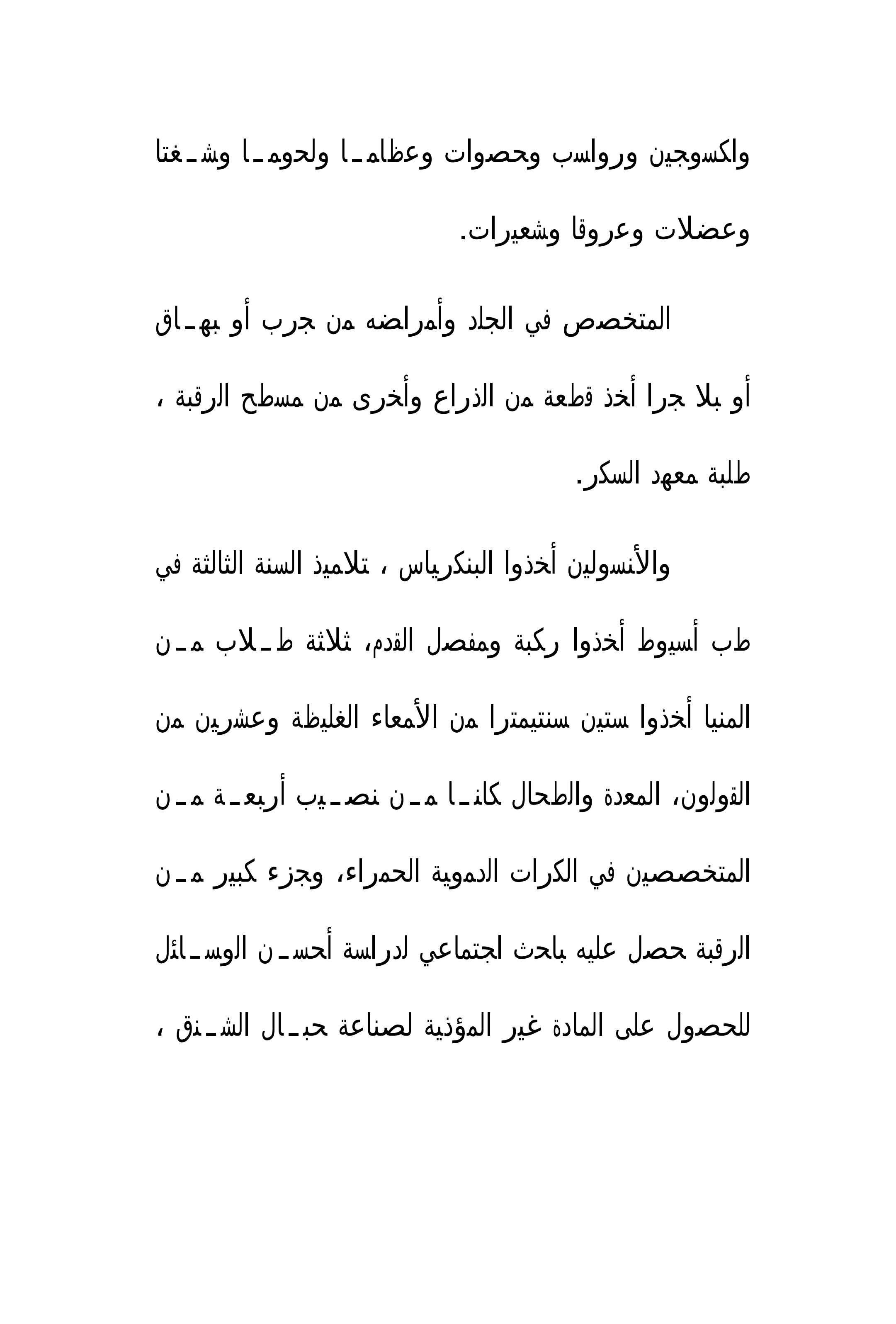
فانطلق في المكان صراخ الاحتجاج الغاضب علـى هذا الملعون ، قيل انه قتل وفتك برقبته تمزيقا ، وقيـل انـه طرد مضروبا بالأحذية والمراكيب ، وقيل إن وحدا من ذوى الشهامة العاقلين حال بين القوم وبين الفتك بـه وأنـه قـام بتسريبه ليخرج جريحا من الموقعة الدامية .



لكن المؤكد أن كل هذا الضجيج الدموي الحار توقف وهبط ، ليوافق الجميع - في هدوء بالغ الشجن علـى هـذا الحل ...

الحل الذي يخرجهم من روطـتهم القاسـية والـذي يخرجني أنا - كاتب هذا الرواية - من ورطتي الأكثر وطأة وبؤسا....

بعد منتصف الليل بقليل بدأت تتسـرب إلـى وكـر الجسد الطاهر الممتد للفاضل مستجاب أفـراد مـن كليـات ومعاهد متناثرة في المنطقة تسعى جادة أن تقترب وتفحص وتحلل وتبحث في التكوينات المتداخلـة عناصـر وشـرائح وسوائل : بلازمـا وبولينـا وأغشـية ومخاطـا ودموعـا



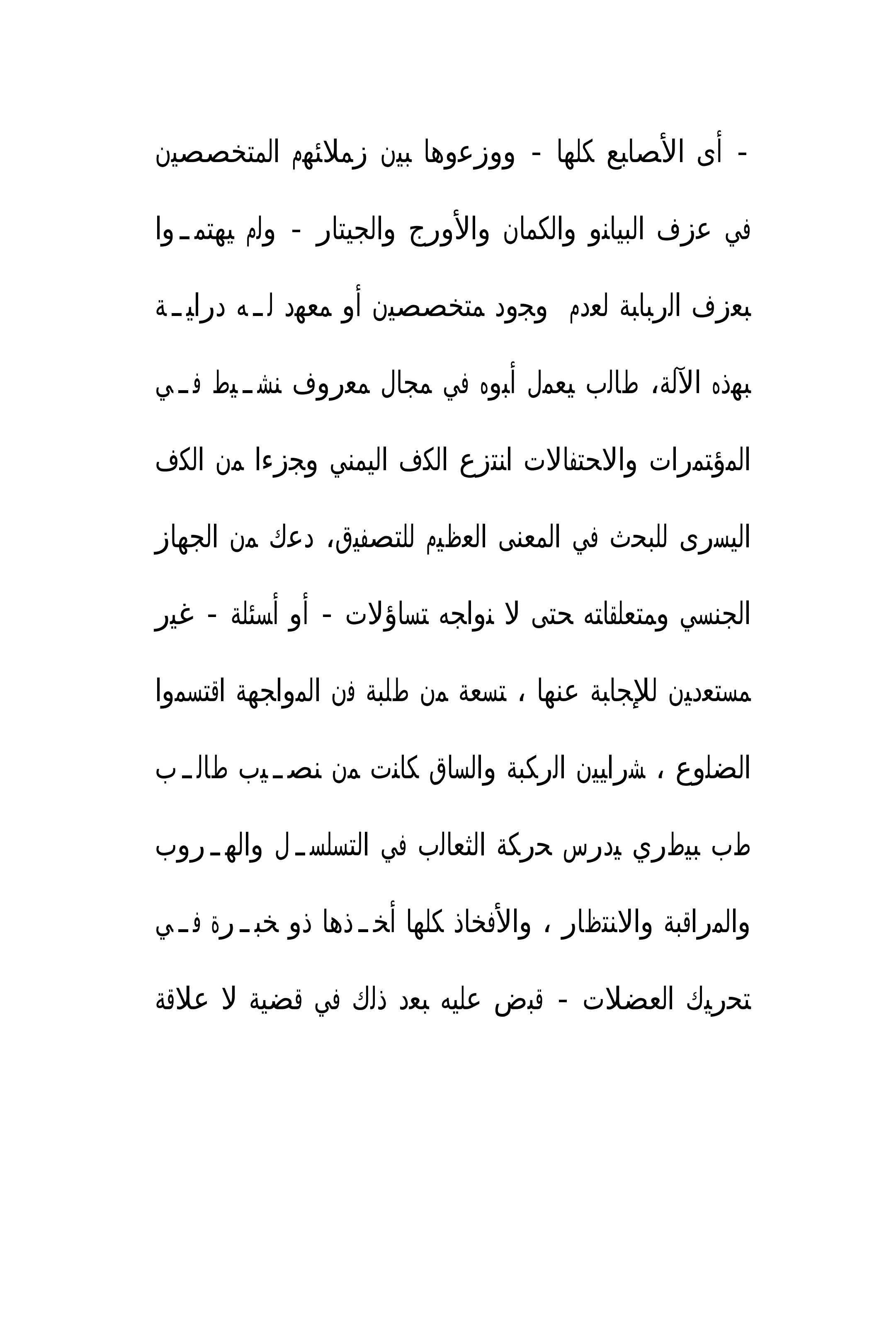
واكسوجين ورواسب وحصوات وعظامـا ولحومـا وشـغتا وعضلات وعروقا وشعيرات.

المتخصص في الجلد وأمراضه من جرب أو بهـاق أو بلا جرا أخذ قطعة من الذراع وأخرى من مسطح الرقبة ، طلبة معهد السكر.

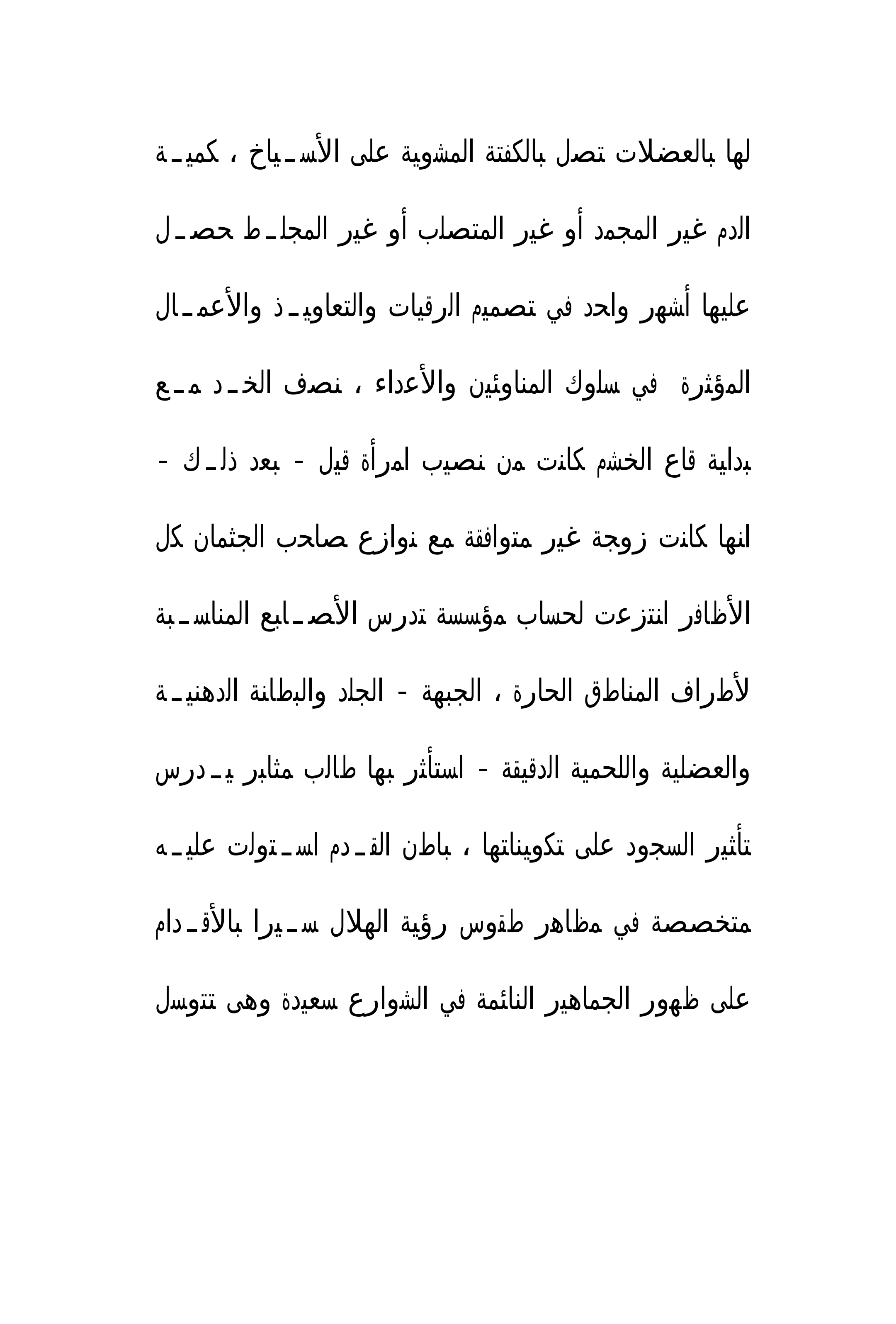
والأنسولين أخذوا البنكرياس ، تلاميذ السنة الثالثة في طب أسيوط أخذوا ركبة ومفصل القدم، ثلاثة طـلاب مـن المنيا أخذوا ستين سنتيمترا من الأمعاء الغليظة وعشرين من القولون، المعدة والطحال كانـا مـن نصـيب أربعـة مـن المتخصصين في الكرات الدموية الحمراء، وجزء كبير مـن الرقبة حصل عليه باحث اجتماعي لدراسة أحسـن الوسـائل للحصول على المادة غير المؤذية لصناعة حبـال الشـنق ،

اثنان من كلية الآداب قسم الغزل والتشبيب في الإناث حصلوا على الأهداب - أى الرموش - وحدقـة العـين اليسـرى ، والأستاذ المشرف على حقوق الإنسان استطاع أن يشـترى جزءا من اللسان والثقب الخلفي في المؤخرة ، واحـد مـن رجال النيابة (يسعى لنيل درجة الدكتوراه في تأثير الصوت على معنى الاعتراف الجنائي) انتزع سقف الخشم وجـزءا من الأنف واللسان ، أستاذ في السياسة الحديثة سمحوا له بأن يمتلك بعض الشعيرات المتناثرة في الرأس .

أو الشارب أو الذقن - أو أمـاكن أخـرى - كـي يحاضر عن فلسفة شعرة معاوية كأسـاس ضـرورى فـي الحوار العالمي القائم، طلبة معهد الموسيقى - الذين جـاءوا على ظهر طائر العندليب من القاهرة - حصلوا على الأنامل



- أى الأصابع كلها - ووزعوها بين زملائهم المتخصصين في عزف البيانو والكمان والأورج والجيتار - ولم يهتمـوا بعزف الربابة لعدم وجود متخصصين أو معهد لـه درايـة بهذه الآلة، طالب يعمل أبوه في مجال معروف نشـيط فـي المؤتمرات والاحتفالات انتزع الكف اليمني وجزءا من الكف اليسرى للبحث في المعنى العظيم للتصفيق، دعك من الجهاز الجنسي ومتعلقاته حتى لا نواجه تساؤلات - أو أسئلة - غير مستعدين للإجابة عنها ، تسعة من طلبة فن المواجهة اقتسموا الضلوع ، شرايين الركبة والساق كانت من نصـيب طالـب طب بيطري يدرس حركة الثعالب في التسلسـل والهـروب والمراقبة والانتظار ، والأفخاذ كلها أخـذها ذو خبـرة فـي تحريك العضلات - قبض عليه بعد ذلك في قضية لا علاقة



لها بالعضلات تصل بالكفتة المشوية على الأسـياخ ، كميـة

الدم غير المجمد أو غير المتصلب أو غير المجلـط حصـل

عليها أشهر واحد في تصميم الرقيات والتعاويـذ والأعمـال

المؤثرة في سلوك المناوئين والأعداء ، نصف الخـد مـع

بداية قاع الخشم كانت من نصيب امرأة قيل - بعد ذلـك -

انها كانت زوجة غير متوافقة مع نوازع صاحب الجثمان كل

الأظافر انتزعت لحساب مؤسسة تدرس الأصـابع المناسـبة

لأطراف المناطق الحارة ، الجبهة - الجلد والبطانة الدهنيـة

والعضلية واللحمية الدقيقة - استأثر بها طالب مثابر يـدرس

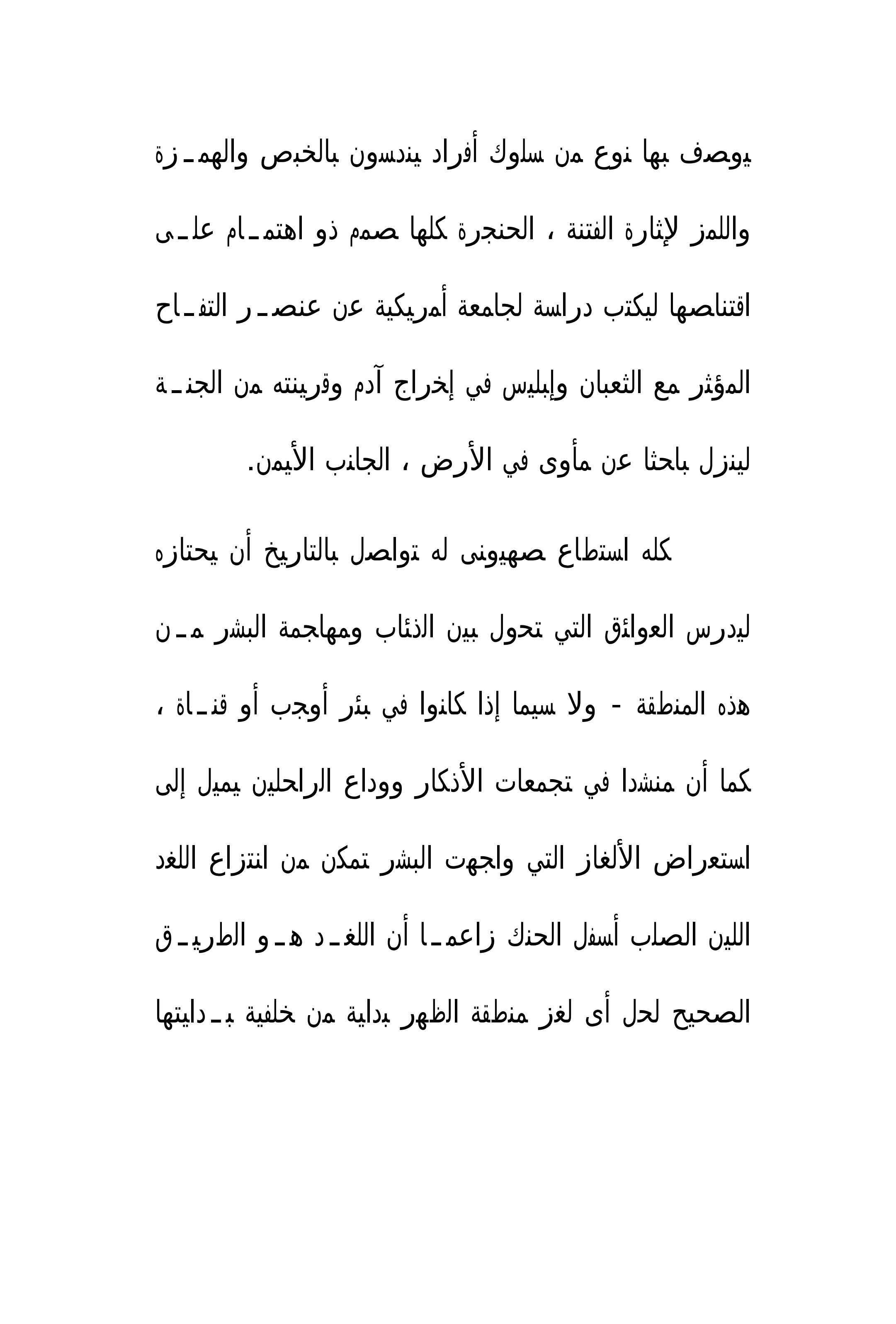
تأثير السجود على تكويناتها ، باطن القـدم اسـتولت عليـه

متخصصة في مظاهر طقوس رؤية الهلال سـيرا بالأقـدام

على ظهور الجماهير النائمة في الشوارع سعيدة وهى تتوسل

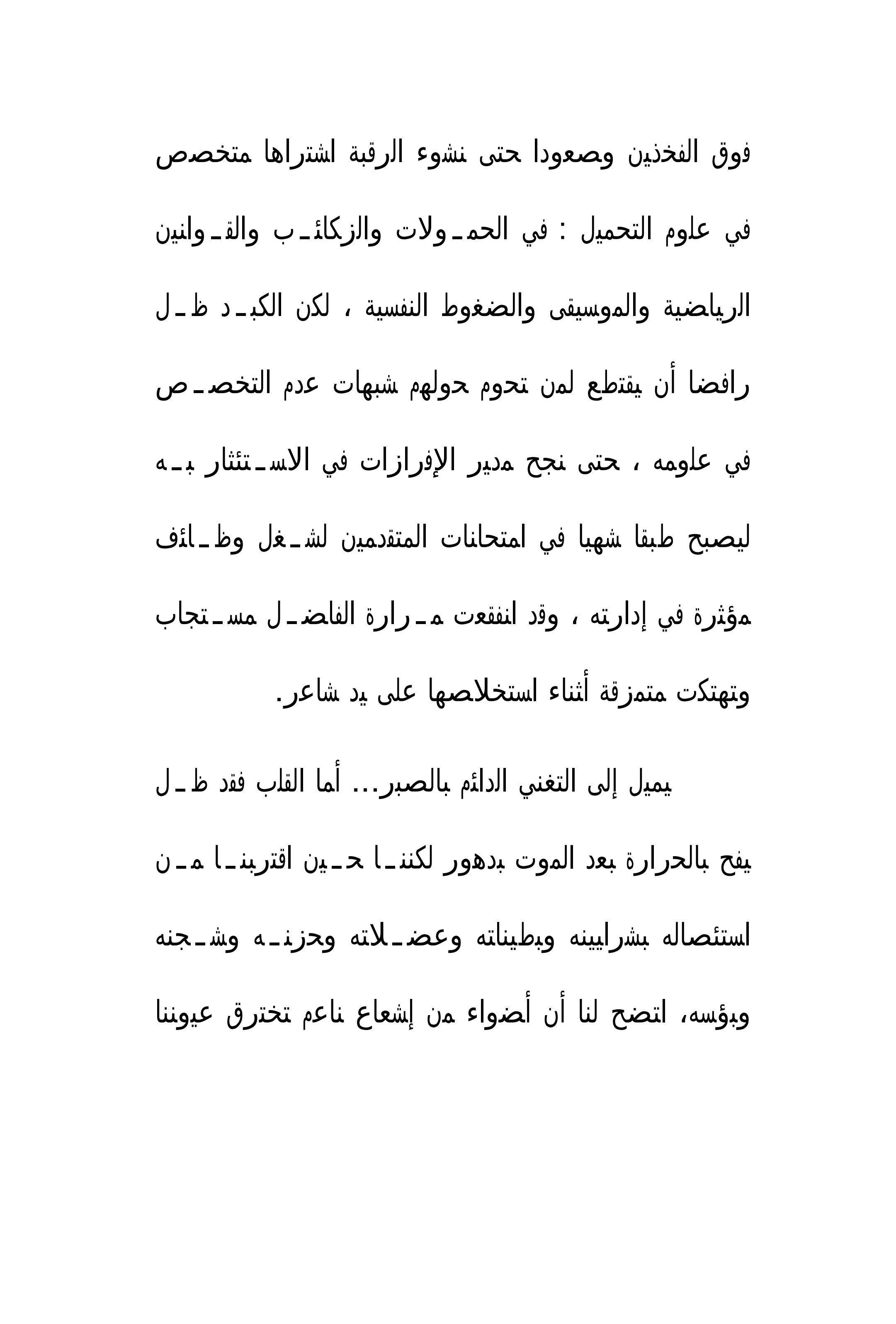
من الملائكة منحها الرضا، تأجر خلاخيل - وقيل قباقيب - نجح في الاستئثار .

بالكعب الأيمن (أو اليمنى فقـد تكـون مؤنثـة) ، موظف - يعمل على ترتيب أصـول البطاقـات الشخصـية والعائلية والرقم القومي وجوازات السفر - انتزع مسـاحة من جلد أدنى وأعلى الذارع ومساحة من جلد الصدغ ليبدأ بها ملف الوشم الذي يظهر عليه الهلال والصـليب والعصـافير والسباع والنخيل وأسماء المناطق التي ينتمى إليها صاحبها ، نسبة من أغطية الكرش كانت من نصيب مشرف التخـزين في صوامع غلال البنوك والجمعيات الزراعية ، طبيب شهير في المنطقة حصل على المنطقة الصفراء وهذا هـوا لأسـم المجازى لما تحت الإبطين من شـعر وروائـح وإفـرازات



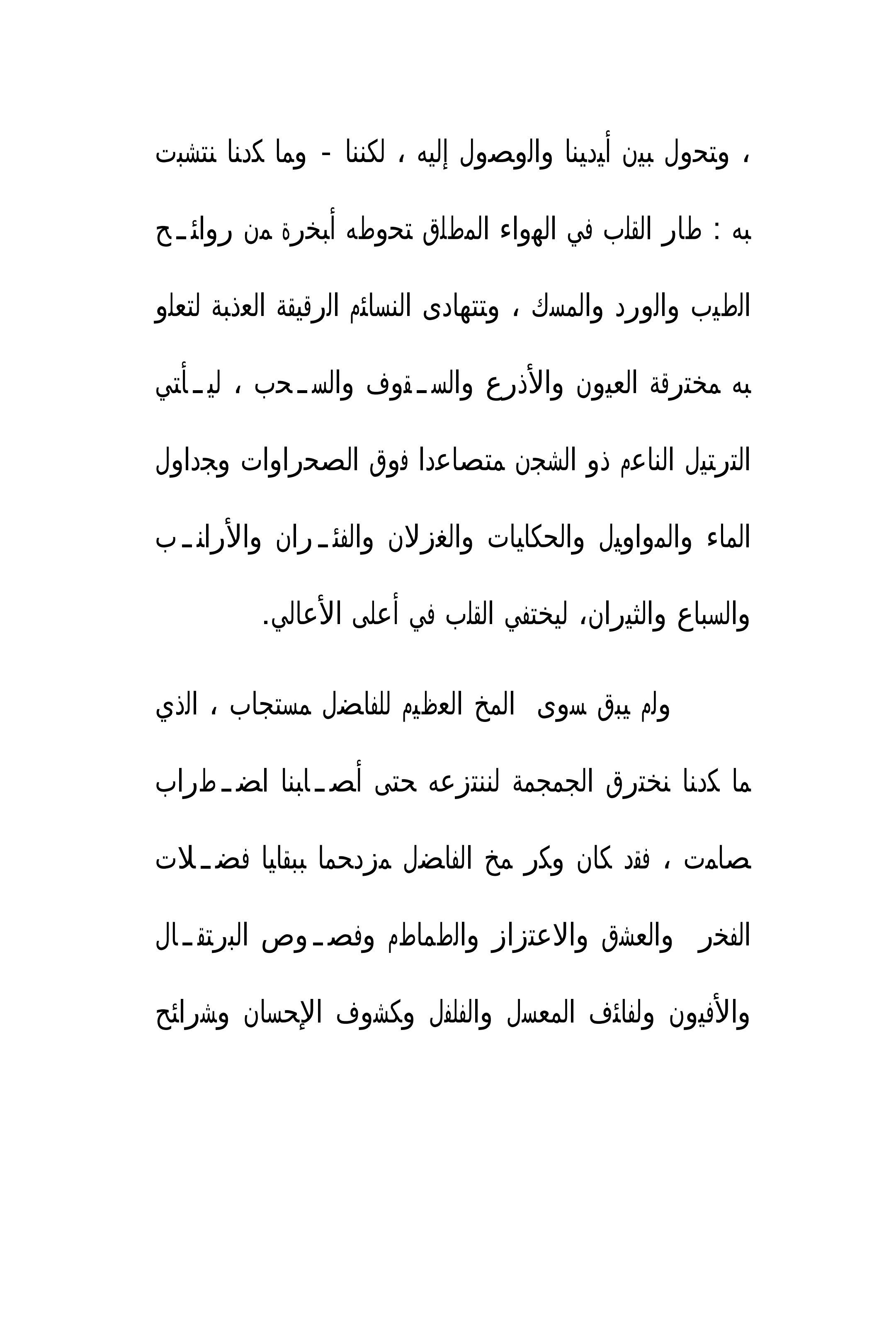
يوصف بها نوع من سلوك أفراد يندسون بالخبص والهمـزة واللمز لإثارة الفتنة ، الحنجرة كلها صمم ذو اهتمـام علـى اقتناصها ليكتب دراسة لجامعة أمريكية عن عنصـر التفـاح المؤثر مع الثعبان وإبليس في إخراج آدم وقرينته من الجنـة لينزل باحثا عن مأوى في الأرض ، الجانب الأيمن.

كله استطاع صهيونى له تواصل بالتاريخ أن يحتازه ليدرس العوائق التي تحول بين الذئاب ومهاجمة البشر مـن هذه المنطقة - ولا سيما إذا كانوا في بئر أوجب أو قنـاة ، كما أن منشدا في تجمعات الأذكار ووداع الراحلين يميل إلى استعراض الألغاز التي واجهت البشر تمكن من انتزاع اللغد اللين الصلب أسفل الحنك زاعمـا أن اللغـد هـو الطريـق الصحيح لحل أى لغز منطقة الظهر بداية من خلفية بـدايتها



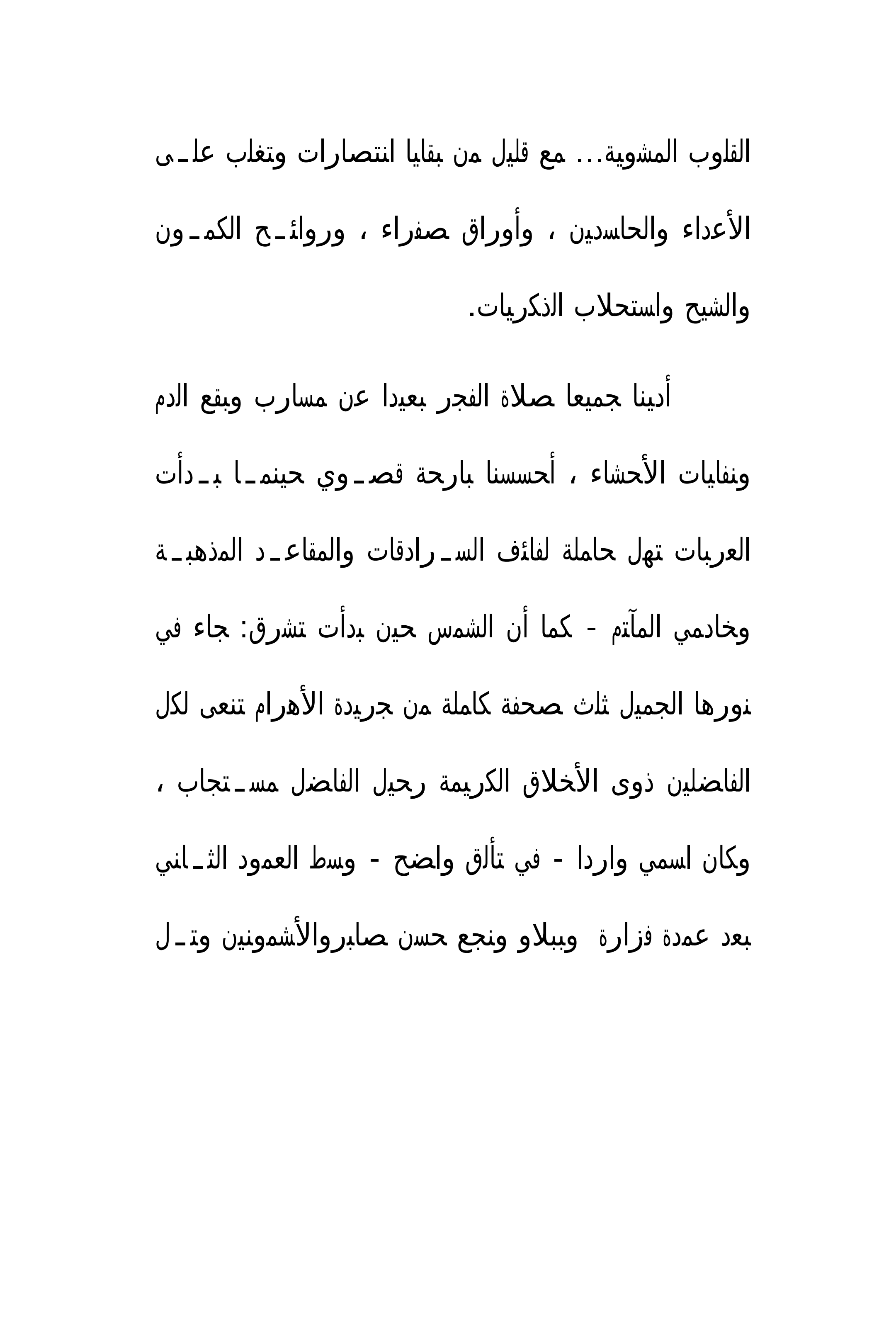
فوق الفخذين وصعودا حتى نشوء الرقبة اشتراها متخصص في علوم التحميل : في الحمولات والزكائب والقوانين الرياضية والموسيقى والضغوط النفسية ، لكن الكبد ظل رافضا أن يقتطع لمن تحوم حولهم شبهات عدم التخصص في علومه ، حتى نجح مدير الإفرازات في الاستئثار به ليصبح طبقا شهيا في امتحانات المتقدمين لشغل وظائف مؤثرة في إدارته ، وقد انفقعت مرارة الفاضل مستجاب وتهتكت متمزقة أثناء استخلاصها على يد شاعر.

يميل إلى التغني الدائم بالصبر... أما القلب فقد ظل يفح بالحرارة بعد الموت بدهور لكننا حين اقتربنا من استئصاله بشرايينه وبطيناته وعضلاته وحزنه وشجنه وبؤسه، اتضح لنا أن أضواء من إشعاع ناعم تخترق عيوننا



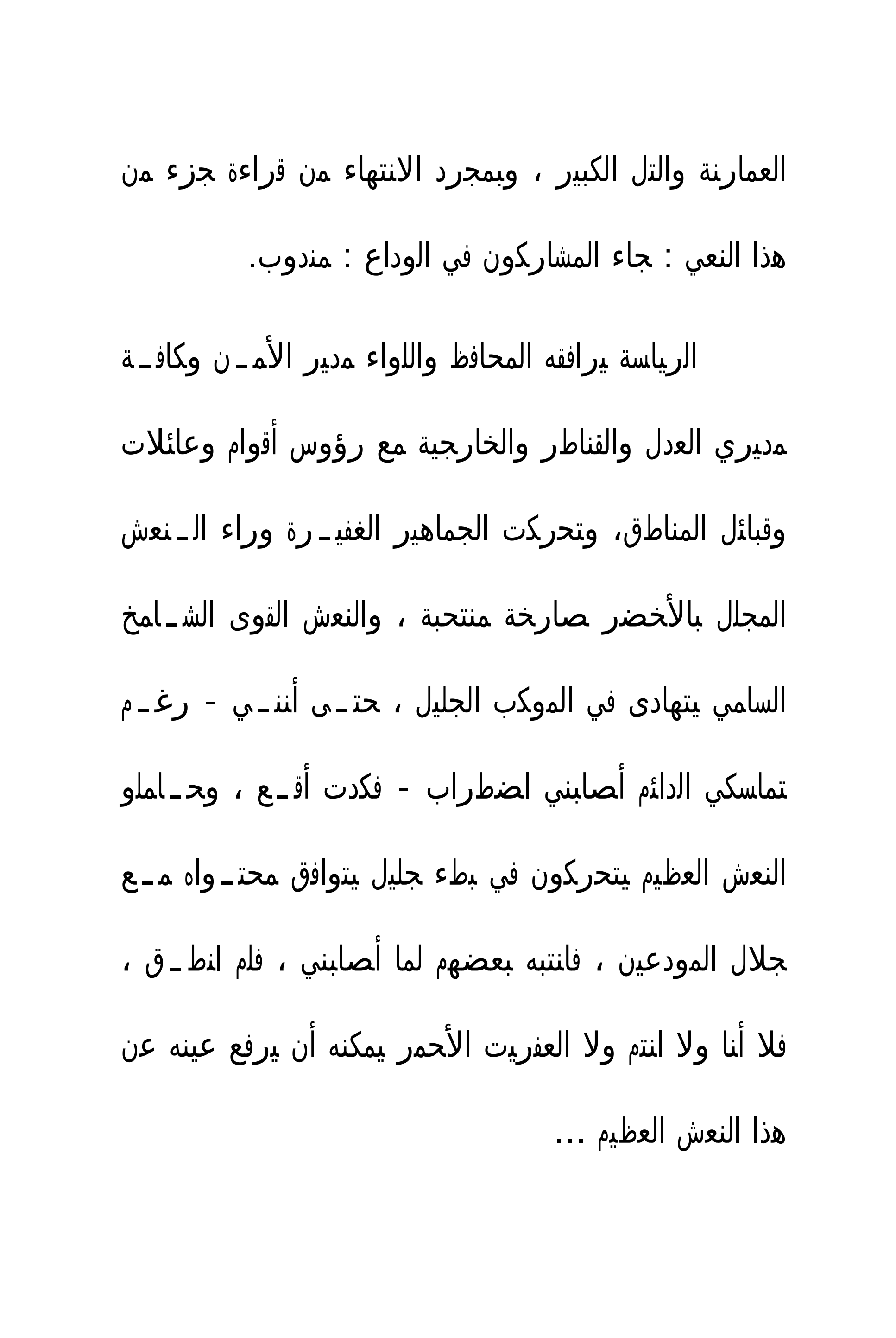
، وتحول بين أيدينا والوصول إليه ، لكننا - وما كدنا نتشبث به : طار القلب في الهواء المطلق تحوطه أبخرة من روائـح الطيب والورد والمسك ، وتتهادى النسائم الرقيقة العذبة لتعلو به مخترقة العيون والأذرع والسـقوف والسـحب ، ليـأتي الترتيل الناعم ذو الشجن متصاعدا فوق الصحراوات وجداول الماء والمواويل والحكايات والغزلان والفئـران والأرانـب والسباع والثيران، ليختفي القلب في أعلى الأعالي.

ولم يبق سوى المخ العظيم للفاضل مستجاب ، الذي ما كدنا نخترق الجمجمة لننتزعه حتى أصـابنا اضـطراب صامت ، فقد كان وكر مخ الفاضل مزدحما ببقايا فضـلات الفخر والعشق والاعتزاز والطماطم وفصـوص البرتقـال والأفيون ولفائف المعسل والفلفل وكشوف الإحسان وشرائح



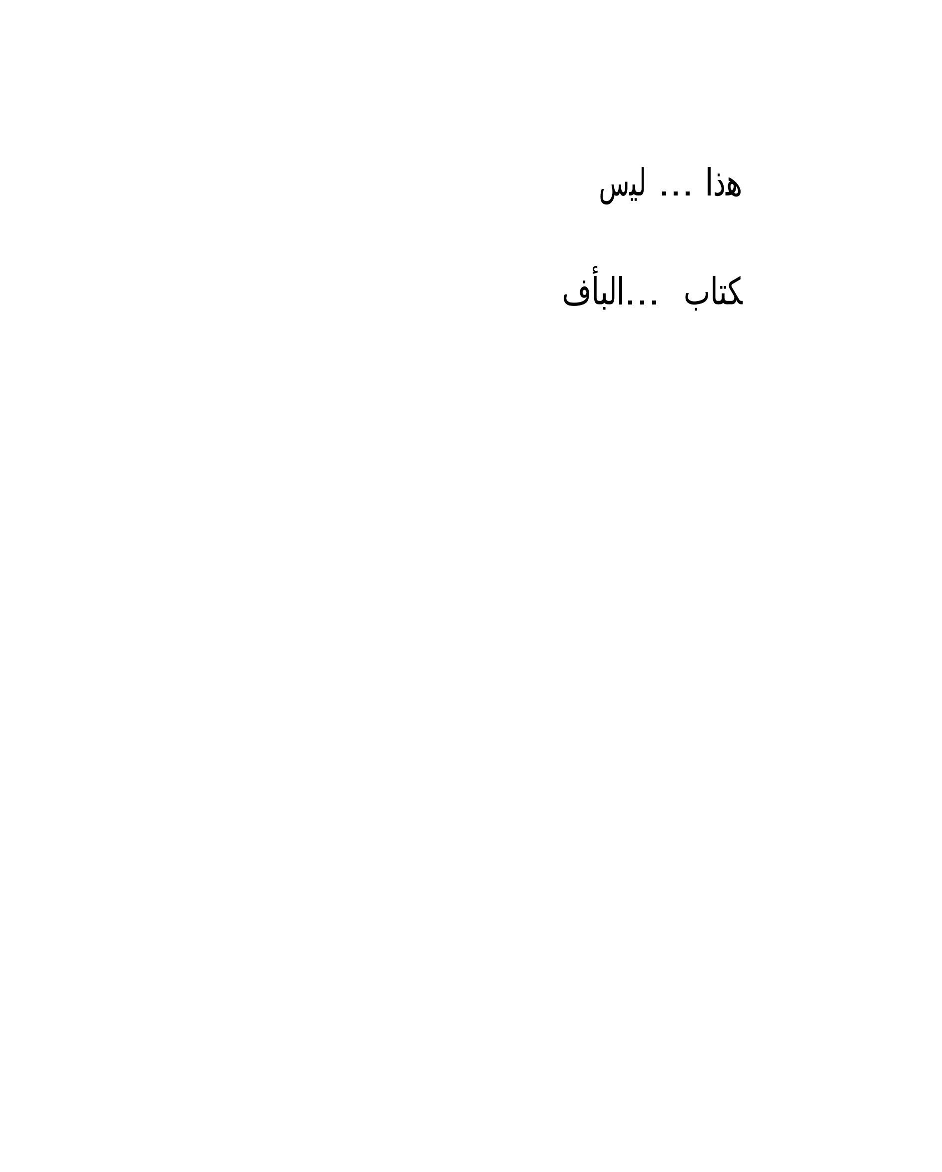
القلوب المشوية... مع قليل من بقايا انتصارات وتغلب علـى الأعداء والحاسدين ، وأوراق صفراء ، وروائـح الكمـون والشيح واستحلاب الذكريات.

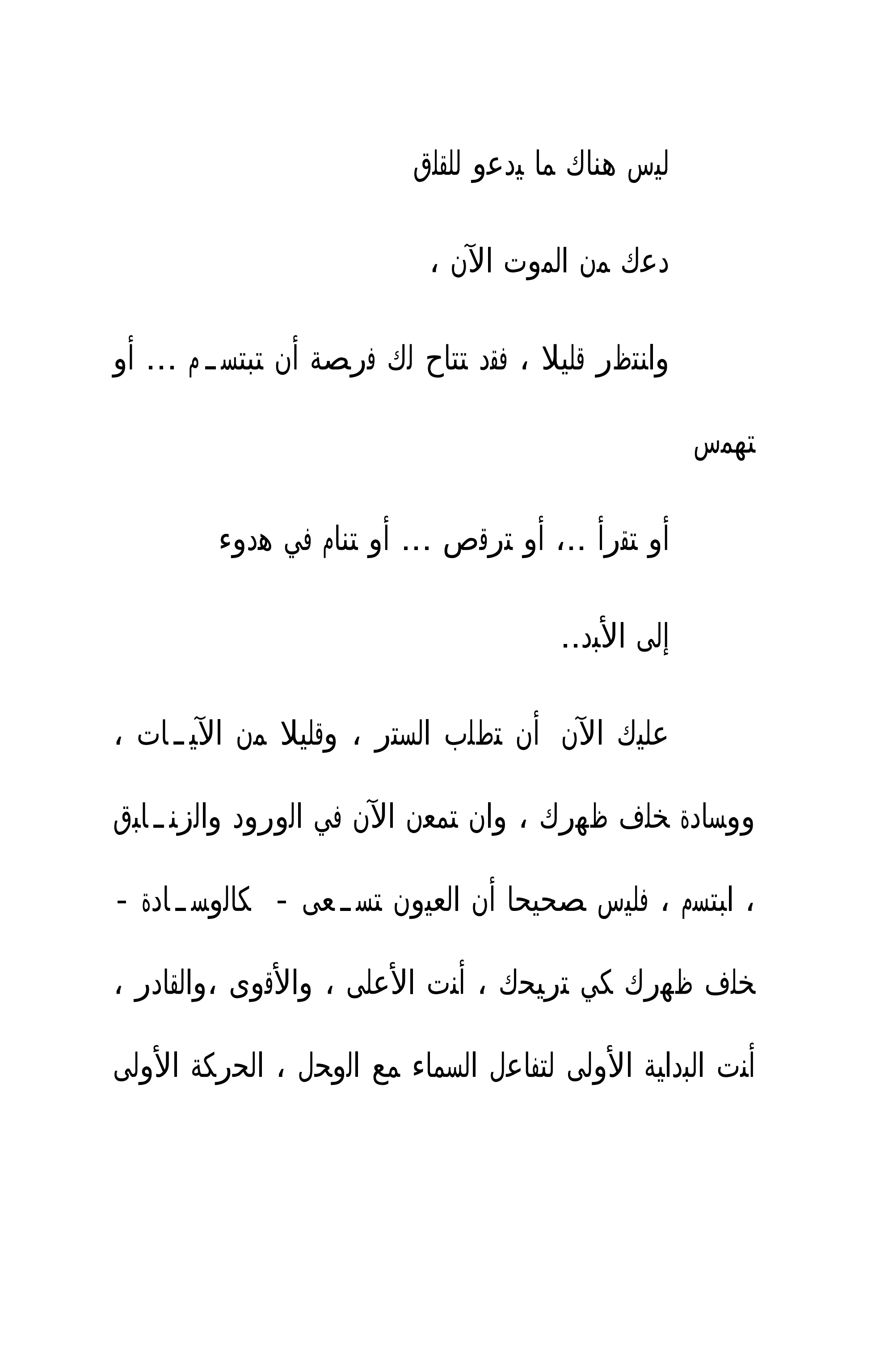
أدينا جميعا صلاة الفجر بعيدا عن مسارب وبقع الدم ونفايات الأحشاء ، أحسسنا بارحة قصـوي حينمـا بـدأت العربات تهل حاملة لفائف السـرادقات والمقاعـد المذهبـة وخادمي المآتم - كما أن الشمس حين بدأت تشرق: جاء في نورها الجميل ثلث صحفة كاملة من جريدة الأهرام تنعى لكل الفاضلين ذوى الأخلاق الكريمة رحيل الفاضل مسـتجاب ، وكان اسمي واردا - في تألق واضح - وسط العمود الثـاني بعد عمدة فزارة وببلاو ونجع حسن صابروالأشمونين وتـل



العمارنة والتل الكبير ، وبمجرد الانتهاء من قراءة جزء من هذا النعي : جاء المشاركون في الوداع : مندوب.

الرياسة يرافقه المحافظ واللواء مدير الأمـن وكافـة مديري العدل والقناطر والخارجية مع رؤوس أقوام وعائلات وقبائل المناطق، وتحركت الجماهير الغفيـرة وراء الـنعش المجلل بالأخضر صارخة منتحبة ، والنعش القوى الشـامخ السامي يتهادى في الموكب الجليل ، حتـى أننـي - رغـم تماسكي الدائم أصابني اضطراب - فكدت أقـع ، وحـاملو النعش العظيم يتحركون في بطء جليل يتوافق محتـواه مـع جلال المودعين ، فانتبه بعضهم لما أصابني ، فلم انطـق ، فلا أنا ولا انتم ولا العفريت الأحمر يمكنه أن يرفع عينه عن هذا النعش العظيم ...


هذا ... ليس
كتاب ...البأف



ليس هناك ما يدعو للقلق

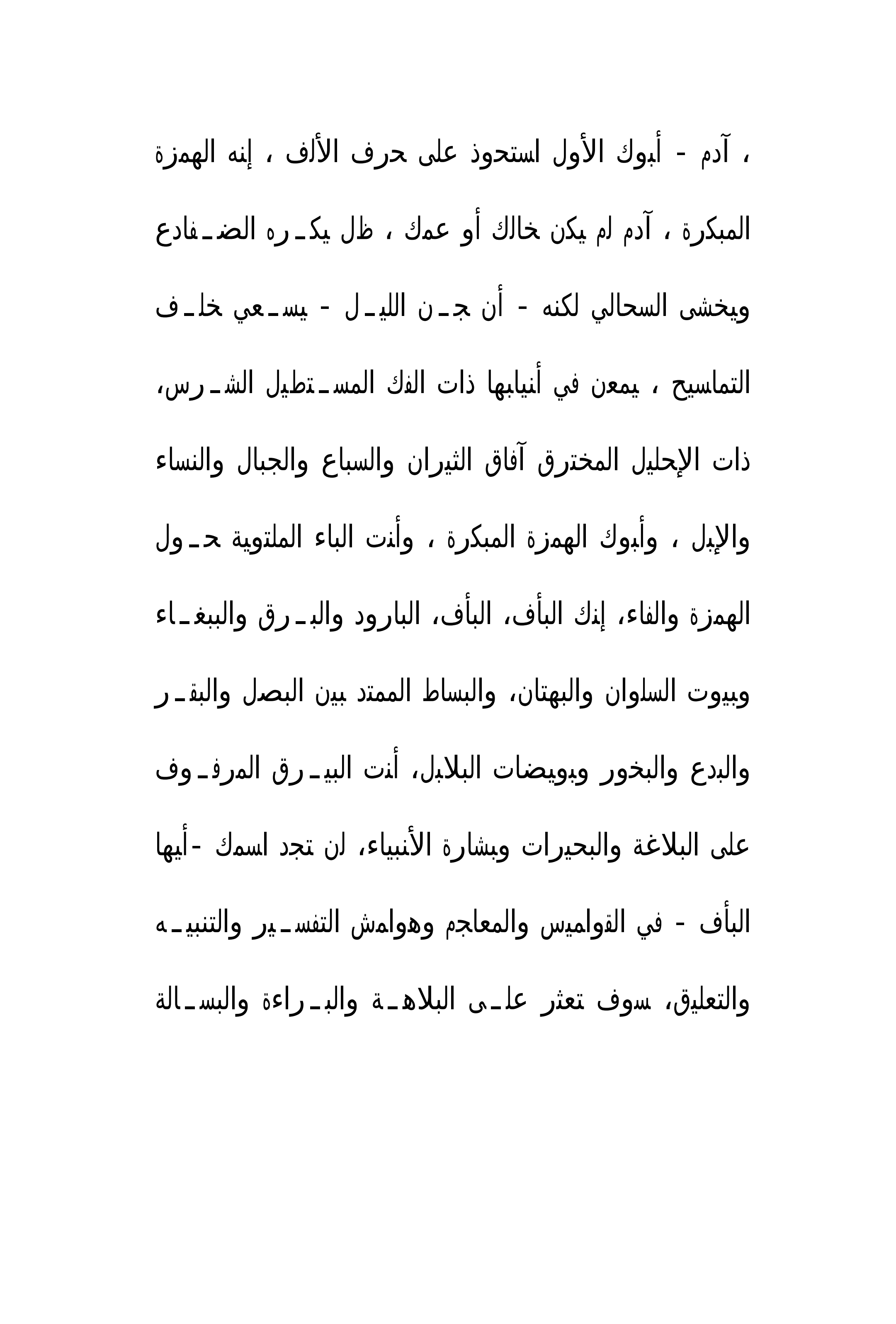
دعك من الموت الآن ،

وانتظر قليلا ، فقد تتاح لك فرصة أن تبتسـم ... أو تهمس

أو تقرأ ..، أو ترقص ... أو تنام في هدوء

إلى الأبد..

عليك الآن أن تطلب الستر ، وقليلا من الآيـات ، ووسادة خلف ظهرك ، وان تمعن الآن في الورود والزنـابق ، ابتسم ، فليس صحيحا أن العيون تسـعى - كالوسـادة - خلف ظهرك كي تريحك ، أنت الأعلى ، والأقوى ،والقادر ، أنت البداية الأولى لتفاعل السماء مع الوحل ، الحركة الأولى



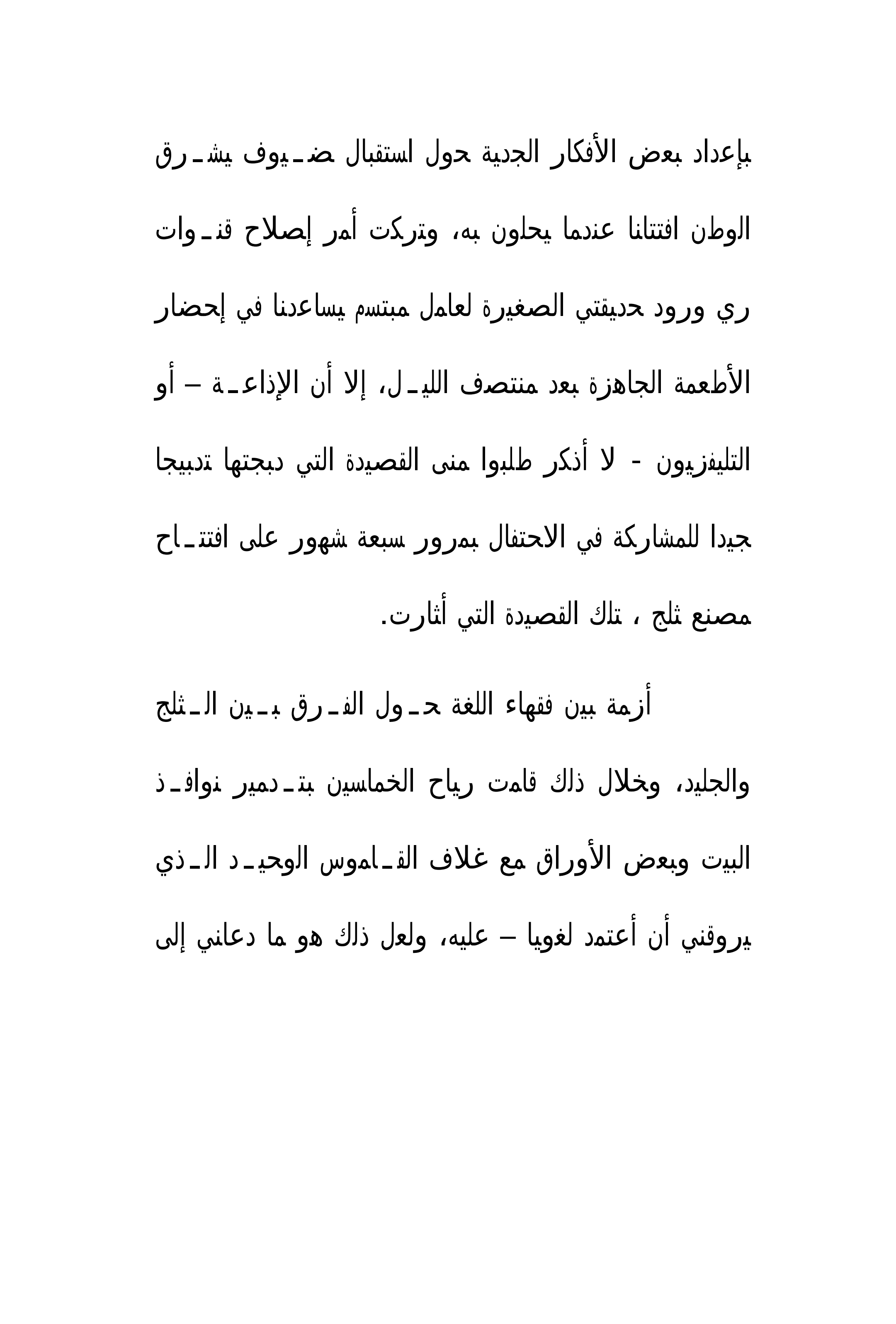
، آدم - أبوك الأول استحوذ على حرف الألف ، إنه الهمزة
المبكرة ، آدم لم يكن خالك أو عمك ، ظل يكـره الضـفادع
ويخشى السحالي لكنه - أن جـن الليـل - يسـعي خلـف
التماسيح ، يمعن في أنيابها ذات الفك المسـتطيل الشـرس،
ذات الإحليل المخترق آفاق الثيران والسباع والجبال والنساء
والإبل ، وأبوك الهمزة المبكرة ، وأنت الباء الملتوية حـول
الهمزة والفاء، إنك البأف، البأف، البارود والبـرق والببغـاء
وبيوت السلوان والبهتان، والبساط الممتد بين البصل والبقـر
والبدع والبخور وبويضات البلابل، أنت البيـرق المرفـوف
على البلاغة والبحيرات وبشارة الأنبياء، لن تجد اسمك -أيها
البأف - في القواميس والمعاجم وهوامش التفسـير والتنبيـه
والتعليق، سوف تعثر علـى البلاهـة والبـراءة والبسـالة

والبشاعة والبراعة والبشاشة وبوابات الفردوس، وقليل مـن البساطة الهادئة التي قد تتيح لك أن تظل البطل الـدائم بـين السطور وفوق السطور.

لكنك لن تجد للبأف أثرا.

تمهيد أولى

ما كنت أبدا أرضي لكاتب أن يقع فيما ترفضه اللغة والأخلاق، معا، ولقد ظللت أول من أشار إلى أن الأعداء في كل بقاع الكتب والأسفار والقارات يضمرون لنا أنواعاً مـن الحقد الدفين الذي شوه أغصان الشجر وأنوف الإناث وقواعد اللغة وقفزات الأرانب، وعندما اختارني المسئولون في النظر إلى هذا النص ذي العنوان غير المريح (البـأف) أحسسـت برغبة عارمة في الاعتذار ، ثم انشغلت - قبل أن أعتـذر -



بإعداد بعض الأفكار الجدية حول استقبال ضـيوف يشـرق الوطن افتتانا عندما يحلون به، وتركت أمر إصلاح قنـوات ري ورود حديقتي الصغيرة لعامل مبتسم يساعدنا في إحضار الأطعمة الجاهزة بعد منتصف الليـل، إلا أن الإذاعـة – أو التليفزيون - لا أذكر طلبوا منى القصيدة التي دبجتها تدبيجا جيدا للمشاركة في الاحتفال بمرور سبعة شهور على افتتـاح مصنع ثلج ، تلك القصيدة التي أثارت.

أزمة بين فقهاء اللغة حـول الفـرق بـين الـثلج والجليد، وخلال ذلك قامت رياح الخماسين بتـدمير نوافـذ البيت وبعض الأوراق مع غلاف القـاموس الوحيـد الـذي يروقني أن أعتمد لغويا – عليه، ولعل ذلك هو ما دعاني إلى

العودة المرهقة إلى هذا النص اللغوي و الأدبي الـذي بـين أيديكم الآن.

لقد فوجئت – خلال محاولاتي الهروب بعيـدا عـن النوافذ - التي حطمتها الأعاصير – بأن أي قـاموس فـي مكتبي – الأثير أو الساذج – لم يتعرض أبدا من قريـب أو بعيد لشرح كلمة (البأف)، كما أن أسفار التاريخ – ما يخصنا أو يخص غيرنا – قفزت فوق البأف في صمت دون اعتذار لتصل إلى لفظ يليه، قلت في نفسي: إنها أمور لا تثير الغيظ أو الاحتقان ربما يكون البأف قد وقع في بالوعة التغييـر أو التحوير، أو يكون البأف ترتيبا لخلاصـة حـروف كلمـات عديدة لتصبح رمزا معاصرا كما هو معهود، حينئذ تـذكرت أن القصيدة التي دبجتها – تدبيجا جيدا – في احتفال افتتـاح

مصنع الجليد أو الثلج: كانت في الأساس قصيدة تهنئـه ذات

وقع رومانسي لفتاة أحببتها في بداية عمري، وأهـديتها لهـا

سرا أول الأمر ثم ألقيتها علنا في عيد زواجها، فإذا بي أقـع

في غمار اللحظات السعيدة الأليمة التـي تسـتثيرها أمـواج

الذكريات، تلك التي اجتـاحتني- الـذكريات والقصـيدة –

وجعلتني أمعن في النوافذ المحطمة فأحس بان العالم ينفـتح

ويتفاعل في بواطنى، فأتناثر في الوجـود بخـارا عـذبا..

ومريرا...أليست العودة إلى كتاب البأف أفضل؟؟

لعل أول من أشار إلى كتاب (البأف) هـو الراحـل

إلى الملكوت فاقد الذاكرة في رسالته الشهيرة عن (غـروب

الشموس بين السجود والجلوس) وجاءت الإشارة في سطرين

حينما قال عن احد وزراء يافث بن نوح ٠ عليه السلام أنـه

كان يحب لعب العصا واستخراج الثعابين من الشقوق، كمـا
ظل مغرما بكتاب (البأف) يتمايل حينما يشدو به واحد مـن
جلسائه، إلا أن امرأة صادقت رجلا غامضـا وراء الجبـاال
عادت باكية – منذ شهور قليلة تنعي عشيقها الذي اكتشـفت
أنه راح ضحية مؤامرة قام بها (البأف)، ولم توضح أكثـر
من ذلك – وهو ما جاء في واحدة مـن الصـحف القوميـة
الموثوق بها، ومع هذا ظلت الأنشودة التي وجدت في مداخل
مقبرة القطبي المعروف " أبو اليمين "، والتي يتبادلها العيـال
في الشوارع في أثناء لعب الكرة الشراب: (لازم يكون عندك
ميس تاني قبل ما تنصب الميس الأولانى) والمـيس عنـد
العامة قالب من الطوب يحدد المنتصر في المباراة بما أصابه
من أهداف اصطدام الكرة المصنوعة من مزق القماش بـه،

وتحت هذه الأغنية كلمة تشير إلى أن (الميس) هو البـأف،

مع أن جدران مقابر الأقباط لم تكن تحمل مثل ذلك، إنما هي

الصناديق التي تحفظ فيها رفات الموتى، وهذا مـا يتنـاقض

تماما مع تلك القصيدة التي وردت في كتاب القراءة الرشيدة

الذي كان مقررا تدريسه على تلاميذ المـدارس الأوليـة أو

الإلزامية في عصر السلطانة عصمت الدين أم خليل، والتـي

اشتهرت بعد ذلك في وسائل المعرفة الحديثة باسـم شـجرة

الدر (١٢٥٠ ميلادية) وأولها: قد كان عندي بلبل في قفـص

من ذهب، حيث جاء البيت التاسع فيها: يحب نـور البـأف،

وريشة من زغب، ثم جاءت تلك الفاجعة التي بالغ كثير مـن

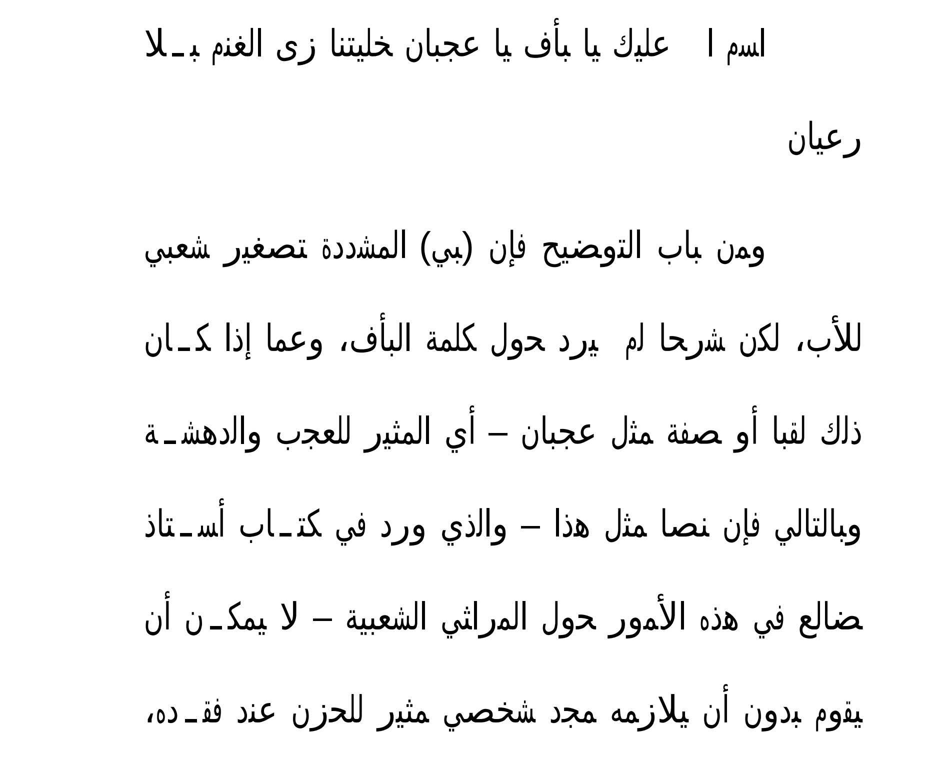
الكتب في رصدها – مع خفتها وتفاهـة وقوعهـا، حينمـا

أشارت ٠ هذه الكتب الصفراء للأسف – إلى أن واحدا مـن

أهل هذه البلدة والتي قيل إنها موطن أهل البأف- لـم يكـن حاكما لها، وإن جميع حكامها وسلاطينها وولاتها لم يكونـوا منها منذ الشائخ الحادي عشر (١١٠٠- ١٠٧٠ قبل المـيلاد حتى طابوق الأول، الذي تم طرده خارج البلاد عـام ١٩٥٢ بعد الميلاد، وذلك يعنى أن بلاد البأف ظلت بلا حاكم مـن أهلها أكثر من ثلاثة آلاف عام، إنها أكذوبة يروجهـا الـذين يكيدون لنا كما.

جاء في مرثية شهربان (رجاء عدم خلطها بشهريار الشهير – فقد كانت شهربان – فيما يقال الأم الأصلية للجـد الأول)، تلك المرثية التي ناحت بها على فتحة مقبرة ابنها – أو زوجها فيما أظن – وقالت فيها]:

أسم ا عليك يا بي يا واعي



خليتنا زى الغنم بلا راعي

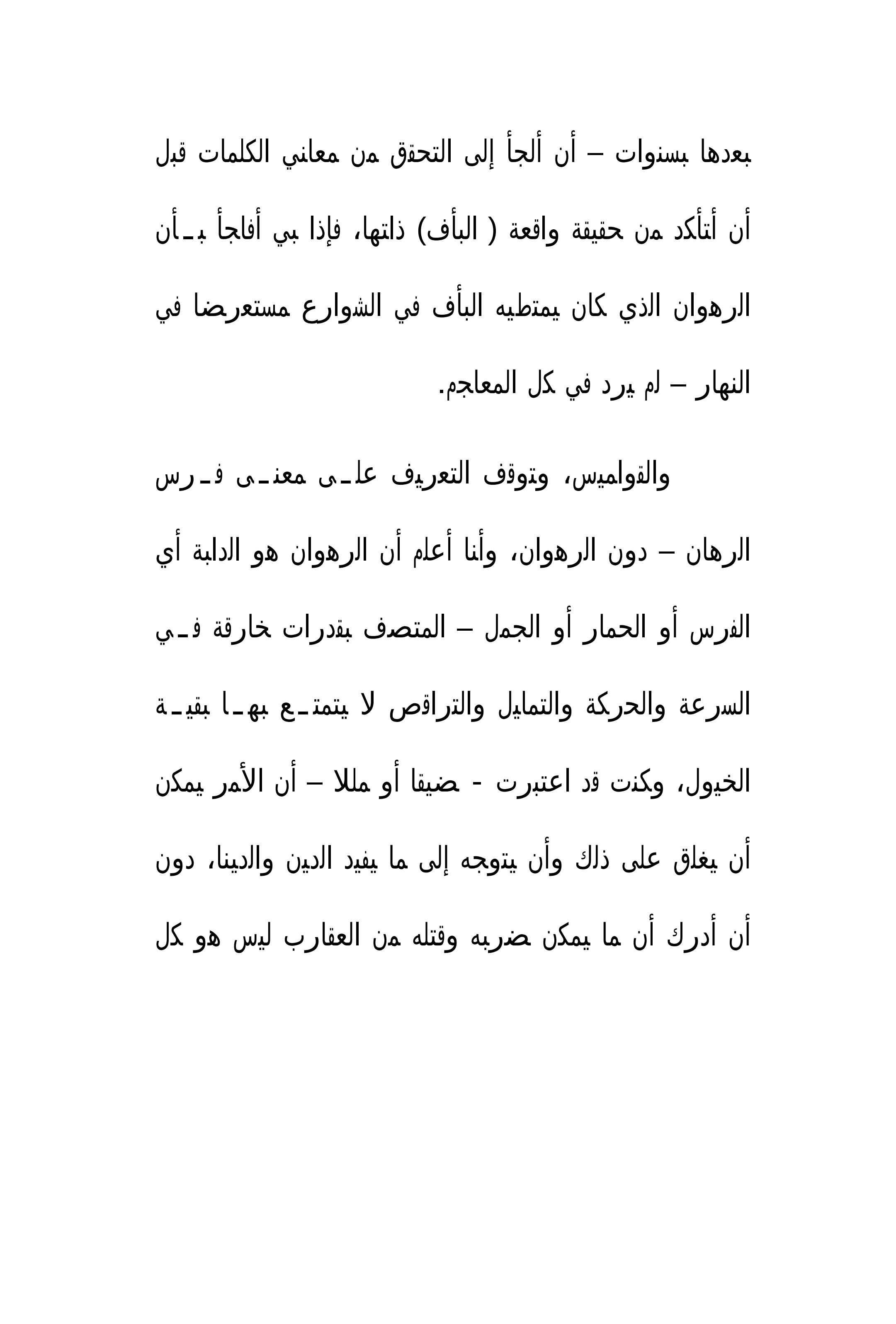
اسم ا عليك يا بأف يا عجبان خليتنا زى الغنم بـلا رعيان

ومن باب التوضيح فإن (بي) المشددة تصغير شعبي للأب، لكن شرحا لم يرد حول كلمة البأف، وعما إذا كـان ذلك لقبا أو صفة مثل عجبان – أي المثير للعجب والدهشـة وبالتالي فإن نصا مثل هذا – والذي ورد في كتـاب أسـتاذ ضالع في هذه الأمور حول المراثي الشعبية – لا يمكـن أن يقوم بدون أن يلازمه مجد شخصي مثير للحزن عند فقـده، ويرتبط بالرعاية والسلطة، والتي كثيرا ما تستثير في الذهن حالة الراعي الصالح مع الغنم، ولا يمكـن أن يكـون هـذا مرتبطا بحاكم أجنبي في أدق الحالات.

إلا أن كتاب (البأف) ظل يلح على إرادتي للبحث عن حقيقة قيامهما: الكتاب والبأف، فيه الأم تحكـى وتضـحك وتناوش وتهزأ وتعابث وتبتسم – حكاية واحد من أقاربها كان شديد الشغف باستعراض قدراته علـى ركـوب الرهـوان المتمايل في شوارع القرية، مع ميل جميـل لصـنع دوائـر حركة يقطع فيها الرهوان عرض الطريق حتى تكاد تحتـك قوائمه بمقاطف باعة النخالـة وأقفـاص الفجـل والبصـل الأخضر، مما يثير العجب والدهشة بين الأهل المستندين إلى الحوائط فوق الدكك والمصاطب، وفي الليل كان قريب أمـي فارس الرهوان يجـالس ذوي الشـأن مـن سـراة القريـة وأثريائها، ثم لا تلبث الجلسة الحميمة أن تتفاعـل بالحـب القروي حيث تصل السعادة إلى أوج صخبها عندما يتسـلي

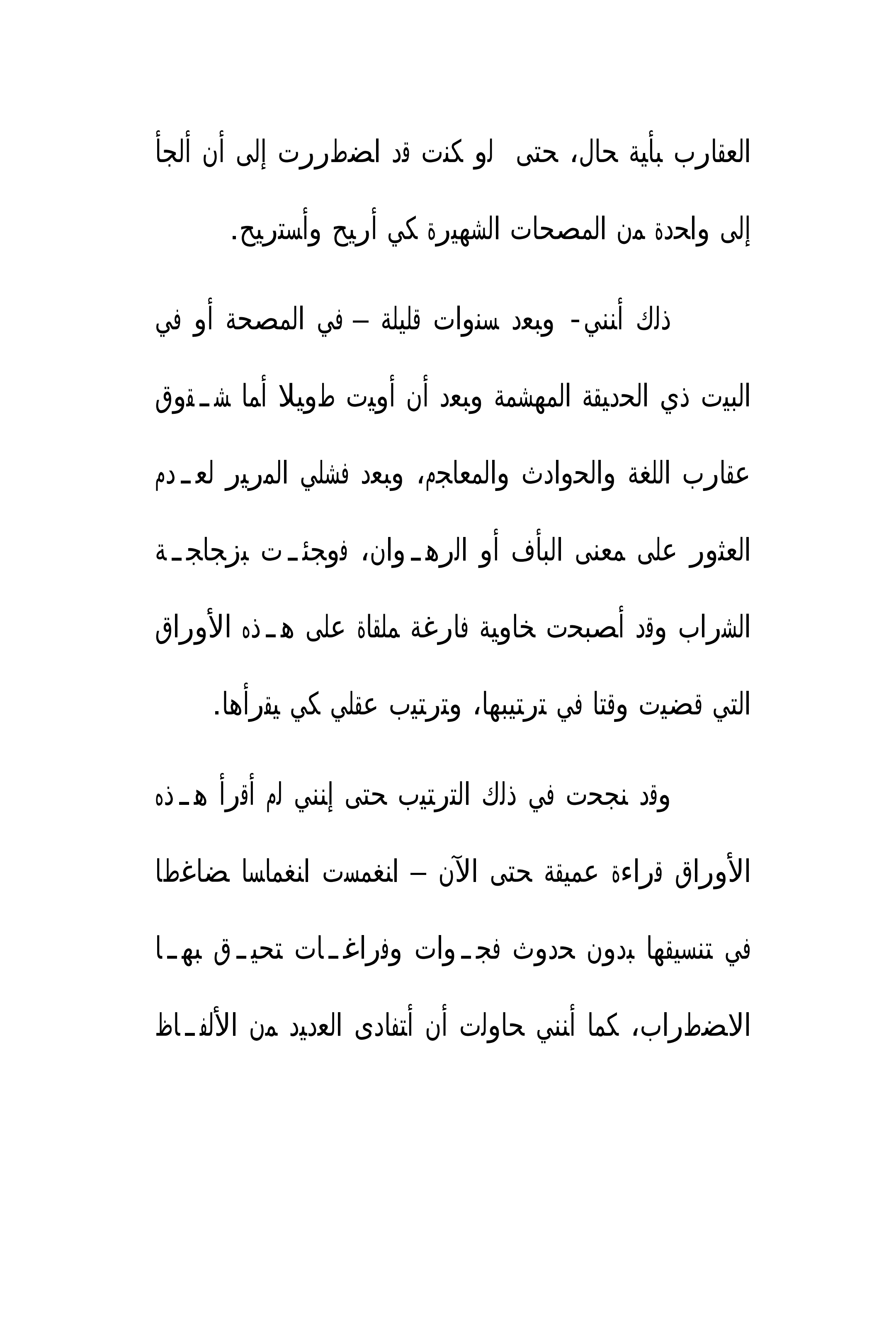
كبار الساهرين بصفع (البأف) على رقبته مرحا، ويقـال إن ذلك كان وراء المتعة القصوي التي جعلت (البأف) قريبا من قلوبهم، ولما سألت أمي عما إذا كانت تقصد أن نفس الفارس المتعاجب على ظهر الرهـوان نهـارا هـو ذاتـه البـأف المضروب على رقبته في نشوة الليل؟؟

ففتحت أمي عيونها وأشارت إلى أنني مثل أبي سيئ النية من عائلة تشوب تصرفاتها خدوش الكرامة، فصـممت على أن أظل أسألها حتى ضاقت بي وبأبي (الذي كان قـد رحل منذ قرون)، وهو ما أدي إلى أن تعاقبنى بأن تكتب كل ميراثها من أرض وعقار ومواويل وأحزان وإذاعات وأجران وصحف وأفراح وأشعار باسم أخي المولع بخدمة الرب، مـا نح نفسه الزاهد التقي الورع، فاضطررت – أيام ذلـك أو



بعدها بسنوات – أن ألجأ إلى التحقق من معاني الكلمات قبل أن أتأكد من حقيقة واقعة (البأف) ذاتها، فإذا بي أفاجأ بـأن الرهوان الذي كان يمتطيه البأف في الشوارع مستعرضا في النهار – لم يرد في كل المعاجم.

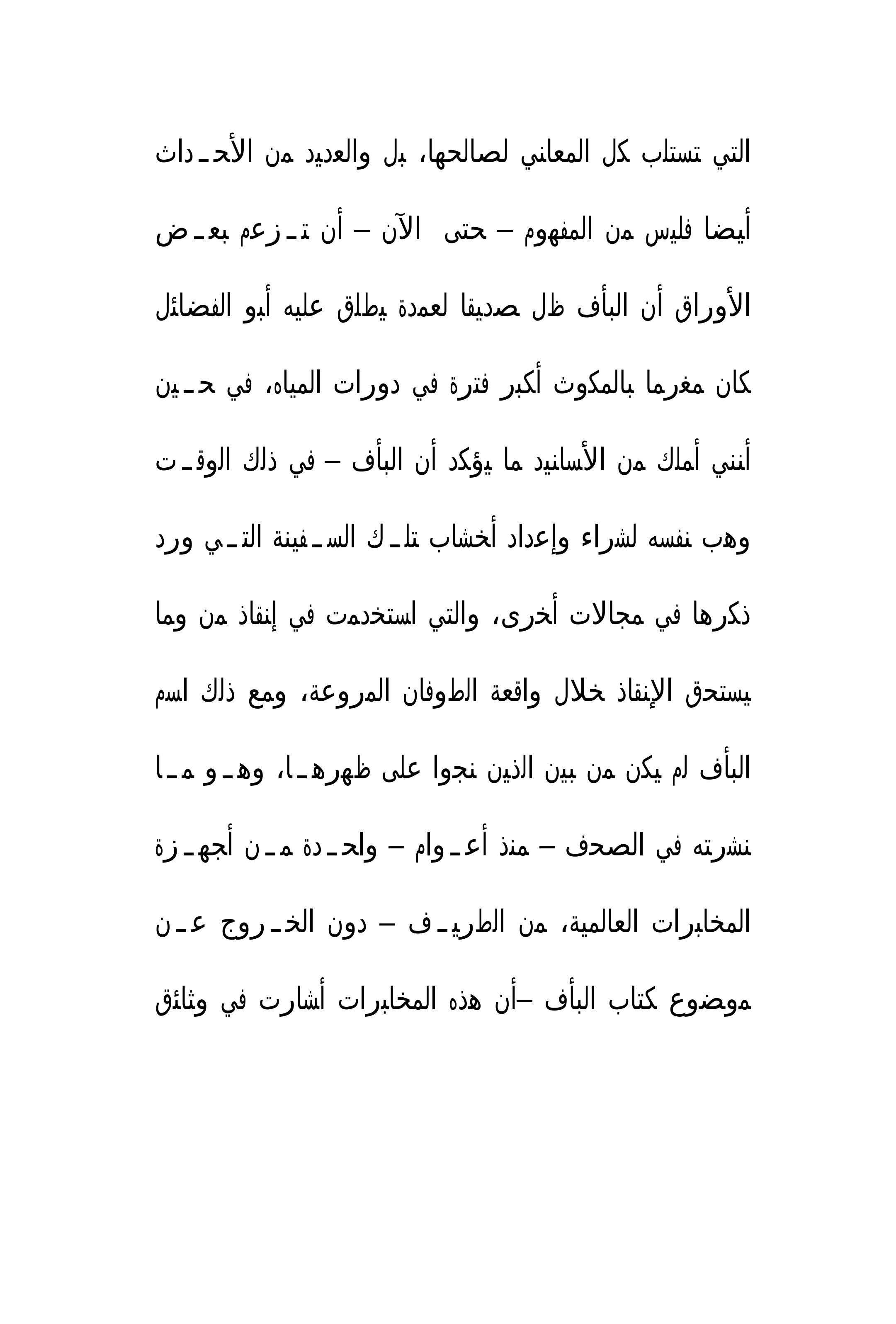
والقواميس، وتوقف التعريف علـى معنـى فـرس الرهان – دون الرهوان، وأنا أعلم أن الرهوان هو الدابة أي الفرس أو الحمار أو الجمل – المتصف بقدرات خارقة فـي السرعة والحركة والتمايل والتراقص لا يتمتـع بهـا بقيـة الخيول، وكنت قد اعتبرت - ضيقا أو مللا – أن الأمر يمكن أن يغلق على ذلك وأن يتوجه إلى ما يفيد الدين والدينا، دون أن أدرك أن ما يمكن ضربه وقتله من العقارب ليس هو كل



العقارب بأية حال، حتى لو كنت قد اضطررت إلى أن ألجأ إلى واحدة من المصحات الشهيرة كي أريح وأستريح.

ذلك أنني- وبعد سنوات قليلة – في المصحة أو في البيت ذي الحديقة المهشمة وبعد أن أويت طويلا أما شـقوق عقارب اللغة والحوادث والمعاجم، وبعد فشلي المرير لعـدم العثور على معنى البأف أو الرهـوان، فوجئـت بزجاجـة الشراب وقد أصبحت خاوية فارغة ملقاة على هـذه الأوراق التي قضيت وقتا في ترتيبها، وترتيب عقلي كي يقرأها.

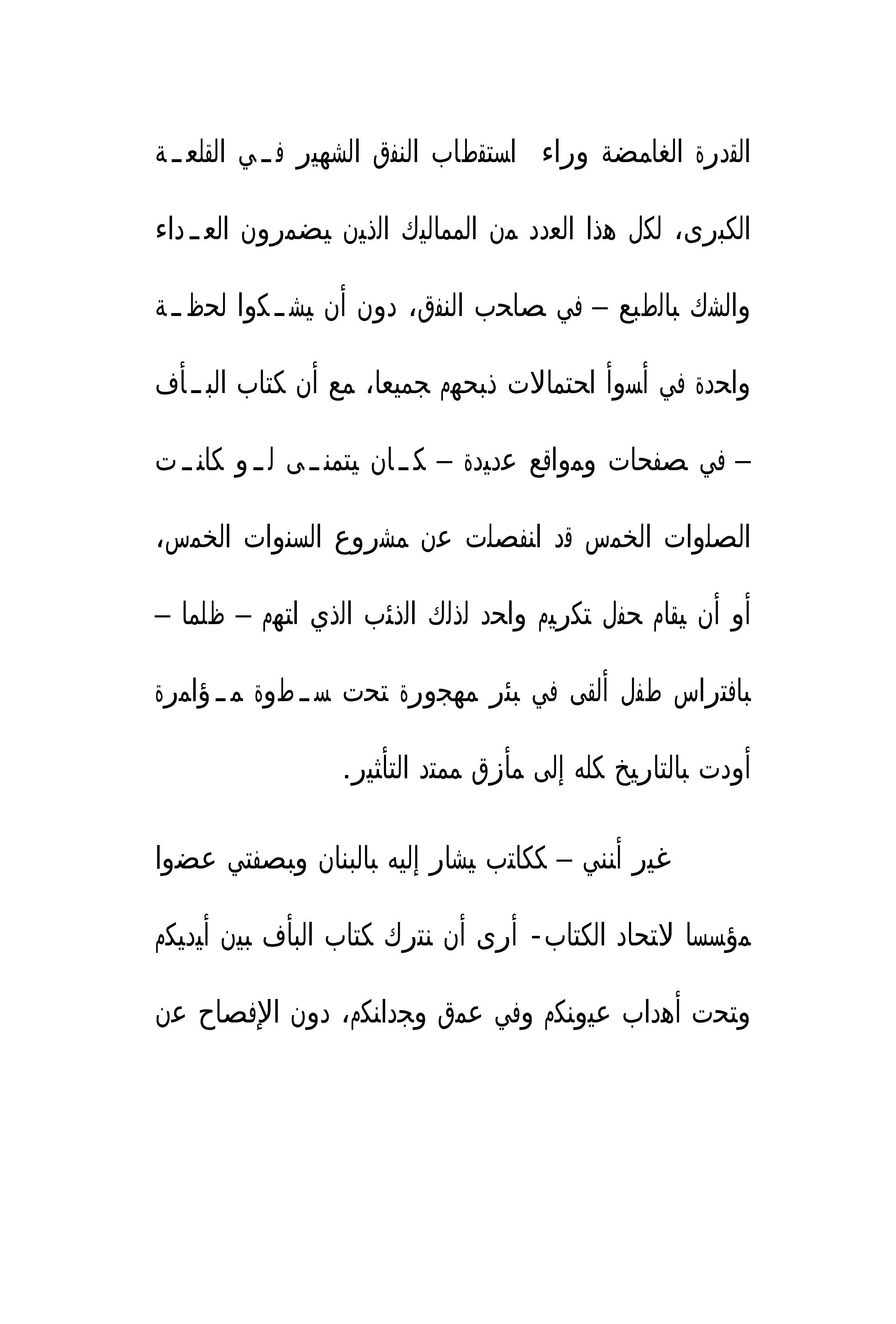
وقد نجحت في ذلك الترتيب حتى إنني لم أقرأ هـذه الأوراق قراءة عميقة حتى الآن – انغمست انغماسا ضاغطا في تنسيقها بدون حدوث فجـوات وفراغـات تحيـق بهـا الاضطراب، كما أنني حاولت أن أتفادى العديد من الألفـاظ



التي تستلب كل المعاني لصالحها، بل والعديد من الأحداث أيضا فليس من المفهوم – حتى الآن – أن تزعم بعض الأوراق أن البأف ظل صديقا لعمدة يطلق عليه أبو الفضائل كان مغرما بالمكوث أكبر فترة في دورات المياه، في حين أنني أملك من الأسانيد ما يؤكد أن البأف – في ذلك الوقت وهب نفسه لشراء وإعداد أخشاب تلك السفينة التي ورد ذكرها في مجالات أخرى، والتي استخدمت في إنقاذ من وما يستحق الإنقاذ خلال واقعة الطوفان المروعة، ومع ذلك اسم البأف لم يكن من بين الذين نجوا على ظهرها، وهو ما نشرته في الصحف – منذ أعوام – واحدة من أجهزة المخابرات العالمية، من الطريف – دون الخروج عن موضوع كتاب البأف –أن هذه المخابرات أشارت في وثائق

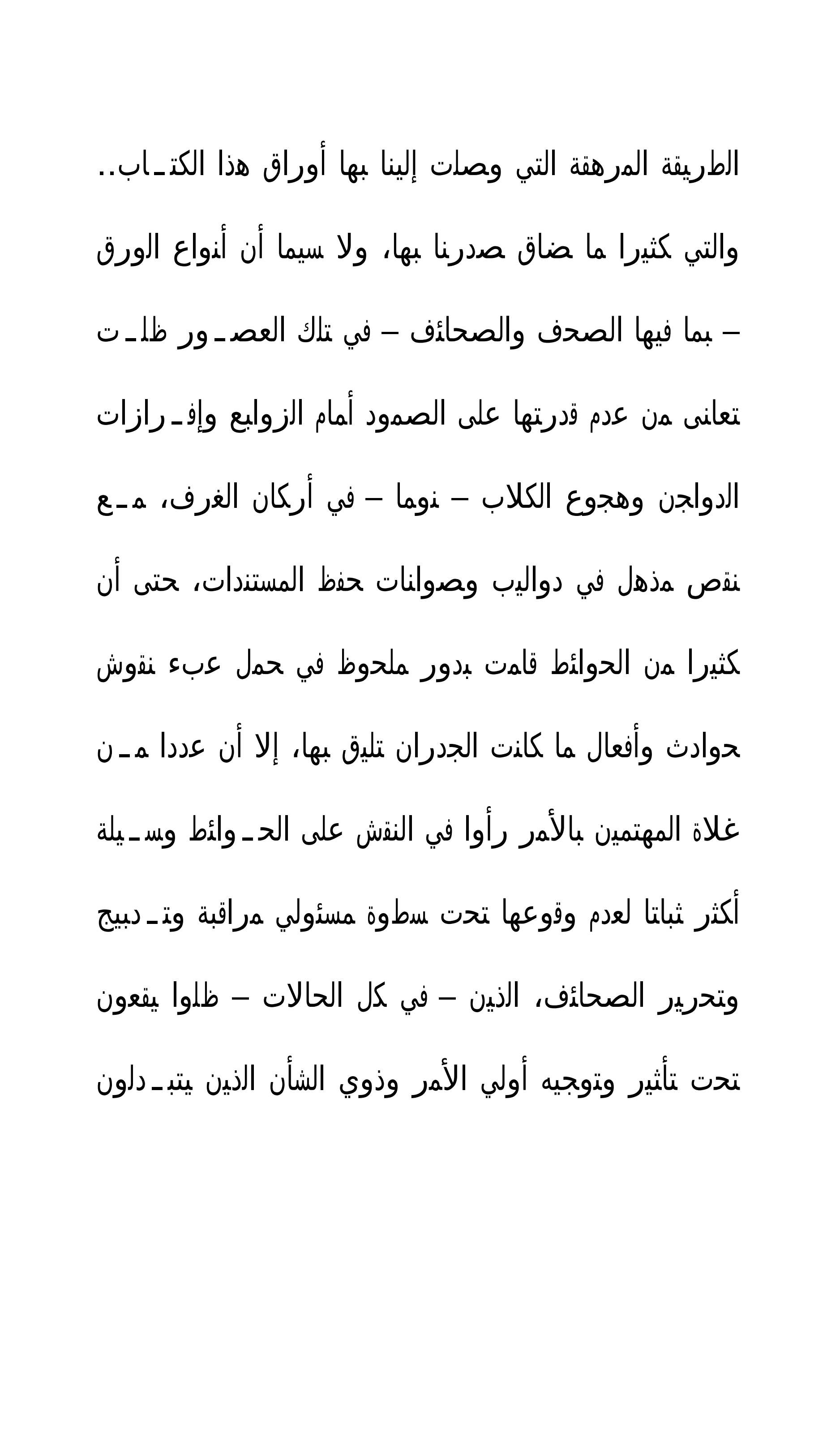
أخرى إلى أن ثمة أسبابا أخرى تمكن وراء هبوط جد البأف وجدته من الحديقة الشهيرة إلى منقطة لا نبـات ولا زهـور فيها، ولكنها لم تفصح – هذه الأجهزة – عن تلك الأسـباب حتى الآن.

إلا أن الملاحظة التي لم أستطع إخفاءها أثناء ترتيب هذه الأوراق – أن العنوان الأصلي فوق الغلاف الخشن كان (هذا ليس كتاب البأف)، ثم لا يلبث العنوان فـي الغـلاف الداخلي الناعم أن ارتفع عنوانا مناقضا بخط جميل رائع: هذا كتاب البأف، وأشار بعض الأصدقاء الـذين لـديهم براعـة التحليل إلى أن كتاب البأف ظل مطاردا مطلوبا تمزيقـه أو مصادرته لتفضيله ثمار الجميز على أنواع الـبلح، أو ربمـا كان وراءه هذا الاستفسار الذي طرحه كتاب البـأف حـول



القدرة الغامضة وراء استقطاب النفق الشهير فـي القلعـة الكبرى، لكل هذا العدد من المماليك الذين يضمرون العـداء والشك بالطبع – في صاحب النفق، دون أن يشـكوا لحظـة واحدة في أسوأ احتمالات ذبحهم جميعا، مع أن كتاب البـأف – في صفحات ومواقع عديدة – كـان يتمنـى لـو كانـت الصلوات الخمس قد انفصلت عن مشروع السنوات الخمس، أو أن يقام حفل تكريم واحد لذلك الذئب الذي اتهم – ظلما – بافتراس طفل ألقى في بئر مهجورة تحت سـطوة مـؤامرة أودت بالتاريخ كله إلى مأزق ممتد التأثير.

غير أنني – ككاتب يشار إليه بالبنان وبصفتي عضوا مؤسسا لاتحاد الكتاب- أرى أن نترك كتاب البأف بين أيديكم وتحت أهداب عيونكم وفي عمق وجدانكم، دون الإفصاح عن

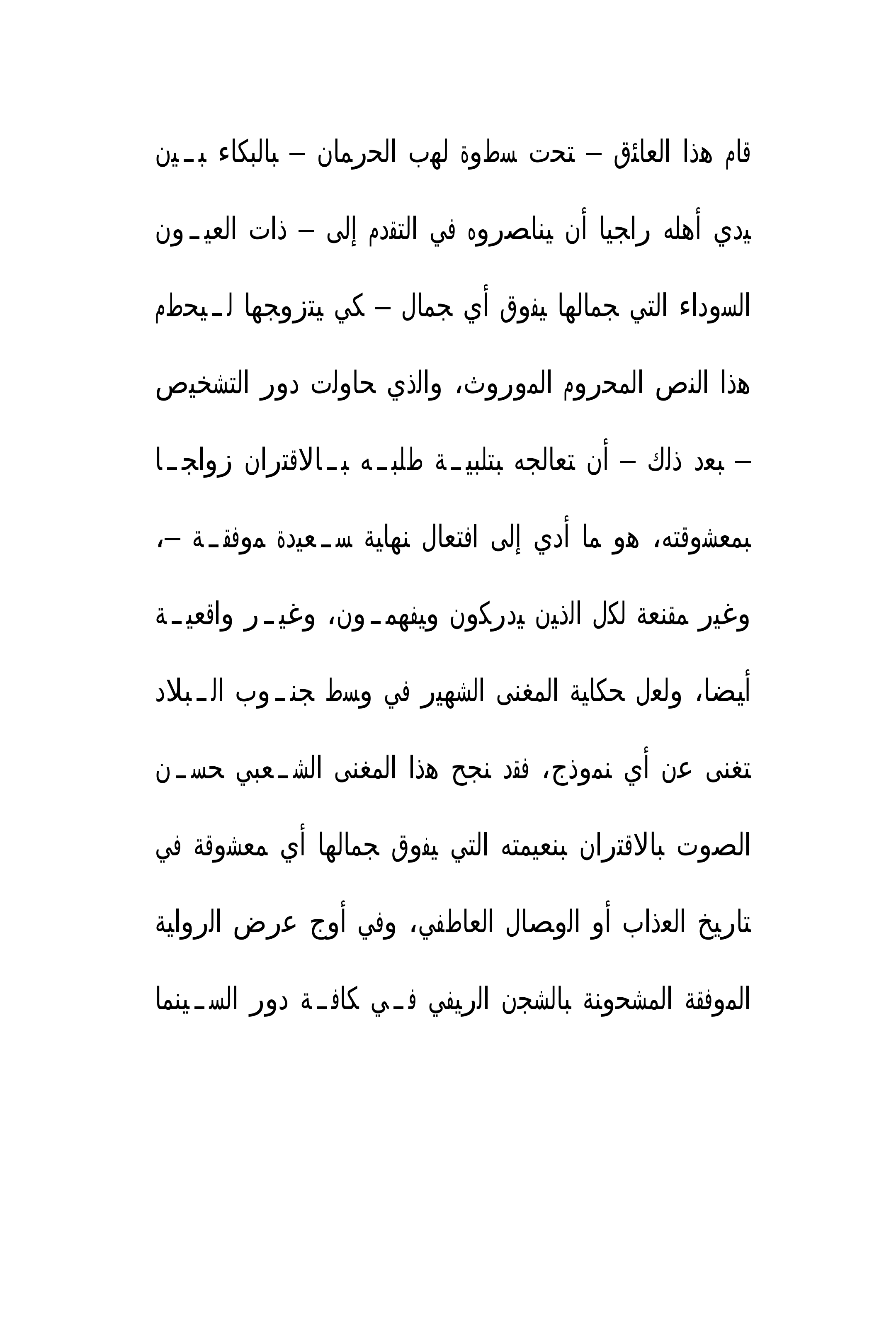


الطريقة المرهقة التي وصلت إلينا بها أوراق هذا الكتاب.. والتي كثيرا ما ضاق صدرنا بها، ولا سيما أن أنواع الورق – بما فيها الصحف والصحائف – في تلك العصور ظلت تعانى من عدم قدرتها على الصمود أمام الزوابع وإفرازات الدواجن وهجوع الكلاب – نوما – في أركان الغرف، مع نقص مذهل في دواليب وصوانات حفظ المستندات، حتى أن كثيرا من الحوائط قامت بدور ملحوظ في حمل عبء نقوش حوادث وأفعال ما كانت الجدران تليق بها، إلا أن عددا من غلاة المهتمين بالأمر رأوا في النقش على الحوائط وسيلة أكثر ثباتا لعدم وقوعها تحت سطوة مسئولي مراقبة وتدبيج وتحرير الصحائف، الذين – في كل الحالات – ظلوا يقعون تحت تأثير وتوجيه أولي الأمر وذوي الشأن الذين يتبدلون

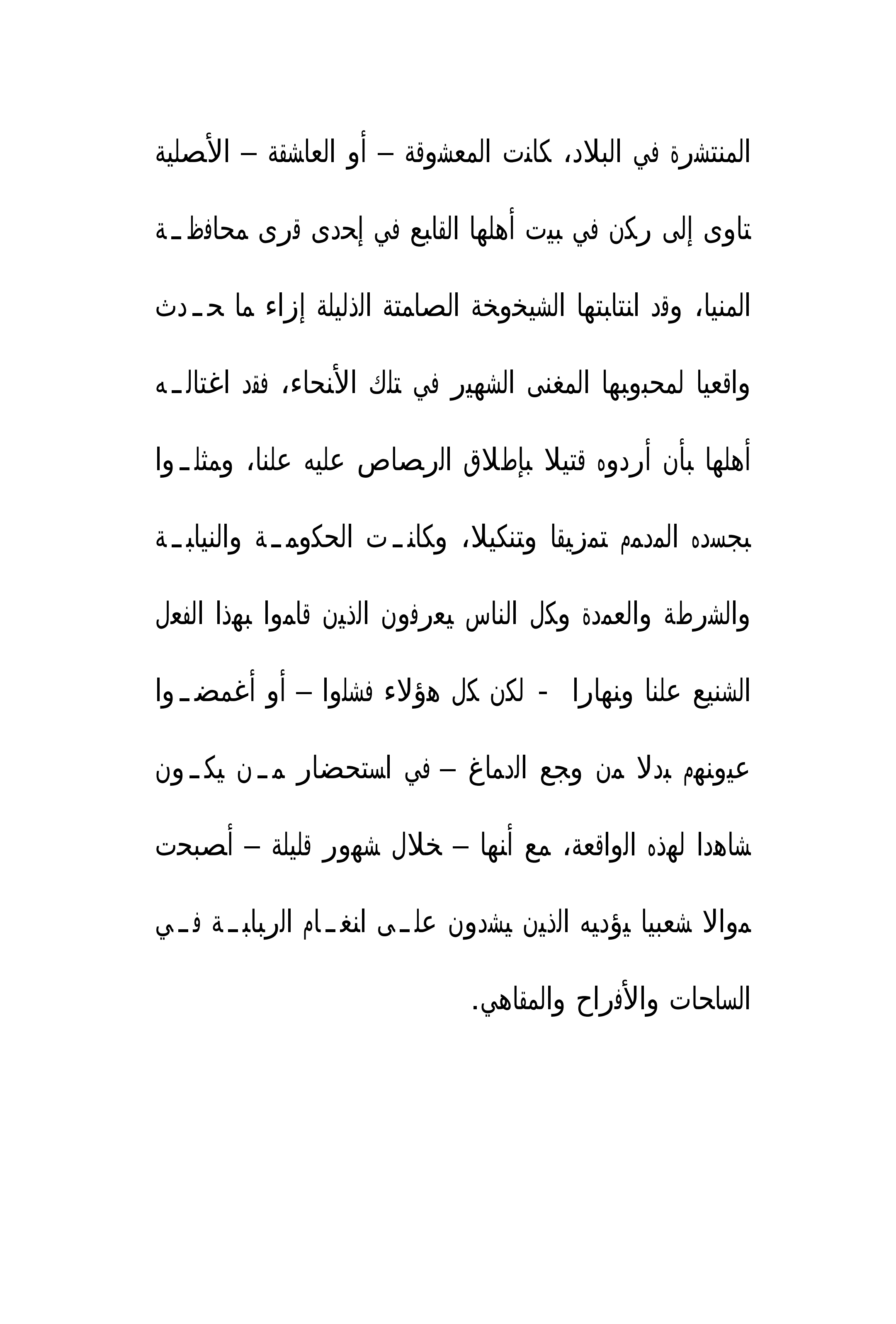
ويتغيرون بين وجهات نظر وآراء لا تثبـت علـى حـال بالمرة.

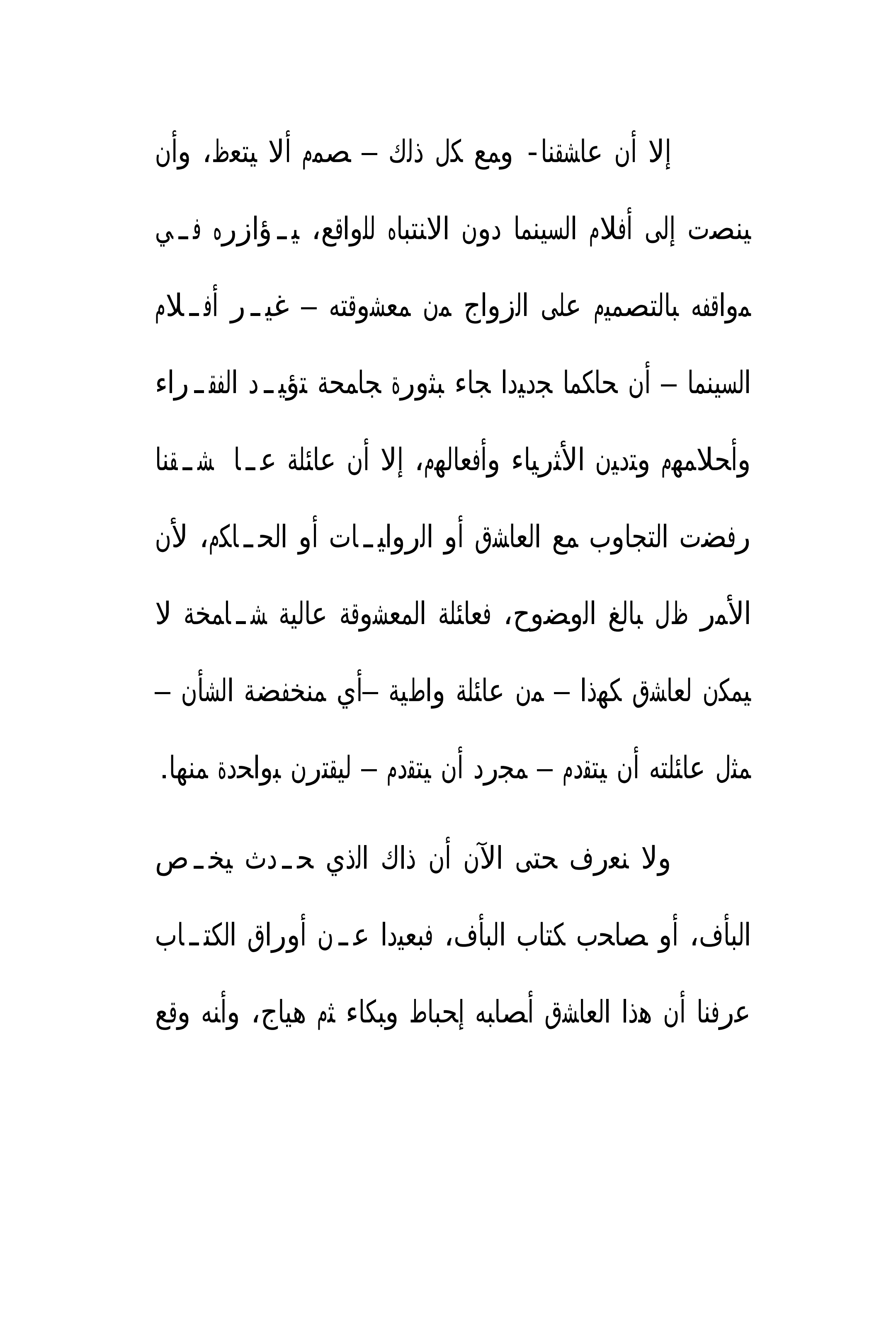
إلا أن صاحب كتاب (البأف) – الذي ظل يدرك ما يحيق بالأوراق دون الجدران – كان يعلم أن ما يريد تدوينه سوف يسهل إخفاؤه أو نقله إذا ما تفادى نقشه على الجدران، وأن كثيرا من الحوائط والأحجار وقعت أيضا تحت سـطوة إعادة صياغة النقوش في عصور لا ترتاح لهذه النقوش، كما أن بعضها قد تم تدميره أو تحطيمه أو إزالته من موقعه حتى لا يترك أي أثر، وقيل إن البأف قام بمثل هذه الأفعـال دون أن ينتبه إلى الأضرار التي قد تكون حاقـت بسـيرته هـو بالذات، وهو ما ورد متناثرا في بعض أغنيات الغرام المبكر الذي وقع فيه (البأف) حينما كان صبيا يعشق التسـلل إلـى

دور التمثيل أو الخيالة التي عرفت حين ذلك بمصطلح وافـد – ربما يكون أماكن التشخيص أو دور اللهو – وهو السينما والتي في خلاصتها - هذه الأغاني – مفعمة بالحزن الناجم عن عشق من طرف واحد، لعل أشهرها – في اعتقادنـا – تلك التي كان يشدو فيها بأنه يعشق من لا يدرى بمـدى مـا يكابده من عذاب الغرام (إنت إنت ولا انتـاش دارى، إنـت إنت نعيمي وناري)، أو (يابو العيون السود، ياللي جمالـك زين، أمتي الوداد يعود، وتشـوف هـواك العـين)، وكلهـا بالهجات الدارجة التي تأبى لغتنا الفصحى الإنصات إليها، إلا أن الأمر – أمر هذه الأغاني أو الوقائع- واجه موقفا يكـاد يكون قاسما مشتركا لعدد مذهل من حكايات الغرام المكتوب أو المشخص في السينما والمسرح وحواديت المصاطب، فقد



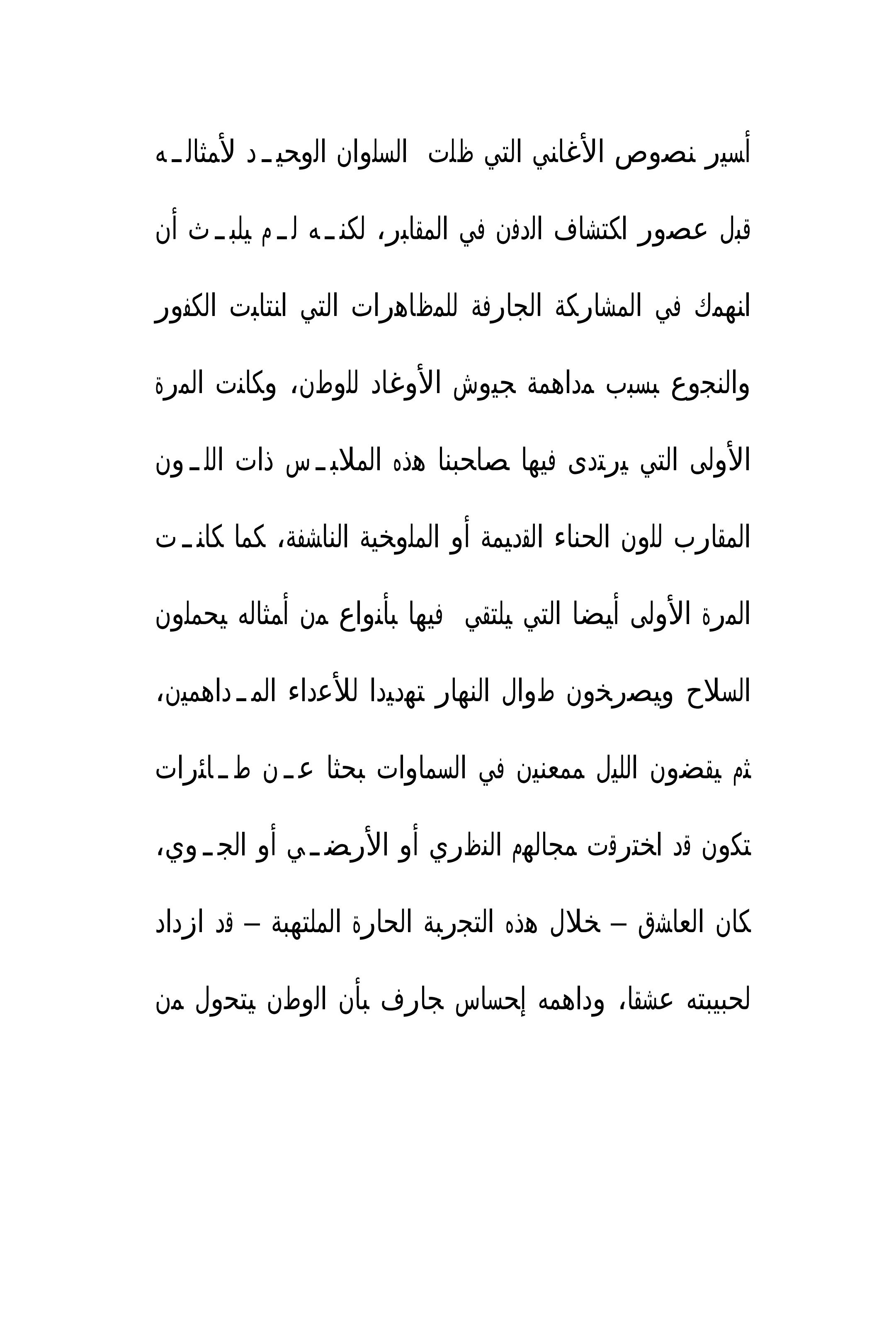
قام هذا العائق – تحت سطوة لهب الحرمان – بالبكاء بـين يدي أهله راجيا أن يناصروه في التقدم إلى – ذات العيـون السوداء التي جمالها يفوق أي جمال – كي يتزوجها لـيحطم هذا النص المحروم الموروث، والذي حاولت دور التشخيص – بعد ذلك – أن تعالجه بتلبيـة طلبـه بـالاقتران زواجـا بمعشوقته، هو ما أدي إلى افتعال نهاية سـعيدة موفقـة –، وغير مقنعة لكل الذين يدركون ويفهمـون، وغيـر واقعيـة أيضا، ولعل حكاية المغنى الشهير في وسط جنـوب الـبلاد تغنى عن أي نموذج، فقد نجح هذا المغنى الشـعبي حسـن الصوت بالاقتران بنعيمته التي يفوق جمالها أي معشوقة في تاريخ العذاب أو الوصال العاطفي، وفي أوج عرض الرواية الموفقة المشحونة بالشجن الريفي فـي كافـة دور السـينما


المنتشرة في البلاد، كانت المعشوقة – أو العاشقة – الأصلية تاوى إلى ركن في بيت أهلها القابع في إحدى قرى محافظـة المنيا، وقد انتابتها الشيخوخة الصامتة الذليلة إزاء ما حـدث واقعيا لمحبوبها المغنى الشهير في تلك الأنحاء، فقد اغتالـه أهلها بأن أردوه قتيلا بإطلاق الرصاص عليه علنا، ومثلـوا بجسده المدمم تمزيقا وتنكيلا، وكانـت الحكومـة والنيابـة والشرطة والعمدة وكل الناس يعرفون الذين قاموا بهذا الفعل الشنيع علنا ونهارا - لكن كل هؤلاء فشلوا – أو أغمضـوا عيونهم بدلا من وجع الدماغ – في استحضار مـن يكـون شاهدا لهذه الواقعة، مع أنها – خلال شهور قليلة – أصبحت موالا شعبيا يؤديه الذين يشدون علـى انغـام الربابـة فـي الساحات والأفراح والمقاهي.

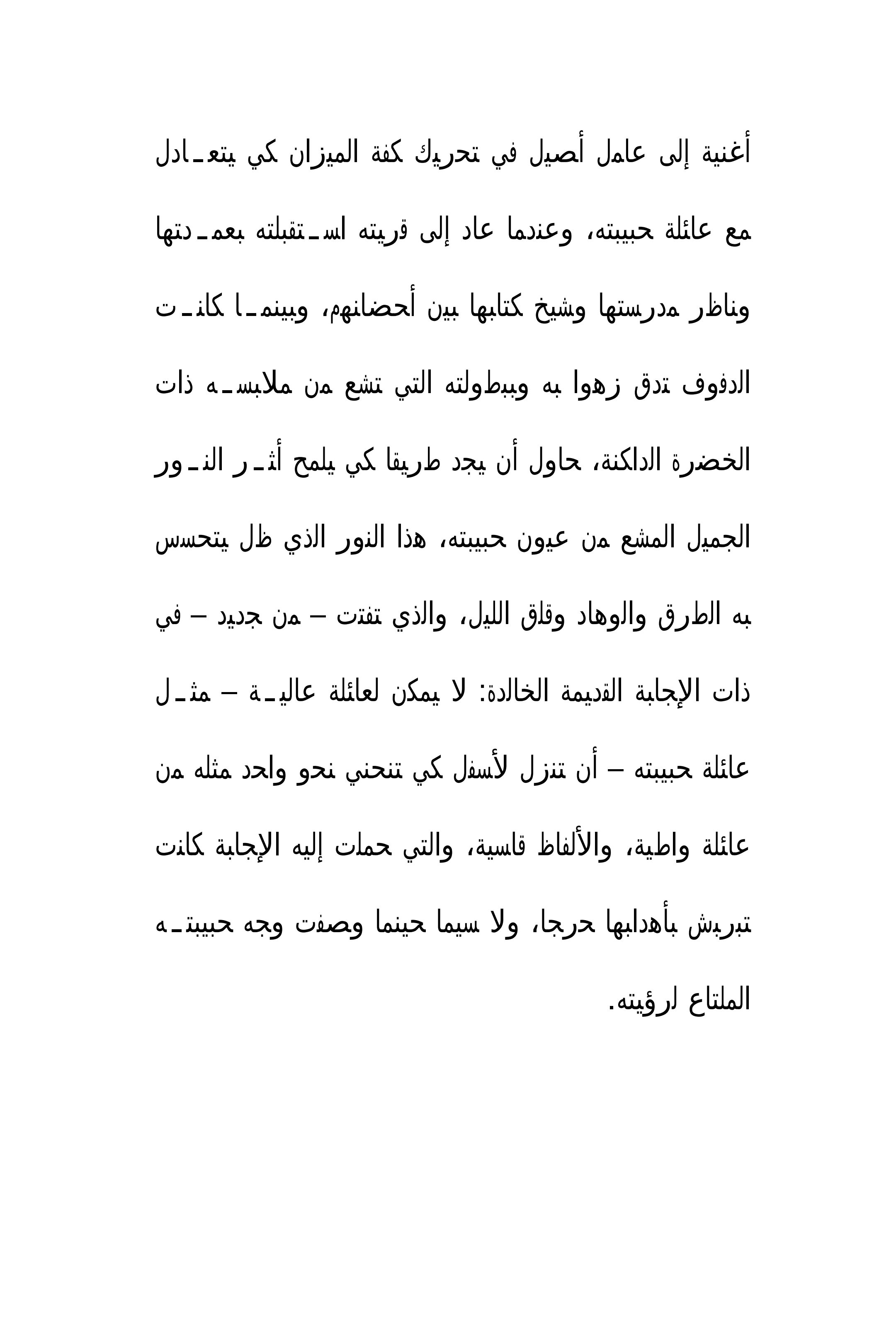


إلا أن عاشقنا- ومع كل ذلك – صمم ألا يتعظ، وأن ينصت إلى أفلام السينما دون الانتباه للواقع، يـؤازره فـي مواقفه بالتصميم على الزواج من معشوقته – غيـر أفـلام السينما – أن حاكما جديدا جاء بثورة جامحة تؤيـد الفقـراء وأحلامهم وتدين الأثرياء وأفعالهم، إلا أن عائلة عـا شـقنا رفضت التجاوب مع العاشق أو الروايـات أو الحـاكم، لأن الأمر ظل بالغ الوضوح، فعائلة المعشوقة عالية شـامخة لا يمكن لعاشق كهذا – من عائلة واطية –أي منخفضة الشأن – مثل عائلته أن يتقدم – مجرد أن يتقدم – ليقترن بواحدة منها.

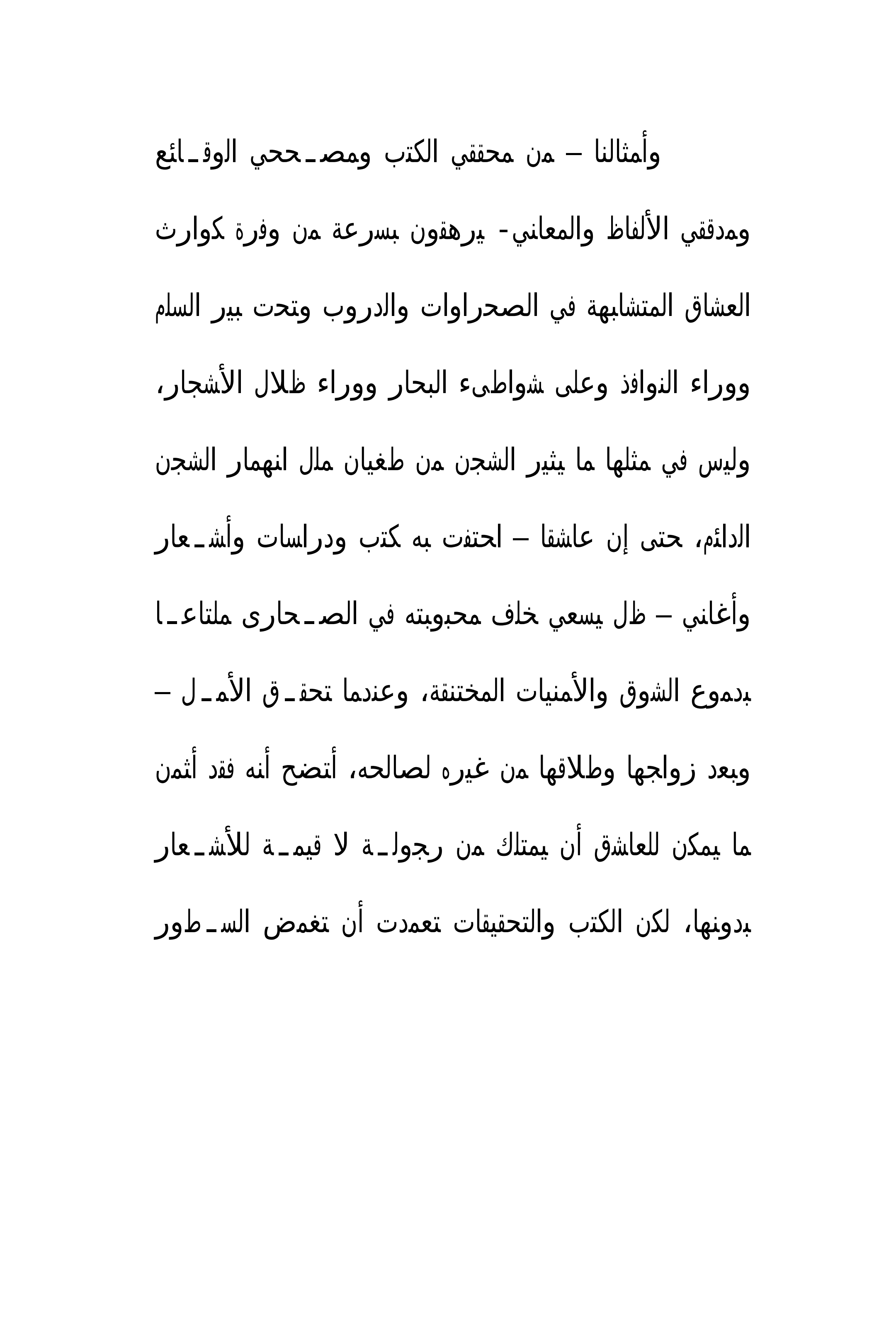
ولا نعرف حتى الآن أن ذاك الذي حـدث يخـص البأف، أو صاحب كتاب البأف، فبعيدا عـن أوراق الكتـاب عرفنا أن هذا العاشق أصابه إحباط وبكاء ثم هياج، وأنه وقع

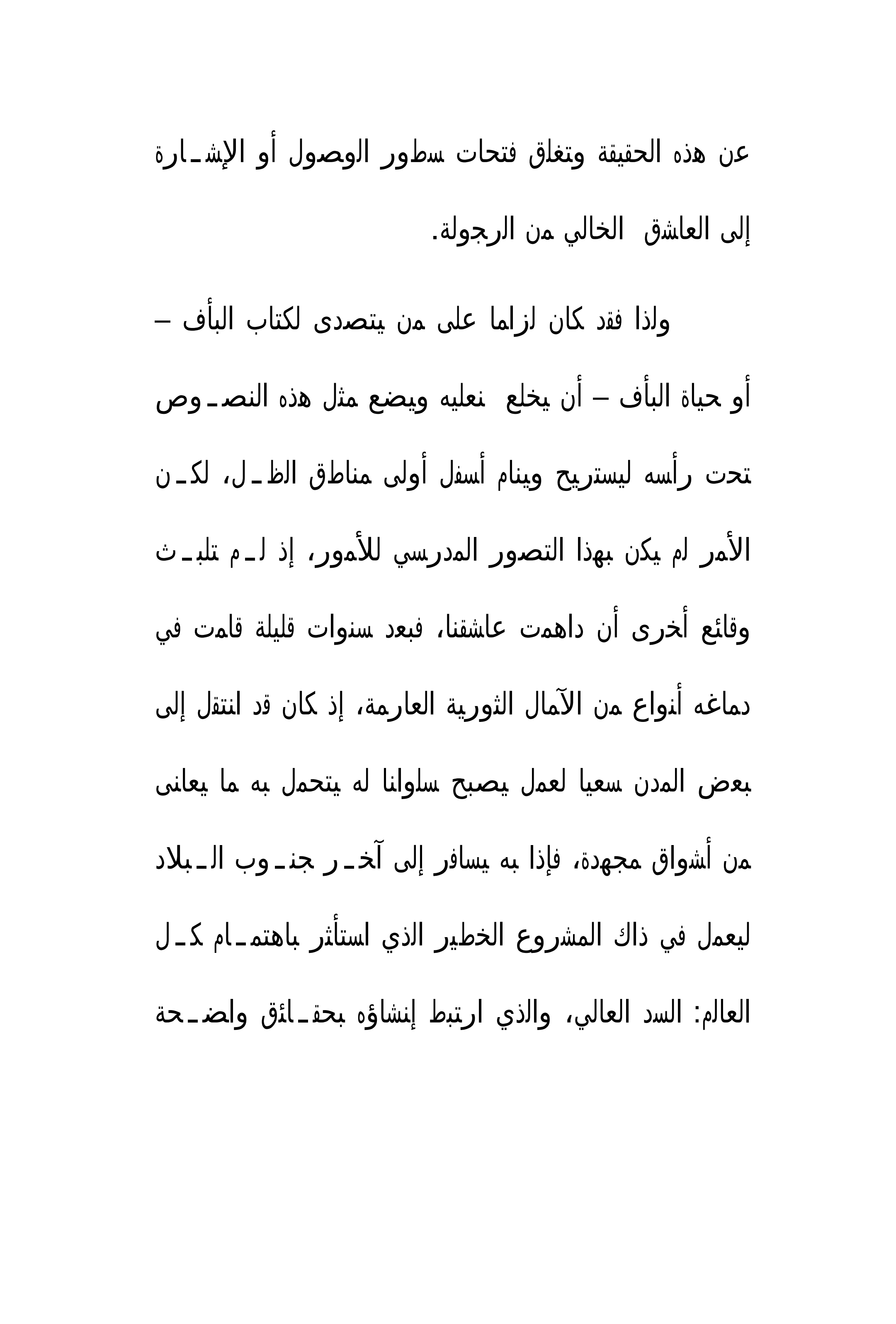


أسير نصوص الأغاني التي ظلت السلوان الوحيـد لأمثالـه قبل عصور اكتشاف الدفن في المقابر، لكنـه لـم يلبـث أن انهمك في المشاركة الجارفة للمظاهرات التي انتابت الكفور والنجوع بسبب مداهمة جيوش الأوغاد للوطن، وكانت المرة الأولى التي يرتدى فيها صاحبنا هذه الملابـس ذات اللـون المقارب للون الحناء القديمة أو الملوخية الناشفة، كما كانـت المرة الأولى أيضا التي يلتقي فيها بأنواع من أمثاله يحملون السلاح ويصرخون طوال النهار تهديدا للأعداء المـداهمين، ثم يقضون الليل ممعنين في السماوات بحثا عـن طـائرات تكون قد اخترقت مجالهم النظري أو الأرضـي أو الجـوي، كان العاشق – خلال هذه التجربة الحارة الملتهبة – قد ازداد لحبيبته عشقا، وداهمه إحساس جارف بأن الوطن يتحول من

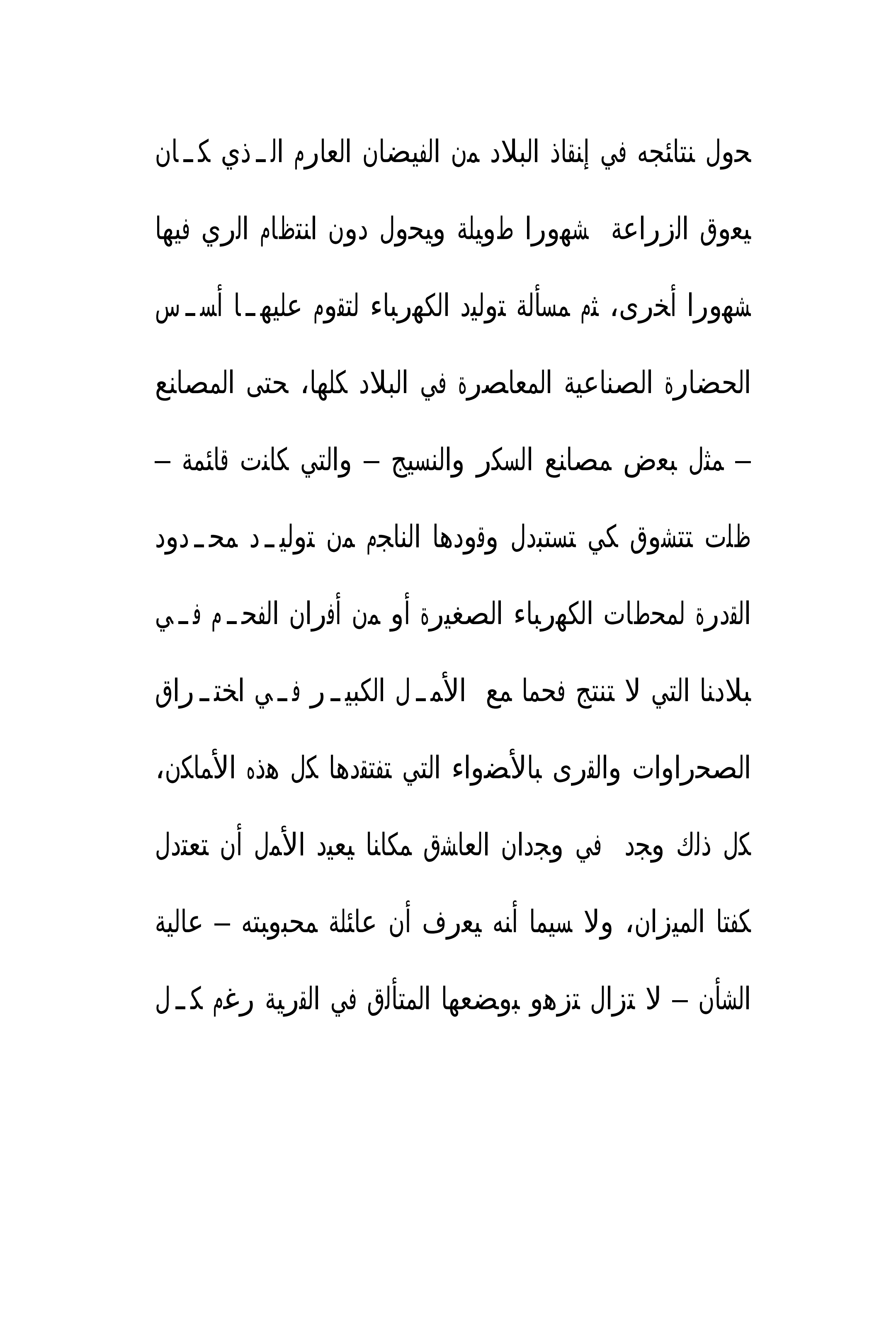


أغنية إلى عامل أصيل في تحريك كفة الميزان كي يتعادل مع عائلة حبيبته، وعندما عاد إلى قريته استقبلته بعمدتها وناظر مدرستها وشيخ كتابها بين أحضانهم، وبينما كانت الدفوف تدق زهوا به وببطولته التي تشع من ملابسه ذات الخضرة الداكنة، حاول أن يجد طريقا كي يلمح أثر النور الجميل المشع من عيون حبيبته، هذا النور الذي ظل يتحسس به الطرق والوهاد وقلق الليل، والذي تفتت – من جديد – في ذات الإجابة القديمة الخالدة: لا يمكن لعائلة عالية – مثل عائلة حبيبته – أن تنزل لأسفل كي تنحني نحو واحد مثله من عائلة واطية، والألفاظ قاسية، والتي حملت إليه الإجابة كانت تبربش بأهدابها حرجا، ولا سيما حينما وصفت وجه حبيبته الملتاع لرؤيته.

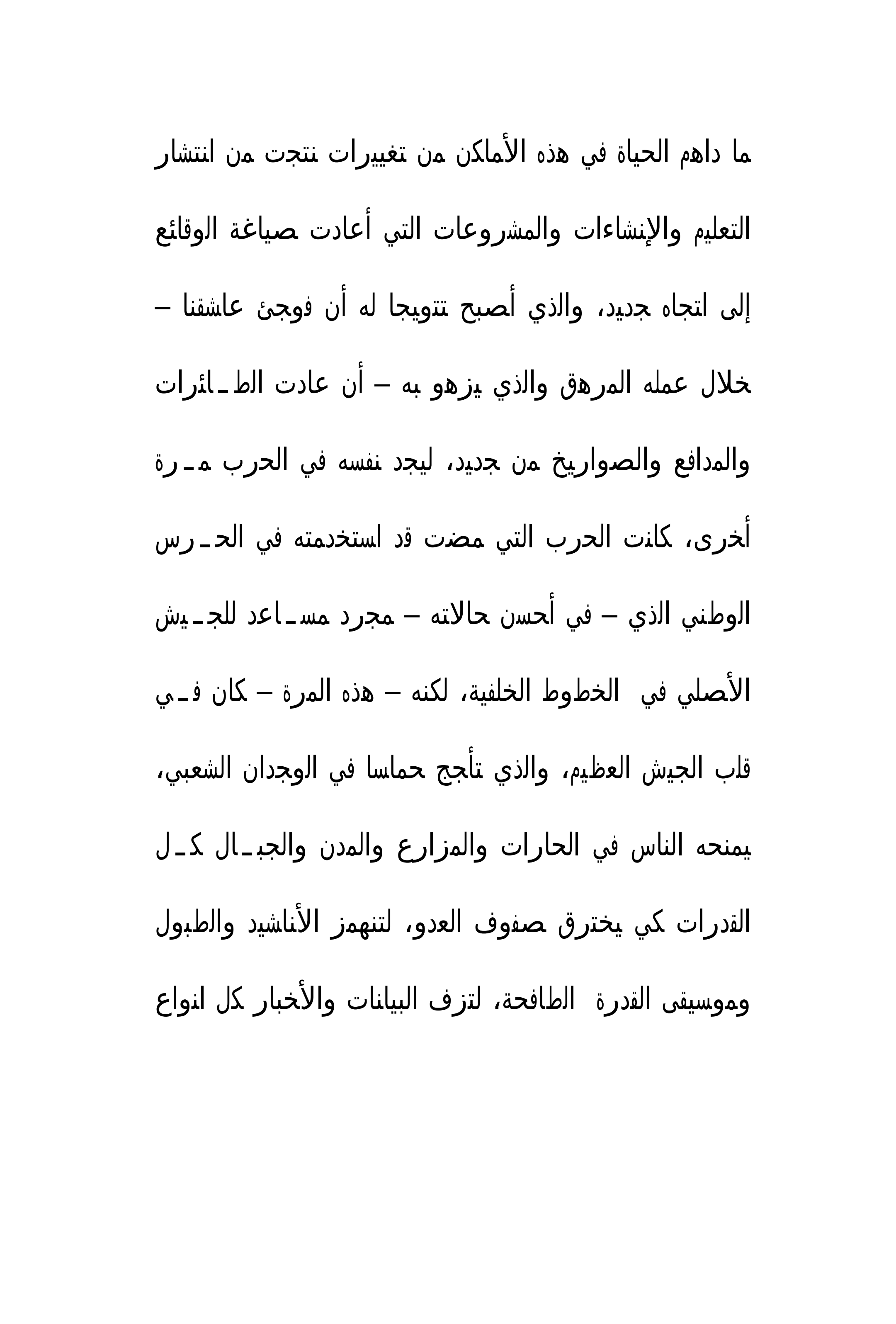

وأمثالنا – من محققي الكتب ومصـححي الوقـائع ومدققي الألفاظ والمعاني- يرهقون بسرعة من وفرة كوارث العشاق المتشابهة في الصحراوات والدروب وتحت بير السلم ووراء النوافذ وعلى شواطىء البحار ووراء ظلال الأشجار، وليس في مثلها ما يثير الشجن من طغيان ملل انهمار الشجن الدائم، حتى إن عاشقا – احتفت به كتب ودراسات وأشـعار وأغاني – ظل يسعي خلف محبوبته في الصـحارى ملتاعـا بدموع الشوق والأمنيات المختنقة، وعندما تحقـق الأمـل – وبعد زواجها وطلاقها من غيره لصالحه، أتضح أنه فقد أثمن ما يمكن للعاشق أن يمتلك من رجولـة لا قيمـة للأشـعار بدونها، لكن الكتب والتحقيقات تعمدت أن تغمض السـطور


عن هذه الحقيقة وتغلق فتحات سطور الوصول أو الإشـارة إلى العاشق الخالي من الرجولة.

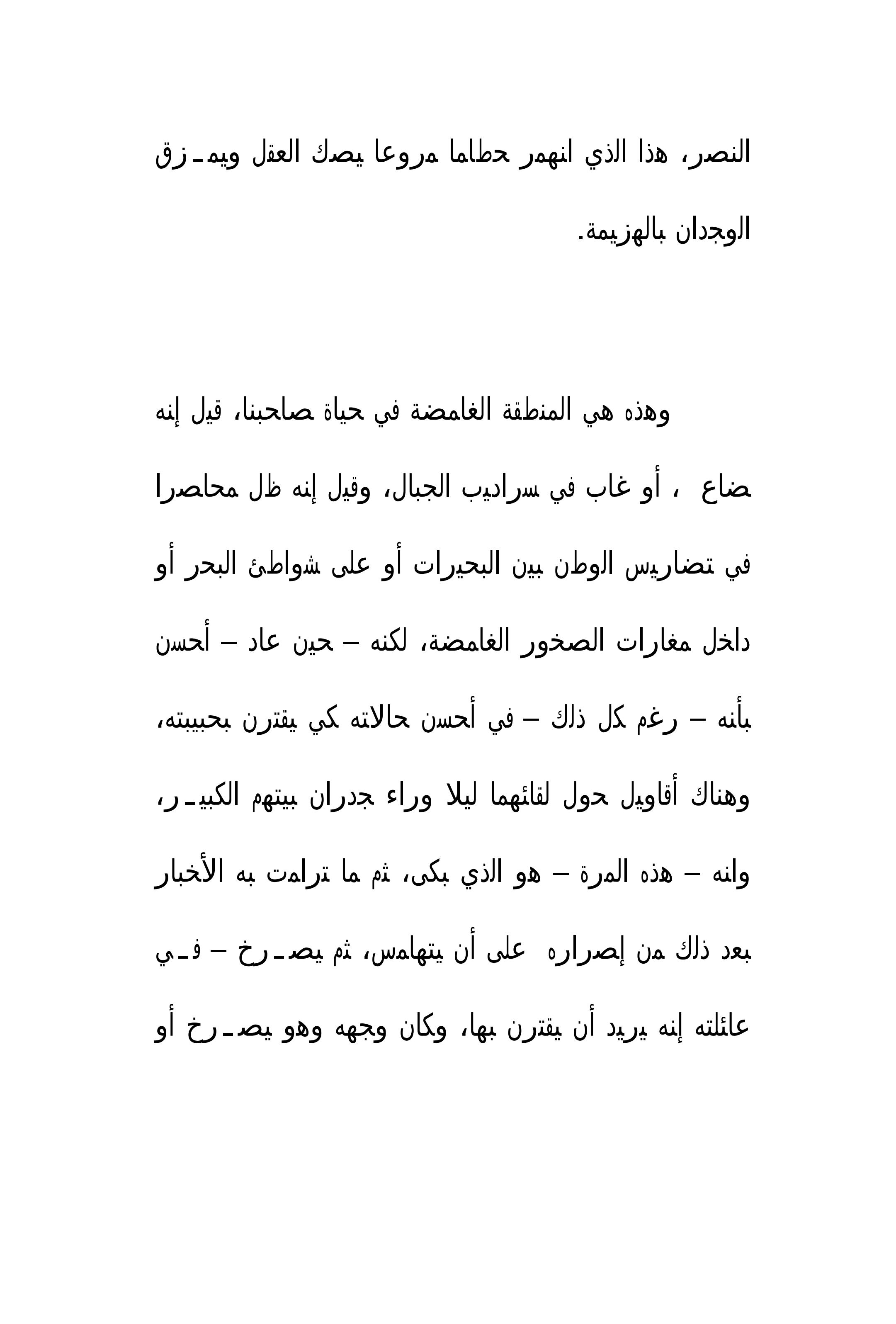
ولذا فقد كان لزاما على من يتصدى لكتاب البأف – أو حياة البأف – أن يخلع نعليه ويضع مثل هذه النصـوص تحت رأسه ليستريح وينام أسفل أولى مناطق الظـل، لكـن الأمر لم يكن بهذا التصور المدرسي للأمور، إذ لـم تلبـث وقائع أخرى أن داهمت عاشقنا، فبعد سنوات قليلة قامت في دماغه أنواع من الآمال الثورية العارمة، إذ كان قد انتقل إلى بعض المدن سعيا لعمل يصبح سلوانا له يتحمل به ما يعانى من أشواق مجهدة، فإذا به يسافر إلى آخـر جنـوب الـبلاد ليعمل في ذاك المشروع الخطير الذي استأثر باهتمـام كـل العالم: السد العالي، والذي ارتبط إنشاؤه بحقـائق واضـحة



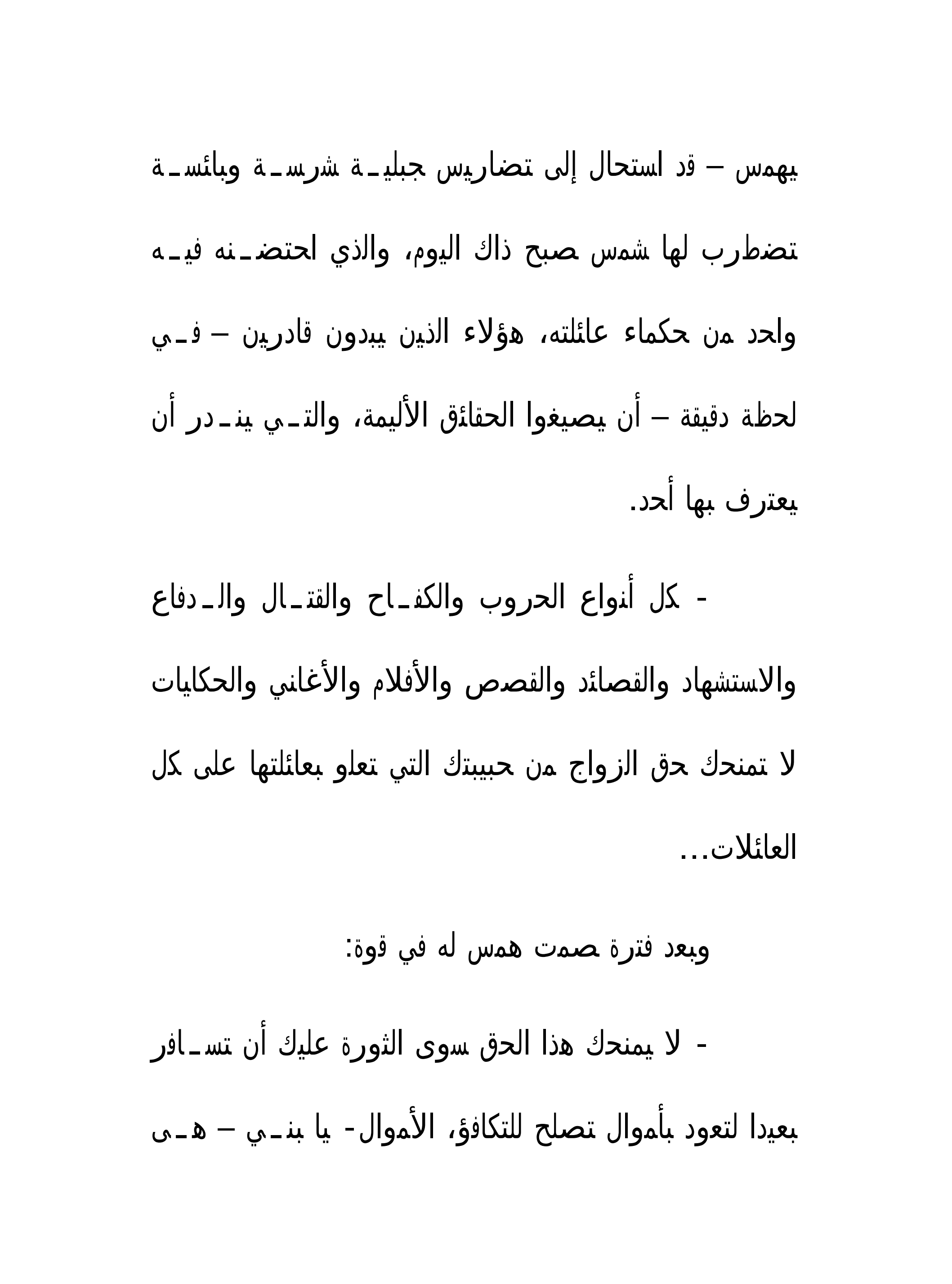
حول نتائجه في إنقاذ البلاد من الفيضان العارم الذي كان يعوق الزراعة شهورا طويلة ويحول دون انتظام الري فيها شهورا أخرى، ثم مسألة توليد الكهرباء لتقوم عليها أسس الحضارة الصناعية المعاصرة في البلاد كلها، حتى المصانع – مثل بعض مصانع السكر والنسيج – والتي كانت قائمة – ظلت تتشوق كي تستبدل وقودها الناجم من توليد محدود القدرة لمحطات الكهرباء الصغيرة أو من أفران الفحم في بلادنا التي لا تنتج فحما مع الأمل الكبير في اختراق الصحراوات والقرى بالأضواء التي تفتقدها كل هذه الأماكن، كل ذلك وجد في وجدان العاشق مكانا يعيد الأمل أن تعتدل كفتا الميزان، ولا سيما أنه يعرف أن عائلة محبوبته – عالية الشأن – لا تزال تزهو بوضعها المتألق في القرية رغم كل



ما داهم الحياة في هذه الأماكن من تغييرات نتجت من انتشار التعليم والإنشاءات والمشروعات التي أعادت صياغة الوقائع إلى اتجاه جديد، والذي أصبح تتويجا له أن فوجئ عاشقنا – خلال عمله المرهق والذي يزهو به – أن عادت الطـائرات والمدافع والصواريخ من جديد، ليجد نفسه في الحرب مـرة أخرى، كانت الحرب التي مضت قد استخدمته في الحـرس الوطني الذي – في أحسن حالاته – مجرد مسـاعد للجـيش الأصلي في الخطوط الخلفية، لكنه – هذه المرة – كان فـي قلب الجيش العظيم، والذي تأجج حماسا في الوجدان الشعبي، يمنحه الناس في الحارات والمزارع والمدن والجبـال كـل القدرات كي يخترق صفوف العدو، لتنهمز الأناشيد والطبول وموسيقى القدرة الطافحة، لتزف البيانات والأخبار كل انواع


النصر، هذا الذي انهمر حطاما مروعا يصك العقل ويمـزق الوجدان بالهزيمة.

وهذه هي المنطقة الغامضة في حياة صاحبنا، قيل إنه ضاع ، أو غاب في سراديب الجبال، وقيل إنه ظل محاصرا في تضاريس الوطن بين البحيرات أو على شواطئ البحر أو داخل مغارات الصخور الغامضة، لكنه – حين عاد – أحسن بأنه – رغم كل ذلك – في أحسن حالاته كي يقترن بحبيبته، وهناك أقاويل حول لقائهما ليلا وراء جدران بيتهم الكبيـر، وانه – هذه المرة – هو الذي بكى، ثم ما ترامت به الأخبار بعد ذلك من إصراره على أن يتهامس، ثم يصـرخ – فـي عائلته إنه يريد أن يقترن بها، وكان وجهه وهو يصـرخ أو



يهمس – قد استحال إلى تضاريس جبلية شرسة وبائسة تضطرب لها شمس صبح ذاك اليوم، والذي احتضنه فيه واحد من حكماء عائلته، هؤلاء الذين يبدون قادرين – في لحظة دقيقة – أن يصيغوا الحقائق الأليمة، والتي يندر أن يعترف بها أحد.

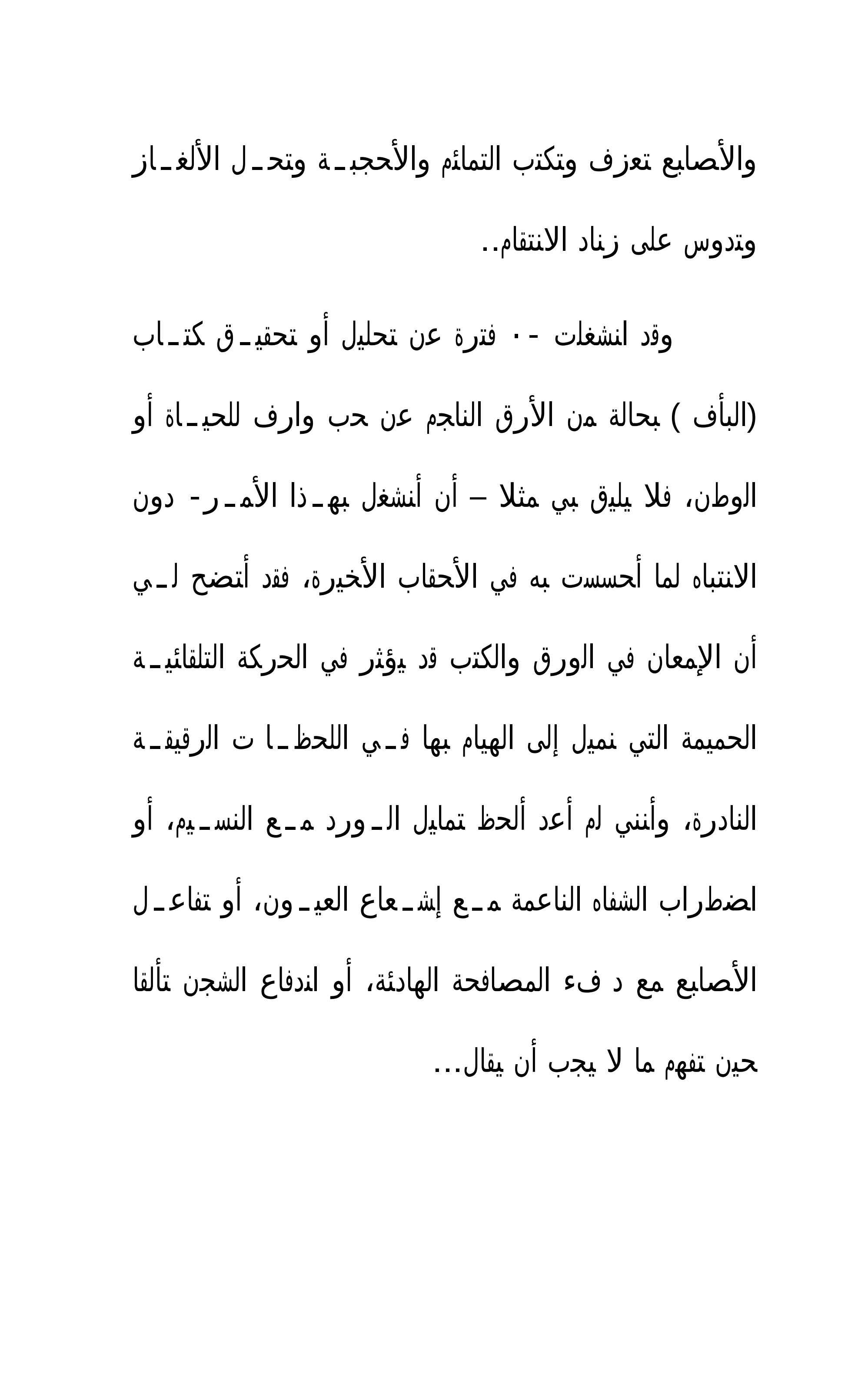
- كل أنواع الحروب والكفاح والقتال والدفاع والاستشهاد والقصائد والقصص والأفلام والأغاني والحكايات لا تمنحك حق الزواج من حبيبتك التي تعلو بعائلتها على كل العائلات...

وبعد فترة صمت همس له في قوة:

- لا يمنحك هذا الحق سوى الثورة عليك أن تسافر بعيدا لتعود بأموال تصلح للتكافؤ، الأموال- يا بني – هي

القادرة الآن على الصياغة المناسبة لتحقيق هذا الأمل. سافر يا بني، سوف يرعاك ا .

كان عاشقنا في الفترة الأخيرة قـد اسـتغرقته كـل الأحلام، يتراقص بالقصائد في ساحة العذاب المروع ليظـل هائما، ما جال بخاطره أن يسافر، أو أن يمتلك، ولعل الأمر – رغم وضوحه – قد أصبح أكثر غموضا، ذلك أن ما جاء في كتاب (البأف) لم يكن كافيا لأن ندرك ما الذي حدث بعد ذلك، فالأشجار ظلت تمازح مداخن المصـانع، والكـلاب تطارد السحالي وراء الأزيار، والأعلام ترفرف بألوان البلح الطيب في قلب النخل، والغـوازى يرقصـن علـى حافـة الشوارب الملتوية العنيفة المصبوغ – معظمهـا – بالحنـاء،



والأصابع تعزف وتكتب التمائم والأحجبـة وتحـل الألغـاز وتدوس على زناد الانتقام..

وقد انشغلت -٠ فترة عن تحليل أو تحقيـق كتـاب (البأف) بحالة من الأرق الناجم عن حب وارف للحيـاة أو الوطن، فلا يليق بي مثلا – أن أنشغل بهـذا الأمـر- دون الانتباه لما أحسست به في الأحقاب الأخيرة، فقد أتضح لـي أن الإمعان في الورق والكتب قد يؤثر في الحركة التلقائيـة الحميمة التي نميل إلى الهيام بها فـي اللحظـا ت الرقيقـة النادرة، وأنني لم أعد ألحظ تمايل الـورد مـع النسـيم، أو اضطراب الشفاه الناعمة مـع إشـعاع العيـون، أو تفاعـل الأصابع مع د فء المصافحة الهادئة، أو اندفاع الشجن تألقا حين تفهم ما لا يجب أن يقال...

وإزاء كل ذلك، نصحتنى زميلة جميلة، تكتب شـعرا نثريا منفعلا ولا تحب الحديث عن الكتب والتراث أن أجول بعض الوقت على ضفاف الجداول أو تحت الأشجار أو بـين آكام الرمال، وأنها سوف تلتقى بي بعد ذلـك كانـت لغتهـا ساخرة، وكان كتاب (البأف) لا يـزال ينتظـر تقويمهـا أو تقريرا أو رأيا نهائيا.

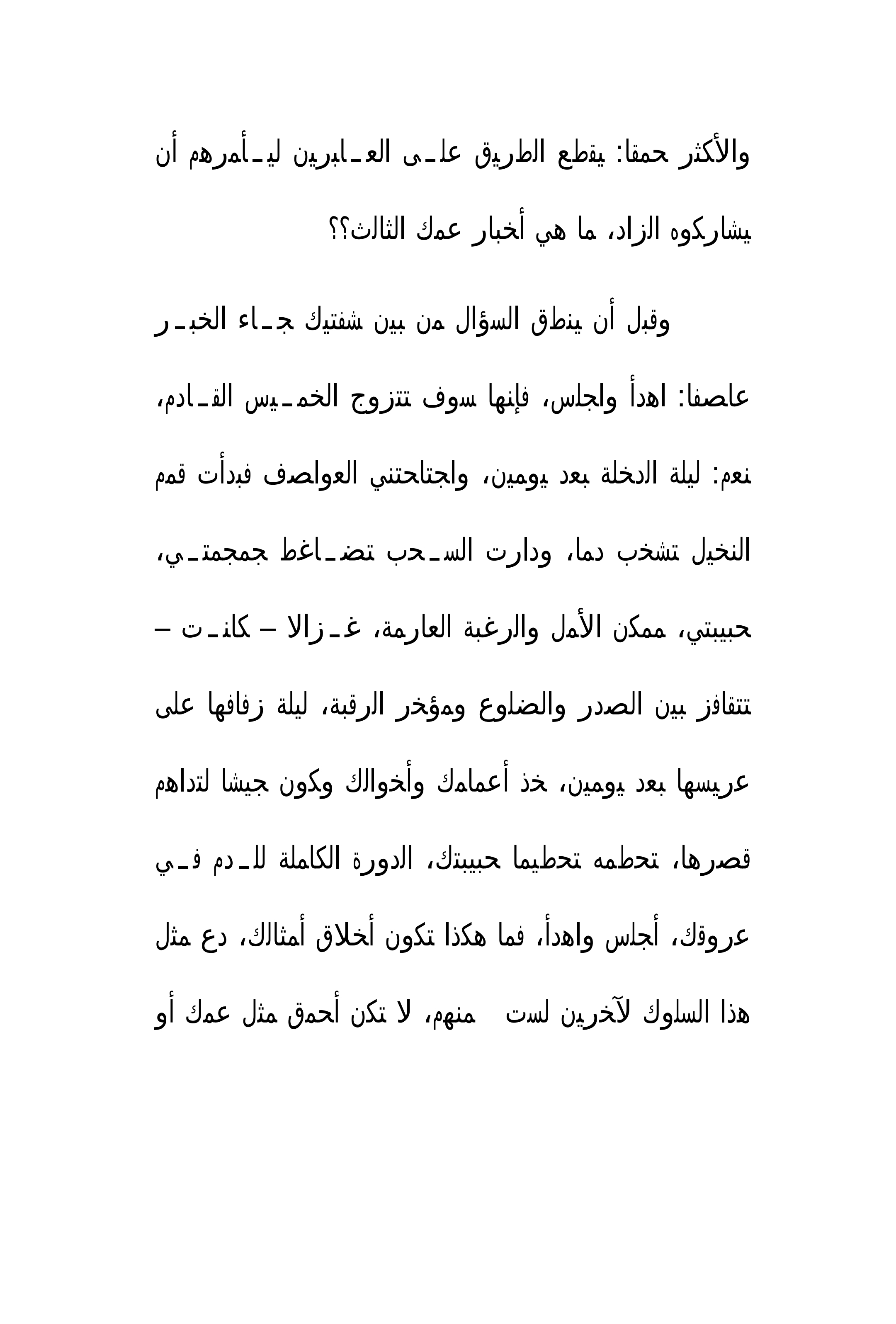
حتى أقدمه لأصحابه، هؤلاء الذين أرسلوا يطلبون ما تم إنجازه فاضطررت إلى أن أجمع أوراقه المتطـايرة مـن فوق المائدة الصغيرة وأسفل السرير، ومن بـين كاسـيتات الأغاني وتسجيلات الفيديو، فاستأذنتها في أن تبتعد قليلا كي ألتقط أنفاسي، فتناولت بعض أرديتها المتناثرة، وربتت فـوق رقبتي، وقبلتني في حب جارف، وساخر أيضا..

فقررت أن أعتذر عن هذا الموقف الذي وجدت نفسي واقعا فيه، فما كنت أبدا أرضى لكاتب – يشار إليه بالبنان – أن يقع فيما ترفضه اللغة والأخلاق، والفهم والإدراك.. وهذا التمهيد.. الأولى.. المرير، و المضطرب أيضا.

هذا ليس

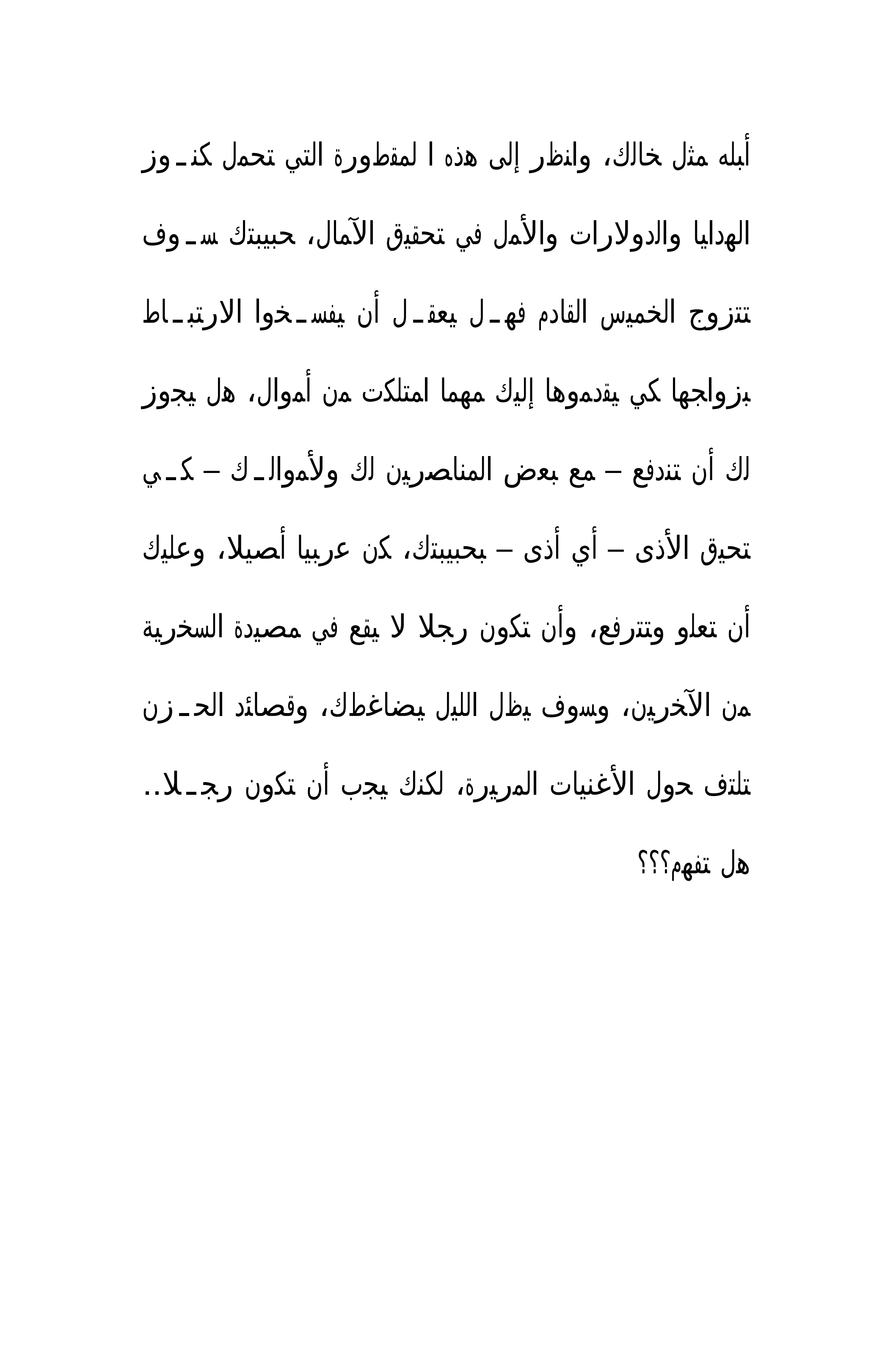
كتاب (البأف)

أهبط الآن فقد جاءت لحظتك الأثيرة المؤثرة، وعليك أن تحتضن أهلك في ابتسام ينفجر ضحكات حـب مجلجـل تحوم فوق مقطورة أحمال النقـود والبطـاطين والعبـاءات والروائح وكشوف توزيع الصدقات، لا أحد سواك الآن، أنت القائم والقادر، وكل دروب القرية تنتظـر خطواتـك لتـنعم بواقعها الجميل سيكون معك واحد من أعمامك، وأعوذ بـا عليك أن تستبعد عمك الأكبر الذي يقلق النائمين قبل الفجر – أقصد بعد منتصف الليل حين يخبط على الأبـواب لتـرتج: اصح يا نايم.. وحد الدايم، كل الناس تكره عمك هذا، والذي يليه من أعمامك هو الأعظم والأكـرم والأشـجع والأقـوى



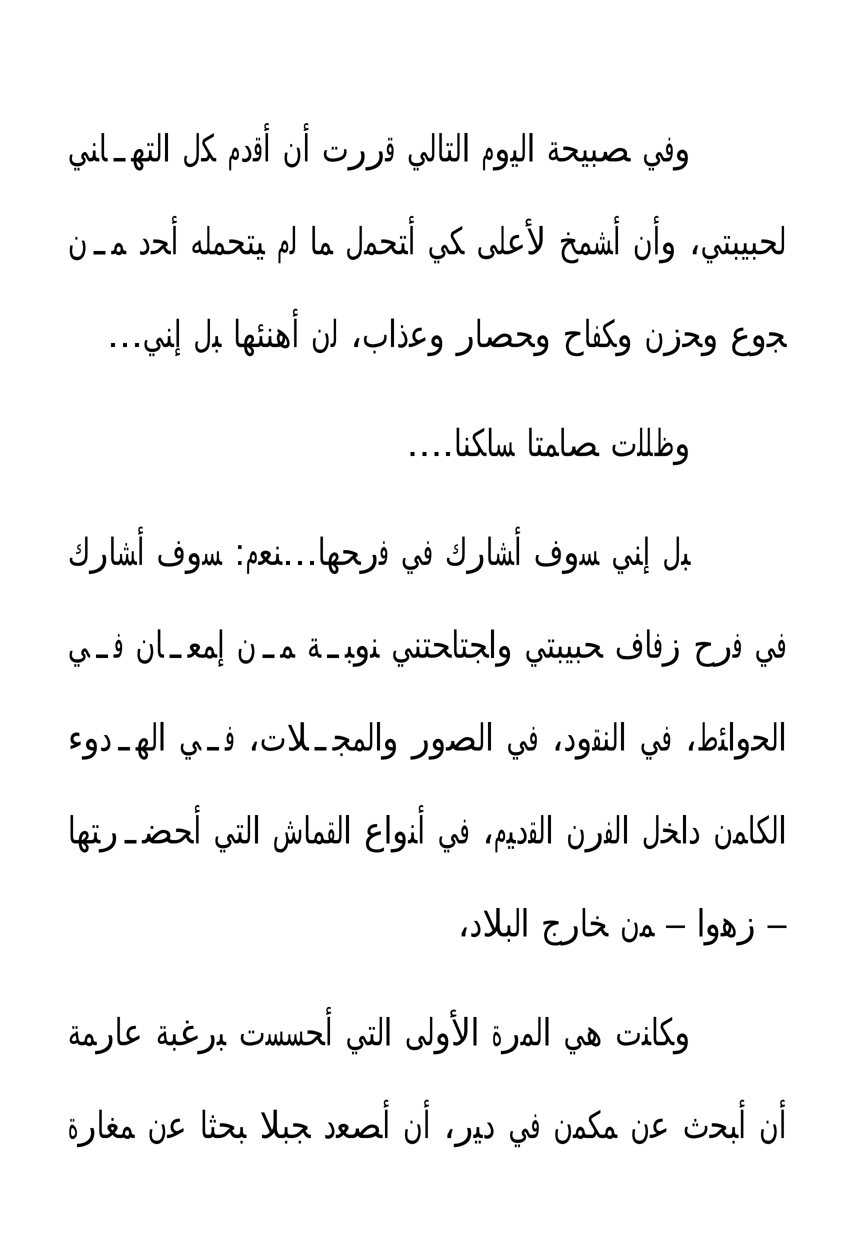
والأكثر حمقا: يقطع الطريق علـى العـابرين ليـأمرهم أن يشاركوه الزاد، ما هي أخبار عمك الثالث؟؟

وقبل أن ينطق السؤال من بين شفتيك جـاء الخبـر عاصفا: اهدأ واجلس، فإنها سوف تتزوج الخمـيس القـادم، نعم: ليلة الدخلة بعد يومين، واجتاحتني العواصف فبدأت قمم النخيل تشخب دما، ودارت السـحب تضـاغط جمجمتـي، حبيبتي، ممكن الأمل والرغبة العارمة، غـزالا – كانـت – تتقافز بين الصدر والضلوع ومؤخر الرقبة، ليلة زفافها على عريسها بعد يومين، خذ أعمامك وأخوالك وكون جيشا لتداهم قصرها، تحطمه تحطيما حبيبتك، الدورة الكاملة للـدم فـي عروقك، أجلس واهدأ، فما هكذا تكون أخلاق أمثالك، دع مثل هذا السلوك لآخرين لست منهم، لا تكن أحمق مثل عمك أو



أبله مثل خالك، وانظر إلى هذه المقطورة التي تحمل كنـوز الهدايا والدولارات والأمل في تحقيق الآمال، حبيبتك سـوف تتزوج الخميس القادم فهـل يعقـل أن يفسـخوا الارتبـاط بزواجها كي يقدموها إليك مهما امتلكت من أموال، هل يجوز لك أن تندفع – مع بعض المناصرين لك ولأموالـك – كـي تحيق الأذى – أي أذى – بحبيبتك، كن عربيا أصيلا، وعليك أن تعلو وتترفع، وأن تكون رجلا لا يقع في مصيدة السخرية من الآخرين، وسوف يظل الليل يضاغطك، وقصائد الحـزن تلتف حول الأغنيات المريرة، لكنك يجب أن تكون رجـلا..

هل تفهم؟؟؟



وفي صبيحة اليوم التالي قررت أن أقدم كل التهـاني لحبيبتي، وأن أشمخ لأعلى كي أتحمل ما لم يتحمله أحد مـن جوع وحزن وكفاح وحصار وعذاب، لن أهنئها بل إني...

وظللت صامتا ساكنا....

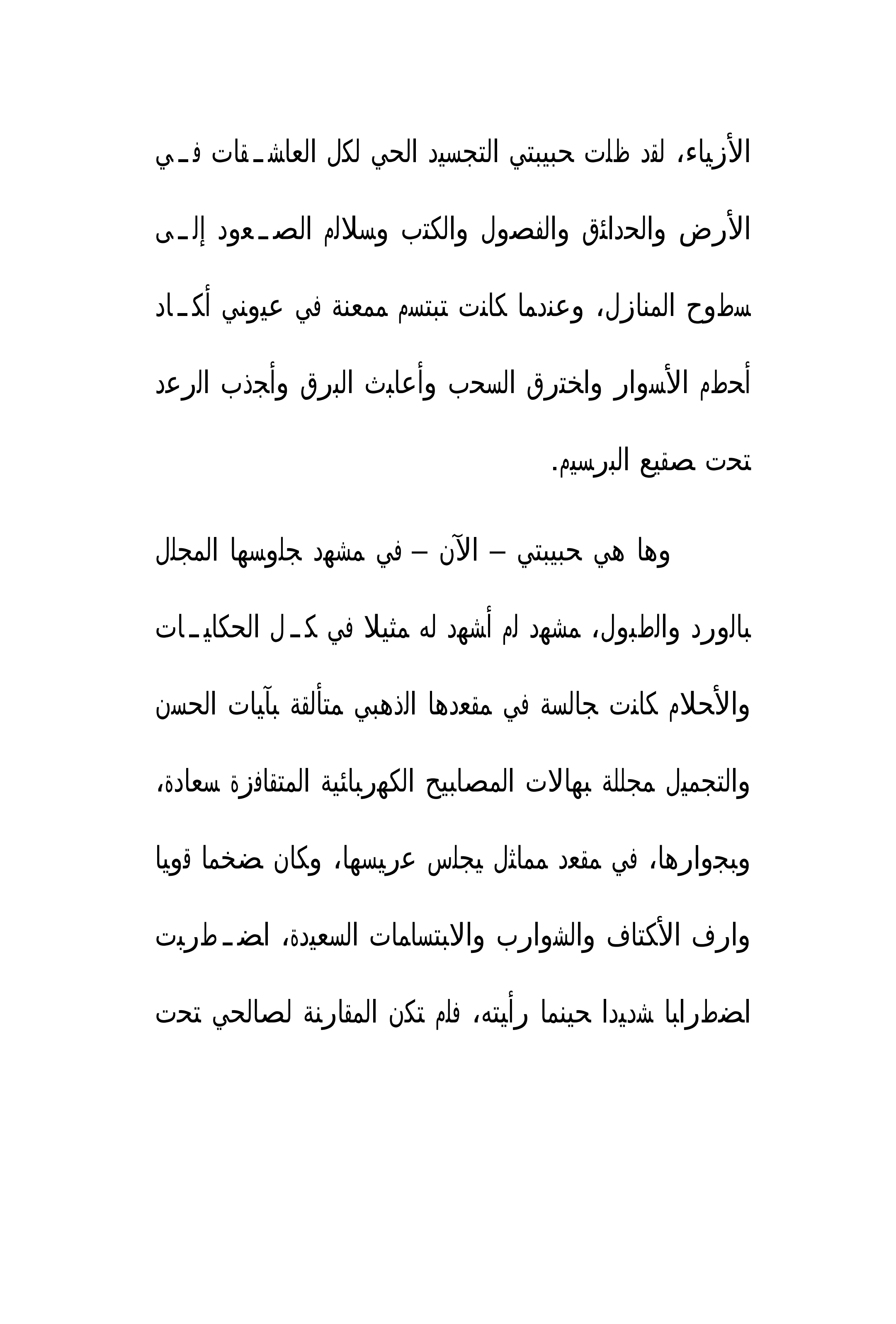
بل إني سوف أشارك في فرحها...نعم: سوف أشارك في فرح زفاف حبيبتي واجتاحتني نوبـة مـن إمعـان فـي الحوائط، في النقود، في الصور والمجـلات، فـي الهـدوء الكامن داخل الفرن القديم، في أنواع القماش التي أحضـرتها – زهوا – من خارج البلاد،

وكانت هي المرة الأولى التي أحسست برغبة عارمة أن أبحث عن مكمن في دير، أن أصعد جبلا بحثا عن مغارة

تصلح شرنقة خيوط الاختناق القديم، وسوف أشارك في فرح زفاف حبيبتي..

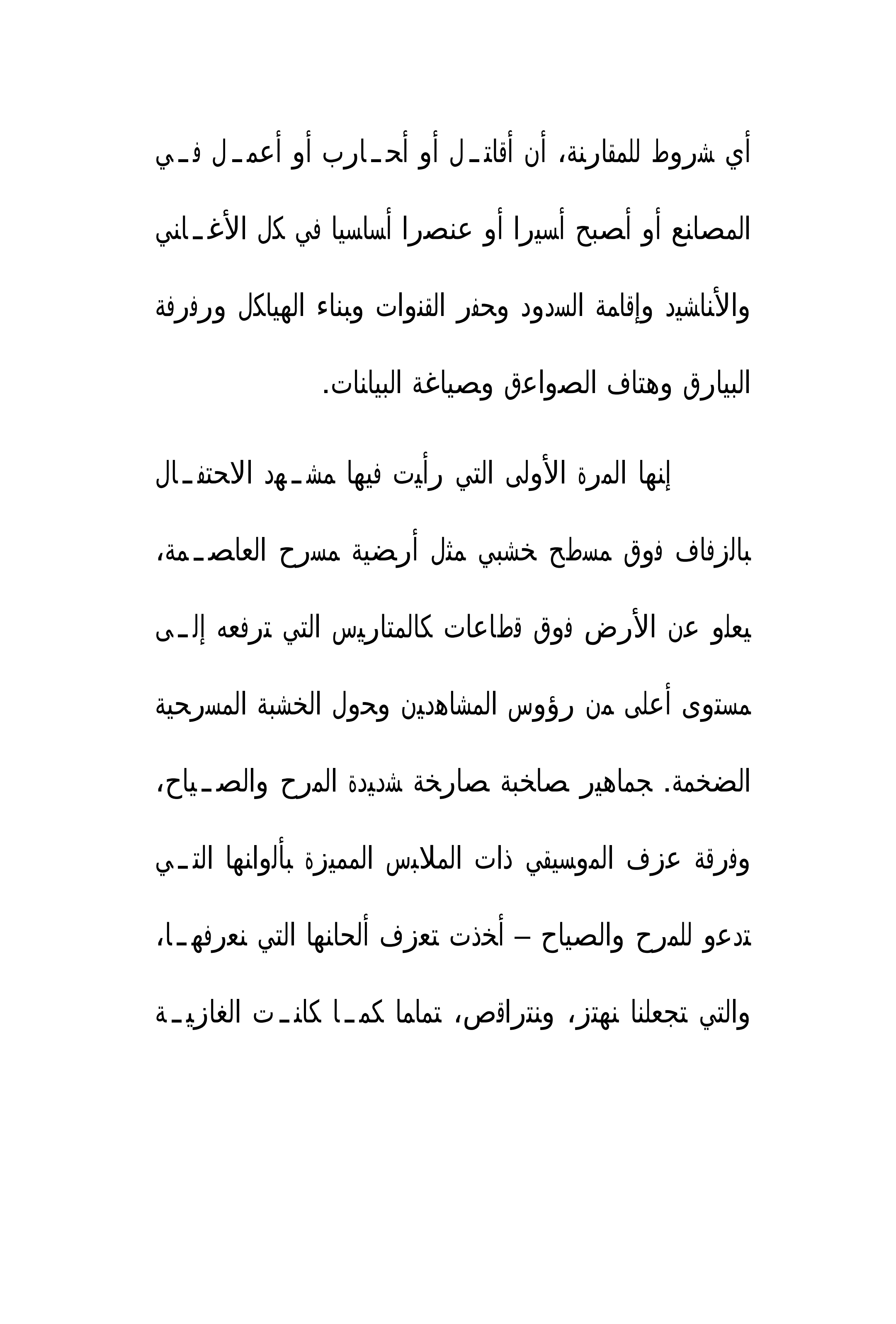
****

المشهد عارم بالضجيج والموسيقى وطبول الابتهاج، ما تصورت – أبدا – أن يكون لحبيبتي هذا الشأن،أعرف أن عائلتها اخترقت سماوات المنطقة، وأول مرة – في حيـاتي تعرفت فيها على كراسـة صـفحاتها ذات سـطور عديـدة الخطوط تتراقص عليها علامات غامضة، كانت بـين يـدي حبيبتي، إنها لغة الموسيقي التي كانت تتعلمها فـي مـدارس مبكرة لم أرها بعد ذلك أبدا، وأول مرة أتفرج علـى مجلـة تزدحم صفحاتها بأنواع من الملابس وتفصيلاتها كانت بـين يدي حبيبتي إنها لغة حياكـة – أو خياطـة – أو تفصـيل



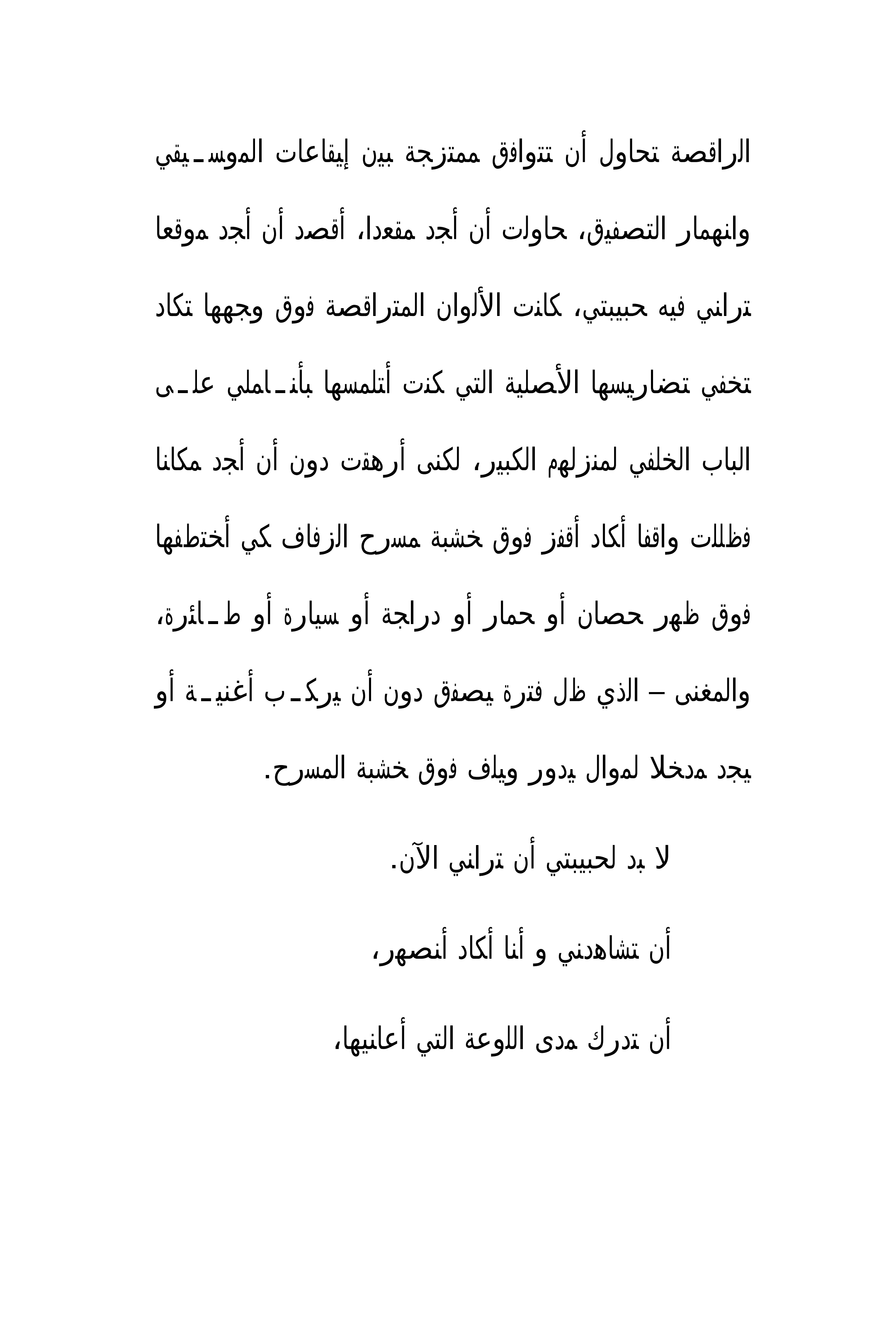
الأزياء، لقد ظلت حبيبتي التجسيد الحي لكل العاشـقات فـي الأرض والحدائق والفصول والكتب وسلالم الصـعود إلـى سطوح المنازل، وعندما كانت تبتسم ممعنة في عيوني أكـاد أحطم الأسوار واخترق السحب وأعابث البرق وأجذب الرعد تحت صقيع البرسيم.

وها هي حبيبتي – الآن – في مشهد جلوسها المجلل بالورد والطبول، مشهد لم أشهد له مثيلا في كـل الحكايـات والأحلام كانت جالسة في مقعدها الذهبي متألقة بآيات الحسن والتجميل مجللة بهالات المصابيح الكهربائية المتقافزة سعادة، وبجوارها، في مقعد مماثل يجلس عريسها، وكان ضخما قويا وارف الأكتاف والشوارب والابتسامات السعيدة، اضـطربت اضطرابا شديدا حينما رأيته، فلم تكن المقارنة لصالحي تحت



أي شروط للمقارنة، أن أقاتل أو أحارب أو أعمل في المصانع أو أصبح أسيرا أو عنصرا أساسيا في كل الأغاني والأناشيد وإقامة السدود وحفر القنوات وبناء الهياكل ورفرفة البيارق وهتاف الصواعق وصياغة البيانات.

إنها المرة الأولى التي رأيت فيها مشهد الاحتفال بالزفاف فوق مسطح خشبي مثل أرضية مسرح العاصمة، يعلو عن الأرض فوق قطاعات كالمتاريس التي ترفعه إلى مستوى أعلى من رؤوس المشاهدين وحول الخشبة المسرحية الضخمة. جماهير صاخبة صارخة شديدة المرح والصياح، وفرقة عزف الموسيقي ذات الملابس المميزة بألوانها التي تدعو للمرح والصياح – أخذت تعزف ألحانها التي نعرفها، والتي تجعلنا نهتز، ونتراقص، تماما كما كانت الغازية

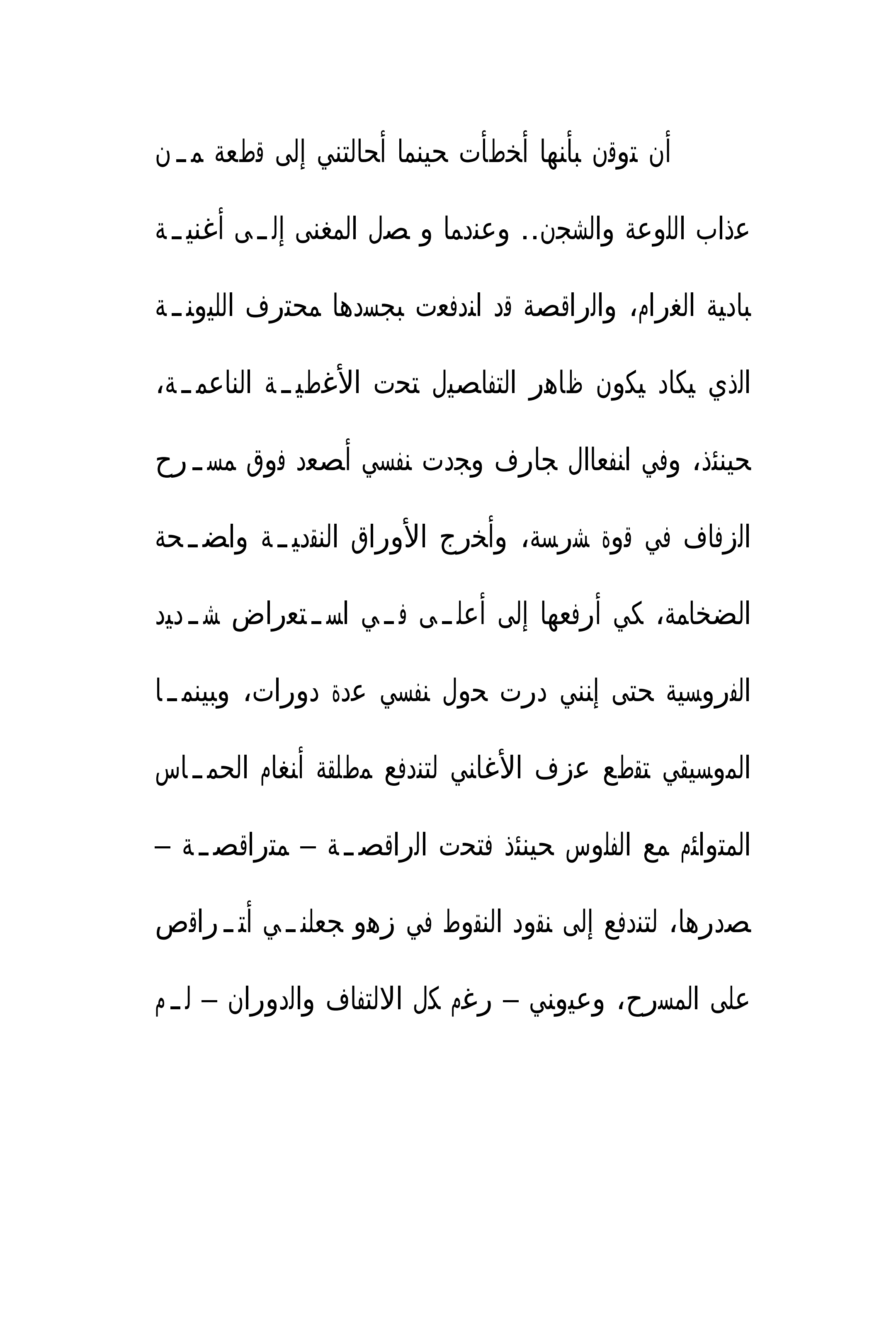


الراقصة تحاول أن تتوافق ممتزجة بين إيقاعات الموسـيقي وانهمار التصفيق، حاولت أن أجد مقعدا، أقصد أن أجد موقعا تراني فيه حبيبتي، كانت الألوان المتراقصة فوق وجهها تكاد تخفي تضاريسها الأصلية التي كنت أتلمسها بأنـاملي علـى الباب الخلفي لمنزلهم الكبير، لكنى أرهقت دون أن أجد مكانا فظللت واقفا أكاد أقفز فوق خشبة مسرح الزفاف كي أختطفها فوق ظهر حصان أو حمار أو دراجة أو سيارة أو طـائرة، والمغنى – الذي ظل فترة يصفق دون أن يركـب أغنيـة أو يجد مدخلا لموال يدور ويلف فوق خشبة المسرح.

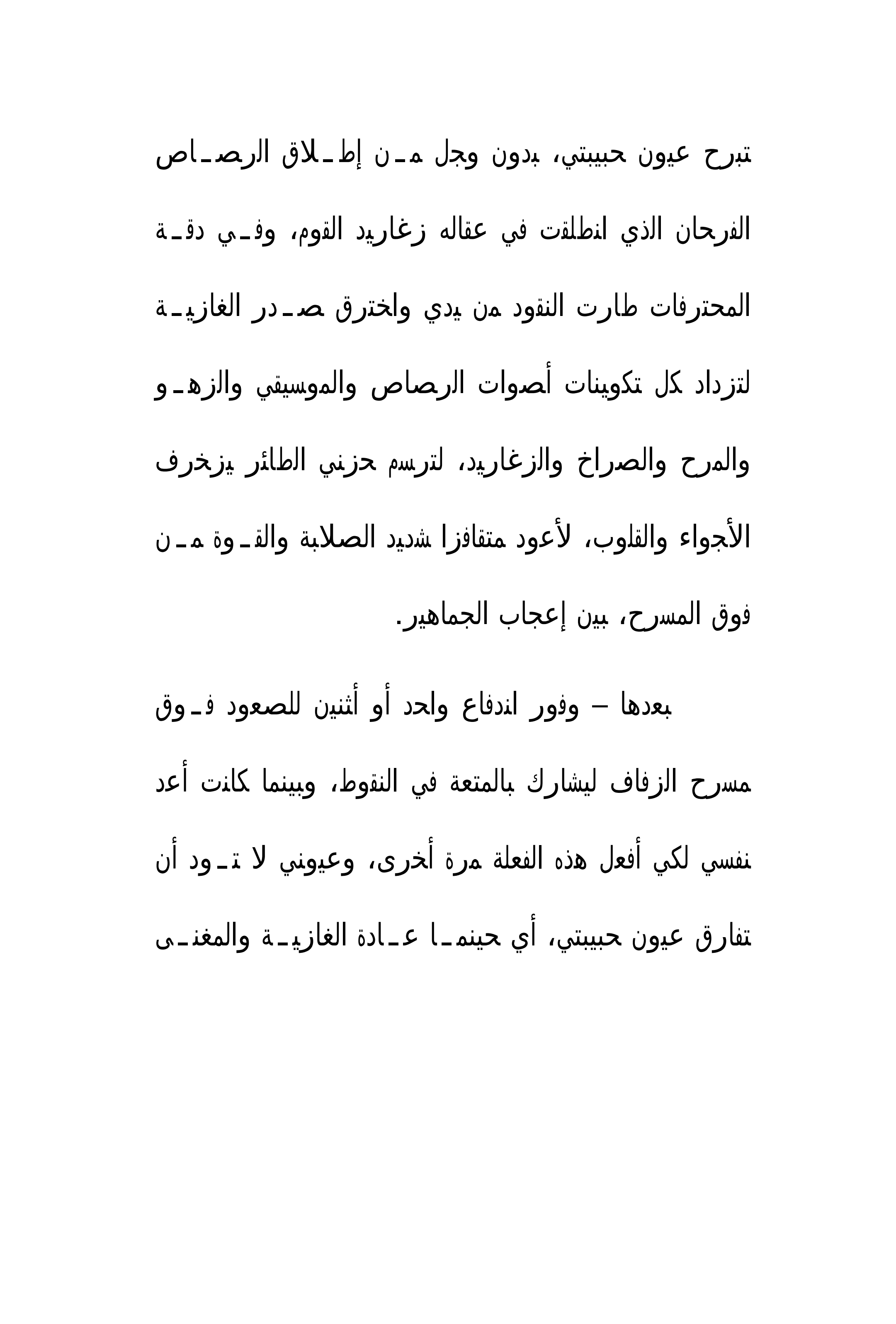
لا بد لحبيبتي أن تراني الآن.

أن تشاهدني و أنا أكاد أنصهر،

أن تدرك مدى اللوعة التي أعانيها،

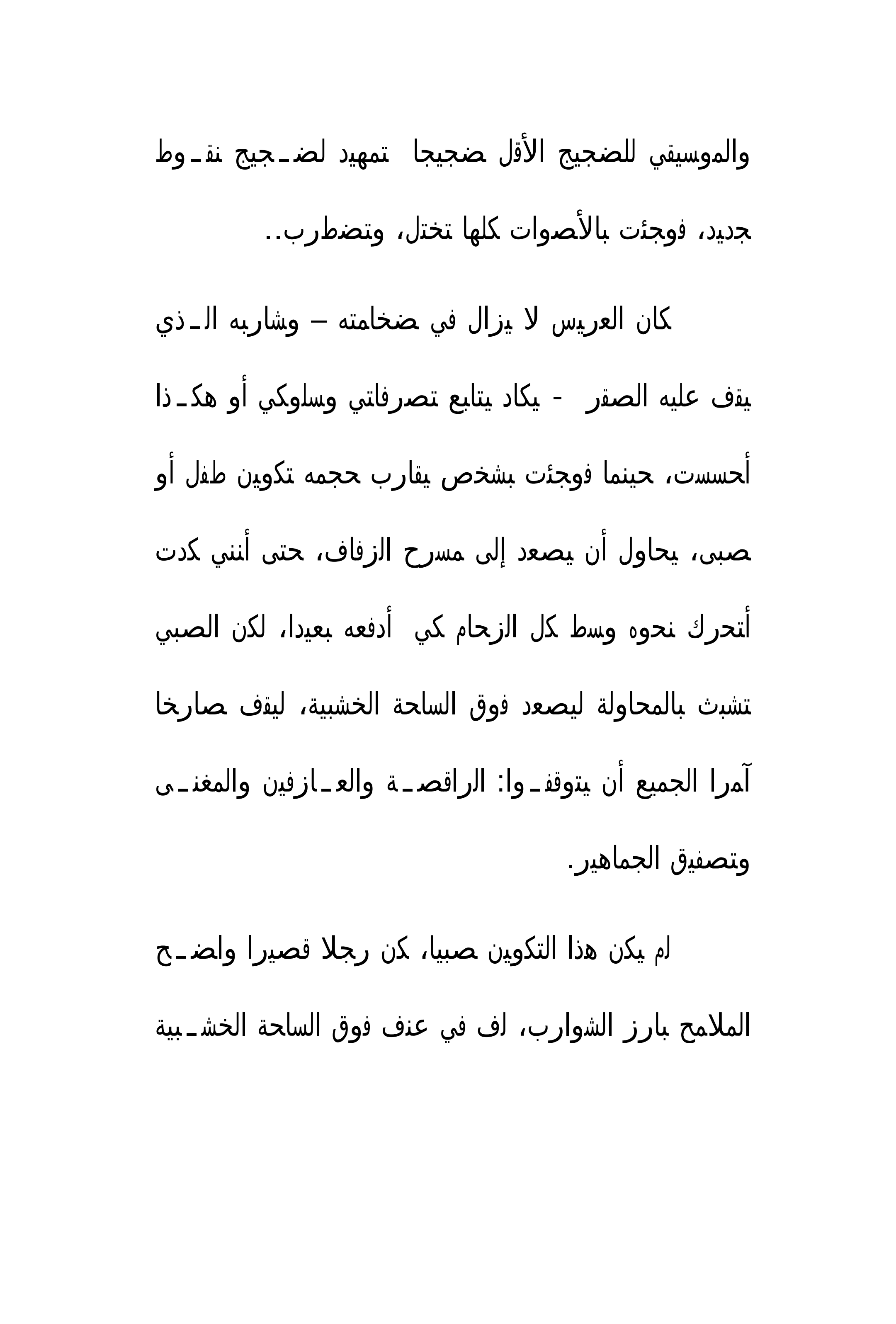


أن توقن بأنها أخطأت حينما أحالتني إلى قطعة مـن
عذاب اللوعة والشجن.. وعندما و صل المغنى إلـى أغنيـة
بادية الغرام، والراقصة قد اندفعت بجسدها محترف الليونـة
الذي يكاد يكون ظاهر التفاصيل تحت الأغطيـة الناعمـة،
حينئذ، وفي انفعاال جارف وجدت نفسي أصعد فوق مسـرح
الزفاف في قوة شرسة، وأخرج الأوراق النقديـة واضـحة
الضخامة، كي أرفعها إلى أعلـى فـي اسـتعراض شـديد
الفروسية حتى إنني درت حول نفسي عدة دورات، وبينمـا
الموسيقي تقطع عزف الأغاني لتندفع مطلقة أنغام الحمـاس
المتوائم مع الفلوس حينئذ فتحت الراقصـة – متراقصـة –
صدرها، لتندفع إلى نقود النقوط في زهو جعلنـي أتـراقص
على المسرح، وعيوني – رغم كل الالتفاف والدوران – لـم



تبرح عيون حبيبتي، بدون وجل مـن إطـلاق الرصـاص الفرحان الذي انطلقت في عقاله زغاريد القوم، وفـي دقـة المحترفات طارت النقود من يدي واخترق صـدر الغازيـة لتزداد كل تكوينات أصوات الرصاص والموسيقي والزهـو والمرح والصراخ والزغاريد، لترسم حزني الطائر يزخرف الأجواء والقلوب، لأعود متقافزا شديد الصلابة والقـوة مـن فوق المسرح، بين إعجاب الجماهير.

بعدها – وفور اندفاع واحد أو أثنين للصعود فـوق مسرح الزفاف ليشارك بالمتعة في النقوط، وبينما كانت أعد نفسي لكي أفعل هذه الفعلة مرة أخرى، وعيوني لا تـود أن تفارق عيون حبيبتي، أي حينمـا عـادة الغازيـة والمغنـى



والموسيقي للضجيج الأول ضجيجا تمهيد لضـجيج نقـوط جديد، فوجئت بالأصوات كلها تختل، وتضطرب..

كان العريس لا يزال في ضخامته – وشاربه الـذي يقف عليه الصقر - يكاد يتابع تصرفاتي وسلوكي أو هكـذا أحسست، حينما فوجئت بشخص يقارب حجمه تكوين طفل أو صبى، يحاول أن يصعد إلى مسرح الزفاف، حتى أنني كدت أتحرك نحوه وسط كل الزحام كي أدفعه بعيدا، لكن الصبي تشبث بالمحاولة ليصعد فوق الساحة الخشبية، ليقف صارخا آمرا الجميع أن يتوقفـوا: الراقصـة والعـازفين والمغنـى وتصفيق الجماهير.

لم يكن هذا التكوين صبيا، كن رجلا قصيرا واضـح الملامح بارز الشوارب، اف في عنف فوق الساحة الخشـبية

فاردا ذراعيه: أن يتوقفوا.. وفي البدايـة اعتقـدت أن ذلـك مشهد مما تعودنا مشاهدته من باب المرح والاسـتمتاع فـي مثل هذه المناسبات، لكن الرجل القصير صرخ من جديد أن يتوقف الجميع عما يفعلونه وبدأ ضجيج المتعة يهبط بسرعة، حينما اعتدل هذا الصبي أو الرجل نحو العريس صارخا، وقد أشار بيده إلى وجه العريس الممعن فيه بعيونه الضخمة:

- أنت عار..

وبدأ الصمت يضطرب حينما عـاد هـذا القصـير يصرخ في العريس.

أنت عار...

ولف حول نفسه، كان الصمت قد أصبح صمتا، وكانت القلوب قد سكنت واجفة .. وهو يلف مرة أخرى في بطء، ويعود فيشير إلى العريس الضخم الجالس في المقعد الذهبي.

- أنت عار يا أخي.. ولا تستحق إلا القتل، كيف تسمح لنفسك أن تتزوج بواحدة مثل هذه..

ولف مرة ثانية حول نفسه وعاد إلى الصراخ الأليم القاسي كي يريقه على الجماهير المذهولة الممعنة الصامتة المنتظرة:

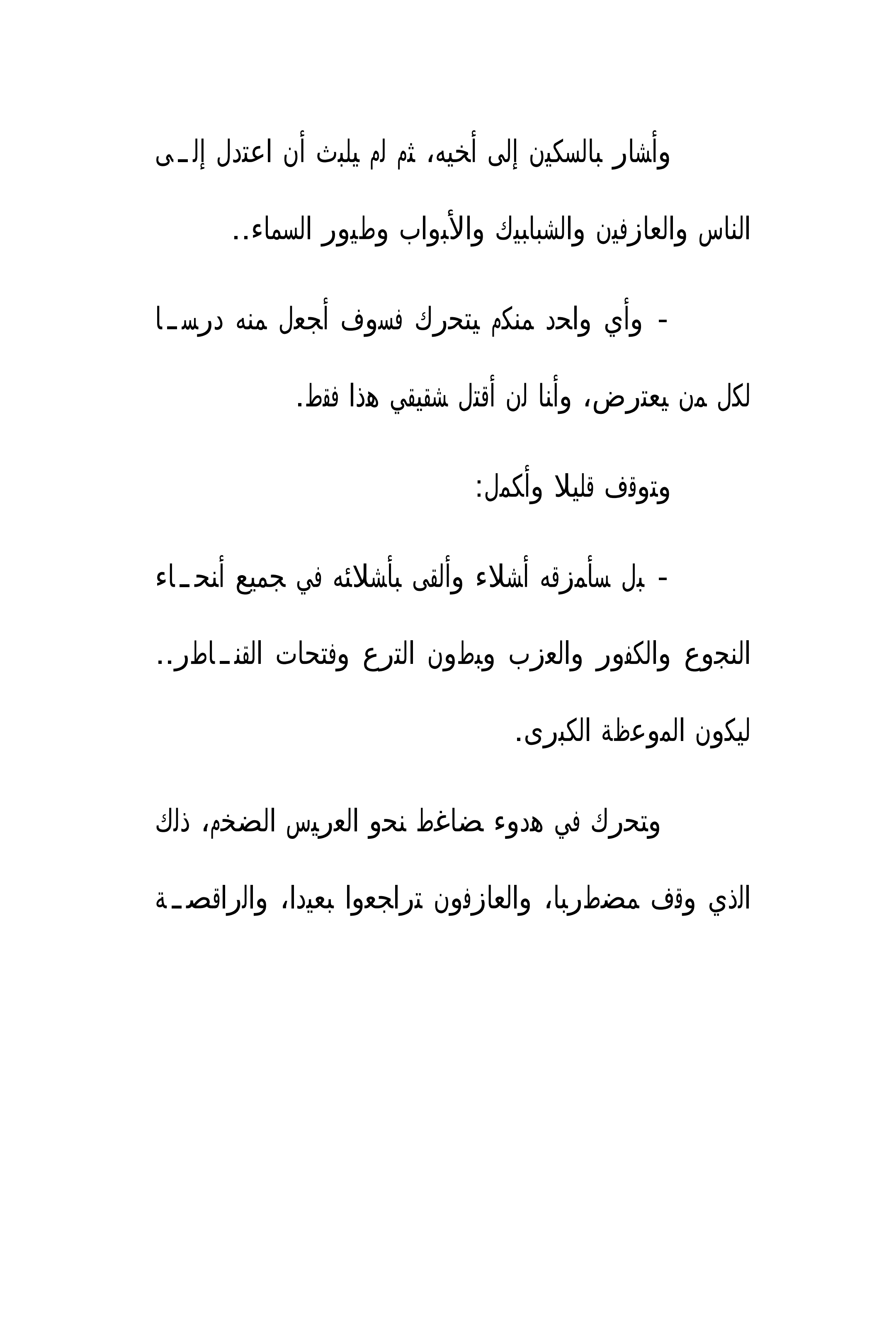
- كيف تسمح لنفسك أن تخرج على عائلتك وتتزوج من واحدة مثل هذه، من عائلة واطية...

كانت كلمة (واطية) قد اندفعت حذاء كالصـاروخ في دماغي، وقبل أن استوعب الأمر، عاد هذا القصير إلـى دورة جديد فوق الساحة الخشبية، وصرخ بوضـوح منفعـل يكاد يكون باكيا:

- لقد وضعت دماغنا في الطين...

بعدها توقف عن الدوران، ونظر إلى كل ا لناس في هدوء، ثم عاد لينظر إلى أخيه الضخم وعروستي التي تكـاد تسقط ذهلا وأخرج من بين ملابسه سكينا ضخمة تكاد تساويه طولا، وأعلن.....

لقد نصحناك بدون جدوى، وسأجعل منك درسا لكل من يحاول أن يضع رأس عائلته في الوحل، ويتزوج من مثل هذه العائلة الواطية.



وأشار بالسكين إلى أخيه، ثم لم يلبث أن اعتدل إلـى الناس والعازفين والشبابيك والأبواب وطيور السماء..

- وأي واحد منكم يتحرك فسوف أجعل منه درسـا لكل من يعترض، وأنا لن أقتل شقيقي هذا فقط.

وتوقف قليلا وأكمل:

- بل سأمزقه أشلاء وألقى بأشلائه في جميع أنحـاء النجوع والكفور والعزب وبطون الترع وفتحات القنـاطر.. ليكون الموعظة الكبرى.

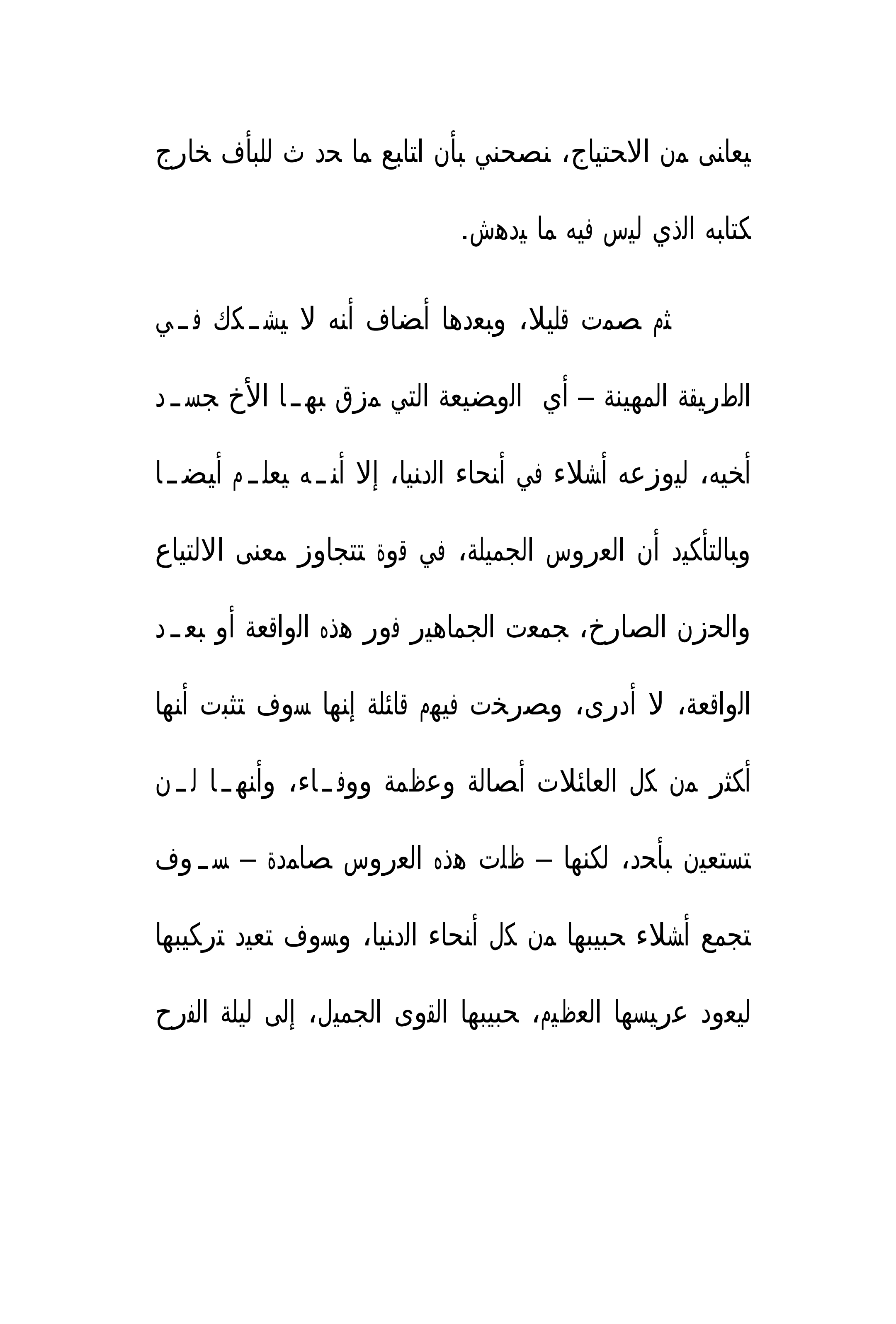
وتحرك في هدوء ضاغط نحو العريس الضخم، ذلك الذي وقف مضطربا، والعازفون تراجعوا بعيدا، والراقصـة

تراجعت بعيدا، والمغنى تراجع بعيدا حتى بـدأت خطـواتهم تسقط من فوق خشبة مسرح الزفاف...

وكان الأخ القصير قد رفع السكين العريضـة إلـى أعلى..وبدأ مرحلة التمزيق.. العظيم ويتوقف كتاب (البـأف) عند هذه النقطة الفاجعة، ومن المفترض أن تنتهي الروايـة، وأن نغلق الملف الخاص بها كي نشير إلـى رغبتنـا فـي استبعادنا من مجاال التحقيق ولا سيما أنني كنت في حاجـة لبعض الراحة تمهيدا للسفر في ركاب أحد الأصـدقاء ذوى الشأن، وليس من طبيعتنا نحن محققي كتب التراث أن نسعى لأمور تحدث خارجها، إلا أن صديقا اشتهر بالإمعان أكثـر مما يجب فيما لا يصح الإمعان فيه، وهو يقضى حياته ممعنا

يعانى من الاحتياج، نصحني بأن اتابع ما حد ث للبأف خارج كتابه الذي ليس فيه ما يدهش.

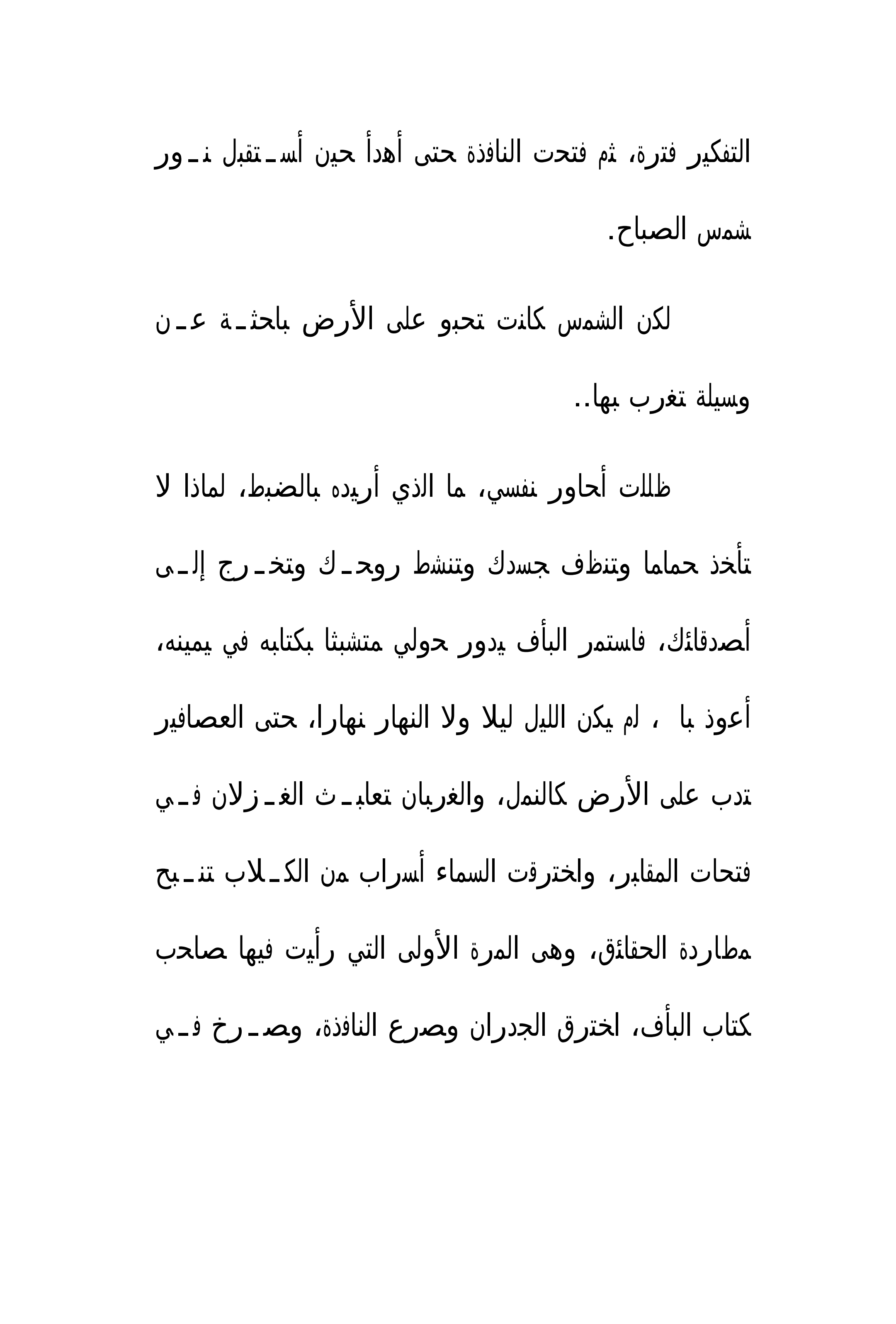
ثم صمت قليلا، وبعدها أضاف أنه لا يشـكك فـي الطريقة المهينة – أي الوضيعة التي مزق بهـا الأخ جسـد أخيه، ليوزعه أشلاء في أنحاء الدنيا، إلا أنـه يعلـم أيضـا وبالتأكيد أن العروس الجميلة، في قوة تتجاوز معنى الالتياع والحزن الصارخ، جمعت الجماهير فور هذه الواقعة أو بعـد الواقعة، لا أدرى، وصرخت فيهم قائلة إنها سوف تثبت أنها أكثر من كل العائلات أصالة وعظمة ووفـاء، وأنهـا لـن تستعين بأحد، لكنها – ظلت هذه العروس صامدة – سـوف تجمع أشلاء حبيبها من كل أنحاء الدنيا، وسوف تعيد تركيبها ليعود عريسها العظيم، حبيبها القوى الجميل، إلى ليلة الفرح



الكبرى، وأنها سوف تدعوهم قريبا جدا للمشاركة فـي هـذا الزفاف، لأنها لن تنام مع احد سواه.

قلت في نفسي: إن مثل هـذه الأمـور لا يجـب أن تستدرجني، كتاب هزيل لواقعة هزيلة يسعى الآخرون كـي يصنعوا منه أمرا جللا، فما الذي سوف يكون؟؟ ولماذا..

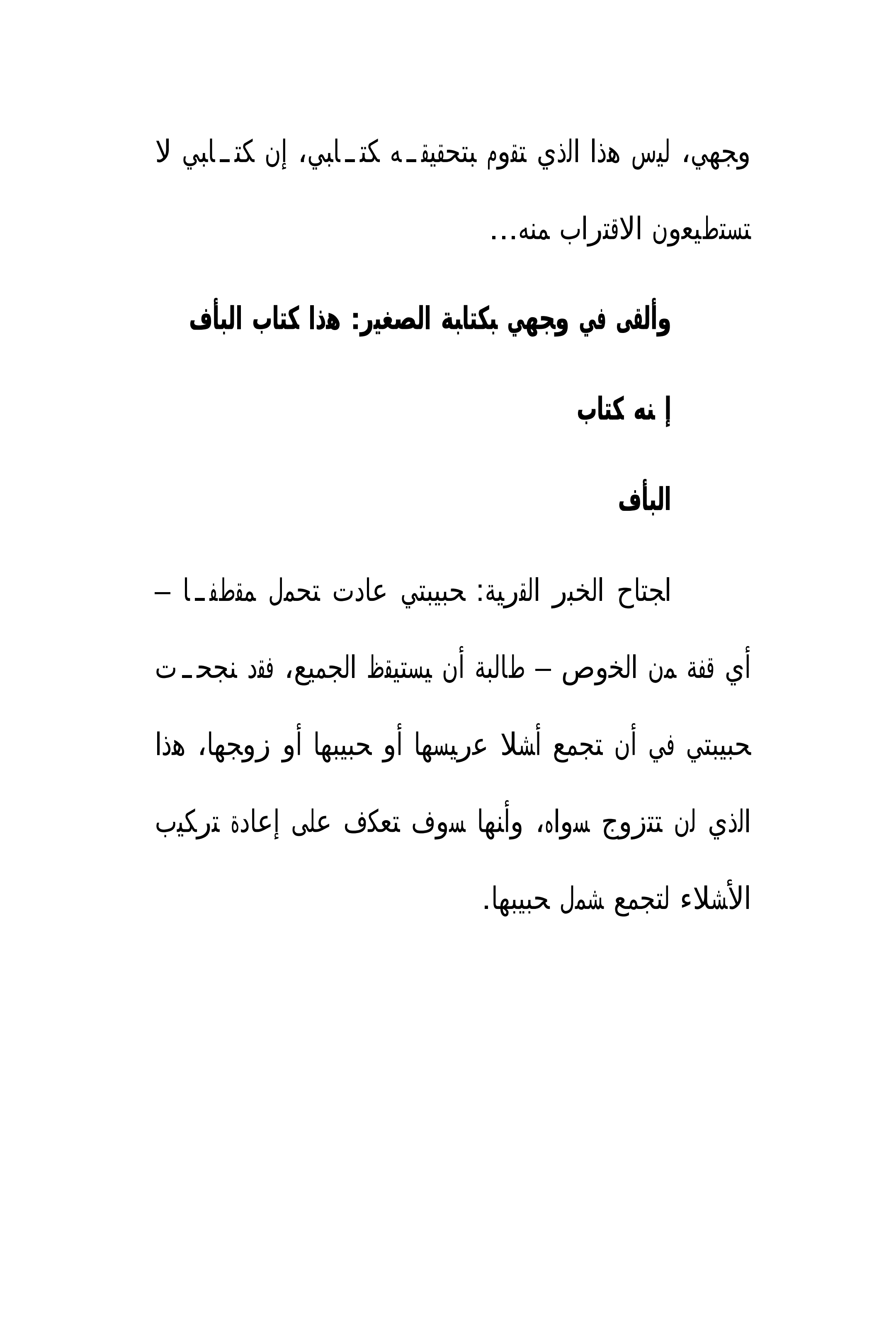
وقبل أن تنهمر مجموعة (لماذا ولماذا...) فوجئت بالرجل العظيم ذي الشأن الذي أسعي في ركابه، يماطل فـي اصطحابى – رغم ابتسامته الودود، ثم لم تلبـث ابتسـامته الودود أن ذبلت وتلاشت، وبدأ يعد للسفر بدوني، اجتـاحني غل جامح فأحسست برغبة أن أبحث عن سكين أمزقه بهـا أشلاء، وكان لا بد لي من أن أواجه ما يحـدث أو أواجـه كتاب البأف، ذلك أن أذان الفجر اجتاح مسمعي، فتوقفت عن



التفكير فترة، ثم فتحت النافذة حتى أهدأ حين أسـتقبل نـور شمس الصباح.

لكن الشمس كانت تحبو على الأرض باحثـة عـن وسيلة تغرب بها..

ظللت أحاور نفسي، ما الذي أريده بالضبط، لماذا لا تأخذ حماما وتنظف جسدك وتنشط روحـك وتخـرج إلـى أصدقائك، فاستمر البأف يدور حولي متشبثا بكتابه في يمينه، أعوذ با ، لم يكن الليل ليلا ولا النهار نهارا، حتى العصافير تدب على الأرض كالنمل، والغربان تعابـث الغـزلان فـي فتحات المقابر، واخترقت السماء أسراب من الكـلاب تنـبح مطاردة الحقائق، وهى المرة الأولى التي رأيت فيها صاحب كتاب البأف، اخترق الجدران وصرع النافذة، وصـرخ فـي



وجهي، ليس هذا الذي تقوم بتحقيقـه كتـابي، إن كتـابي لا تستطيعون الاقتراب منه...

وألقى في وجهي بكتابة الصغير: هذا كتاب البأف

إ نه كتاب

البأف

اجتاح الخبر القرية: حبيبتي عادت تحمل مقطفـا – أي قفة من الخوص – طالبة أن يستيقظ الجميع، فقد نجحـت حبيبتي في أن تجمع أشلا عريسها أو حبيبها أو زوجها، هذا الذي لن تتزوج سواه، وأنها سوف تعكف على إعادة تركيب الأشلاء لتجمع شمل حبيبها.

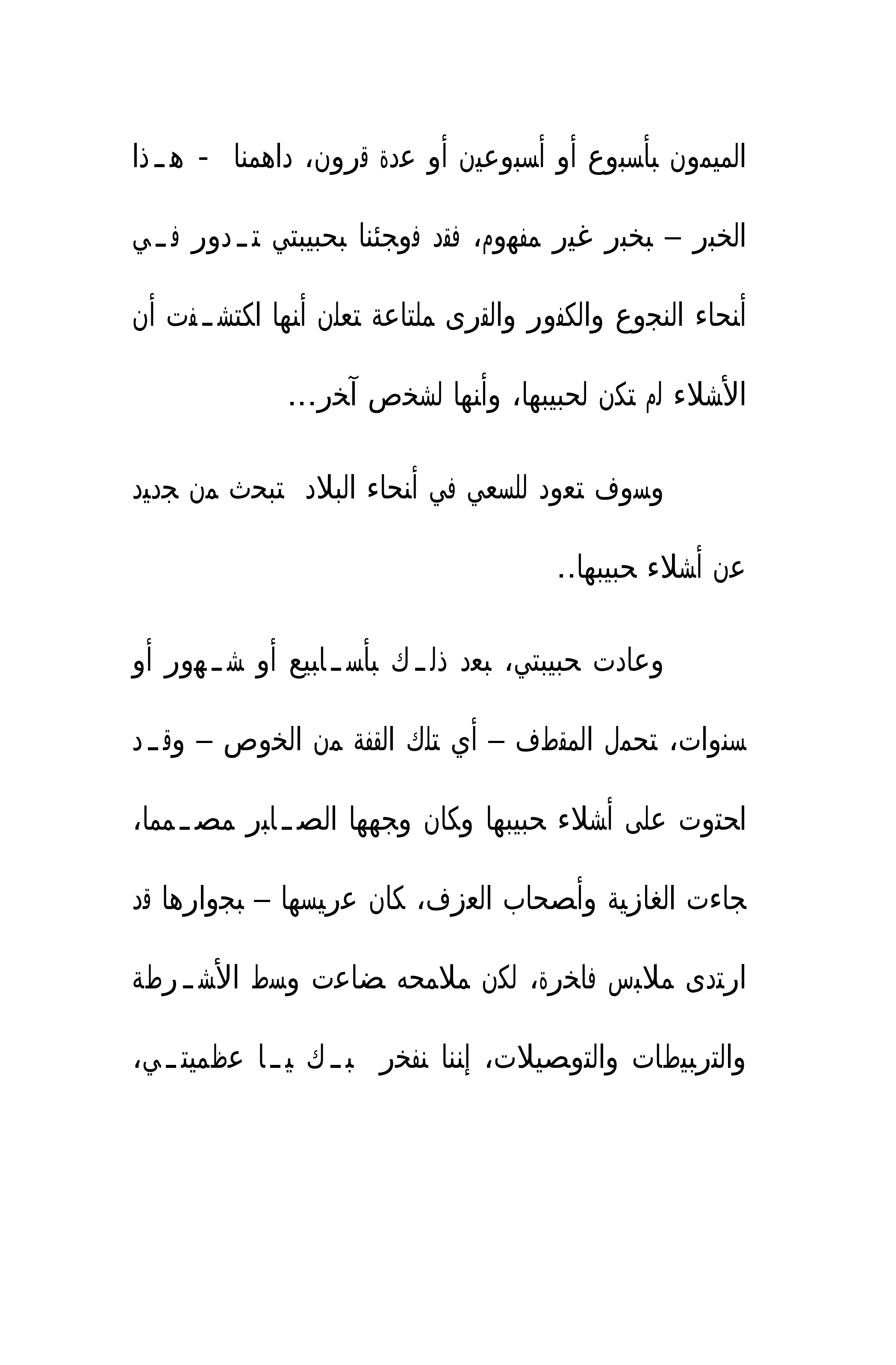
وقبل أن أفيق من سماع الخبـر، بـدأت مرارتـى وحقدى وحزني تتراجع إلى الخلف أمام هذه الرحلة المرهقة التي قطعتها حبيبتي في أنحاء القرى والنجوع حتـى تجمـع أشلاء حبيبها، وظل الموقف مذهلا ـ ـ وأحسسـت برغبـة جامعة أن تتاح لي فرصة أن أرقص ليلة زفافها الجديد – أو الجديدة، وظللنا نتحدث في الغرف وتحت ظلال النخيل وعلى المصاطب وبين الأجران، إنها القوى الكبرى والبأس العظيم، فكادت الشمس تعود إلى استوائها حينما جاء الخبر الجديـد: الليلة سيكون زفاف حبيبتي على حبيبها.. من جديد.

على ذات المسطح الخشبي، وبين ضـجيج العـزف والموسيقى الضاغط، كانت حبيبتي قـد جلسـت بجوارهـا عريسها، كان مربوطا ومضمدا وملفوفا بأشرطة من القماش

وأوراق، لا أثر لملامحة، لكننا نعرفـه جيـدا، واجتاحـت الراقصة المشهد، وقمت – بالعصا -٠ أتـراقص مندهشـا ومشاركا وشديد السعادة في حبور لم أحس به مـن قبل، ـ ـ حيث اندفعت طلقات الرصاص لتحيي حبيبتي لقدرتها الفائقة أن تصمم على الزواج من حبيبها.. مهما كان وكيفما كان.

لن أزيد.. فقد عدنا إلى بيوتنا نفخر بان الرب منحنا أنثي لها هذه الطاقة المدهشة والتصميم الصـارم، وجلسـت فترة – تحت النخيل – مع أصدقاء نحتسي الشـاي الأسـود الغامق وندخن المعسل الفاخر ونسـتحاب ذكريـات المجـد والإعجاب..

غير أن الأمر – فور عودتنا إلى الفراش أو الحقول أو الورش أو المصانع أو المدارس أي بعـد ليلـة الزفـاف



الميمون بأسبوع أو أسبوعين أو عدة قرون، داهمنا - هذا الخبر – بخبر غير مفهوم، فقد فوجئنا بحبيبتي تدور في أنحاء النجوع والكفور والقرى ملتاعة تعلن أنها اكتشفت أن الأشلاء لم تكن لحبيبها، وأنها لشخص آخر...

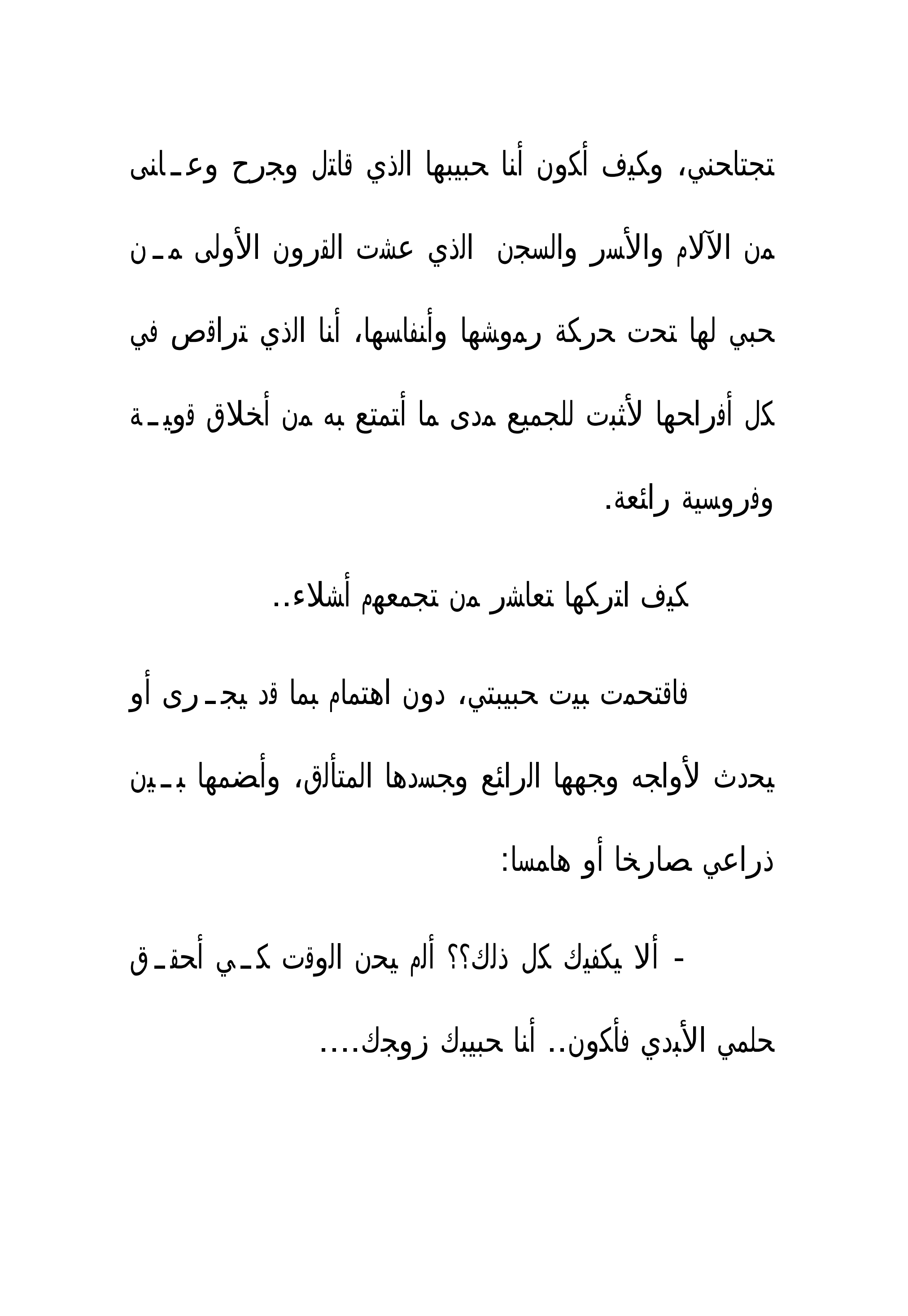
وسوف تعود للسعي في أنحاء البلاد تبحث من جديد عن أشلاء حبيبها..

وعادت حبيبتي، بعد ذلك بأسابيع أو شهور أو سنوات، تحمل المقطف – أي تلك القفة من الخوص – وقد احتوت على أشلاء حبيبها وكان وجهها الصابر مصمما، جاءت الغازية وأصحاب العزف، كان عريسها – بجوارها قد ارتدى ملابس فاخرة، لكن ملامحه ضاعت وسط الأشرطة والتربيطات والتوصيلات، إننا نفخر بك يا عظيمتي،

ستخترقين كل أنواع الذاكرة والقدرات والبراءة والصبر، وانتهى حفل الزفاف لأعود مرهقا إلى الفراش أو خلف الحوائط أو ظلال دخان الشيشة أو الجوزة أسبوع وأسبوعان أو عدة دهور، حينما جاء الخبر المروع الجديد: حبيبتي تدور في القرية معلنة أنها اكتشفت أن الأشلاء لم تكن لحبيبها.. وأنها سوف تعود للبحث عنه من جديد.

أنا.. صاحب كتاب البأف، اسمي سوف تجدونه مدونا على الحوائط والأمخاخ وجماجم الحكايات، حضرت – في عمري القصير أو المديد – ست حفلات زفاف لحبيبتي لتكتشف كل مرة أن أشلاء أي من عرسانها لم تكن لحبيبها..

كان الوقت فجرا، والجماهير خرجت من المساجد والكنائس بعد صلاة العصر مباشرة حينما عادة المرارة

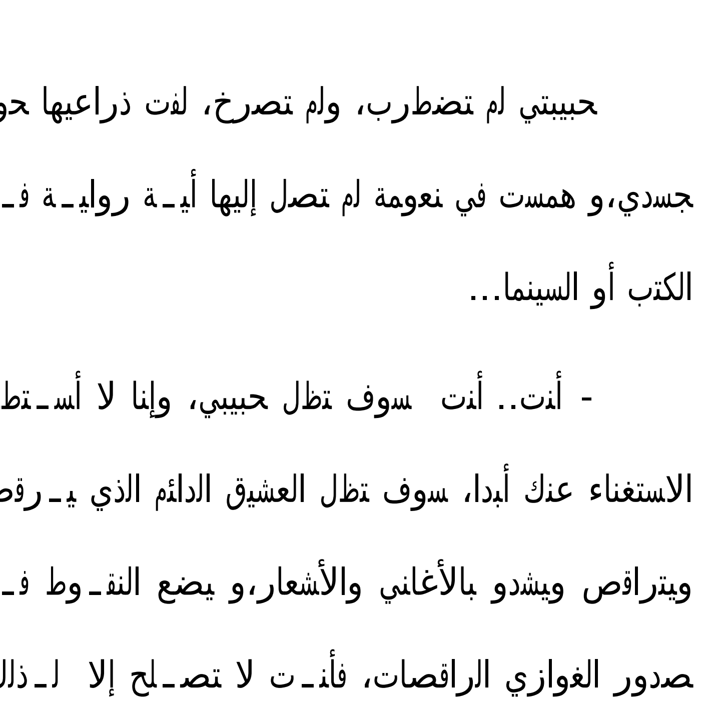


تجتاحني، وكيف أكون أنا حبيبها الذي قاتل وجرح وعانى من الآلام والأسر والسجن الذي عشت القرون الأولى من حبي لها تحت حركة رموشها وأنفاسها، أنا الذي تراقص في كل أفراحها لأثبت للجميع مدى ما أتمتع به من أخلاق قوية وفروسية رائعة.

كيف اتركها تعاشر من تجمعهم أشلاء..

فاقتحمت بيت حبيبتي، دون اهتمام بما قد يجرى أو يحدث لأواجه وجهها الرائع وجسدها المتألق، وأضمها بين ذراعي صارخا أو هامسا:

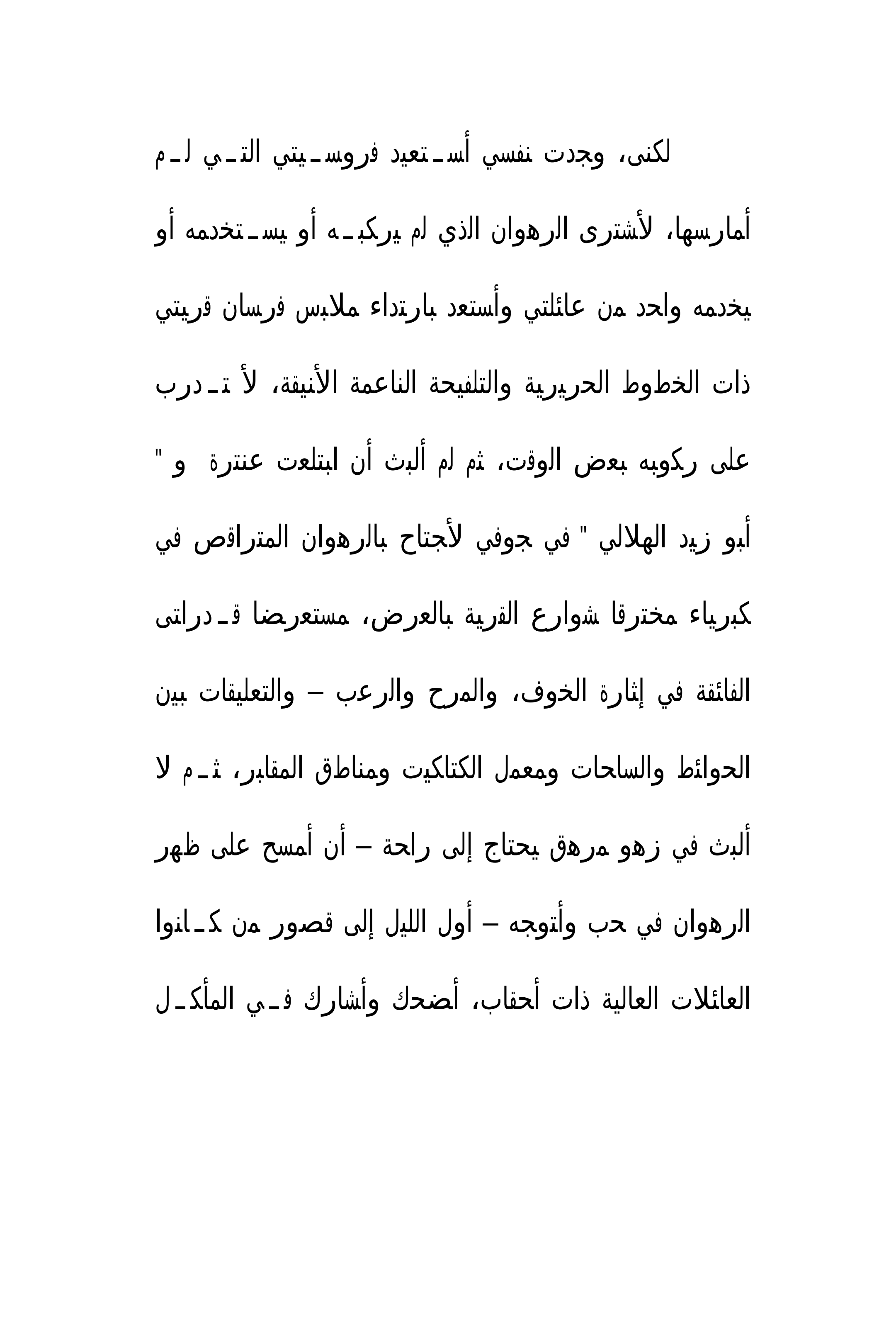
- ألا يكفيك كل ذلك؟؟ ألم يحن الوقت كي أحقق حلمي الأبدي فأكون.. أنا حبيبك زوجك....



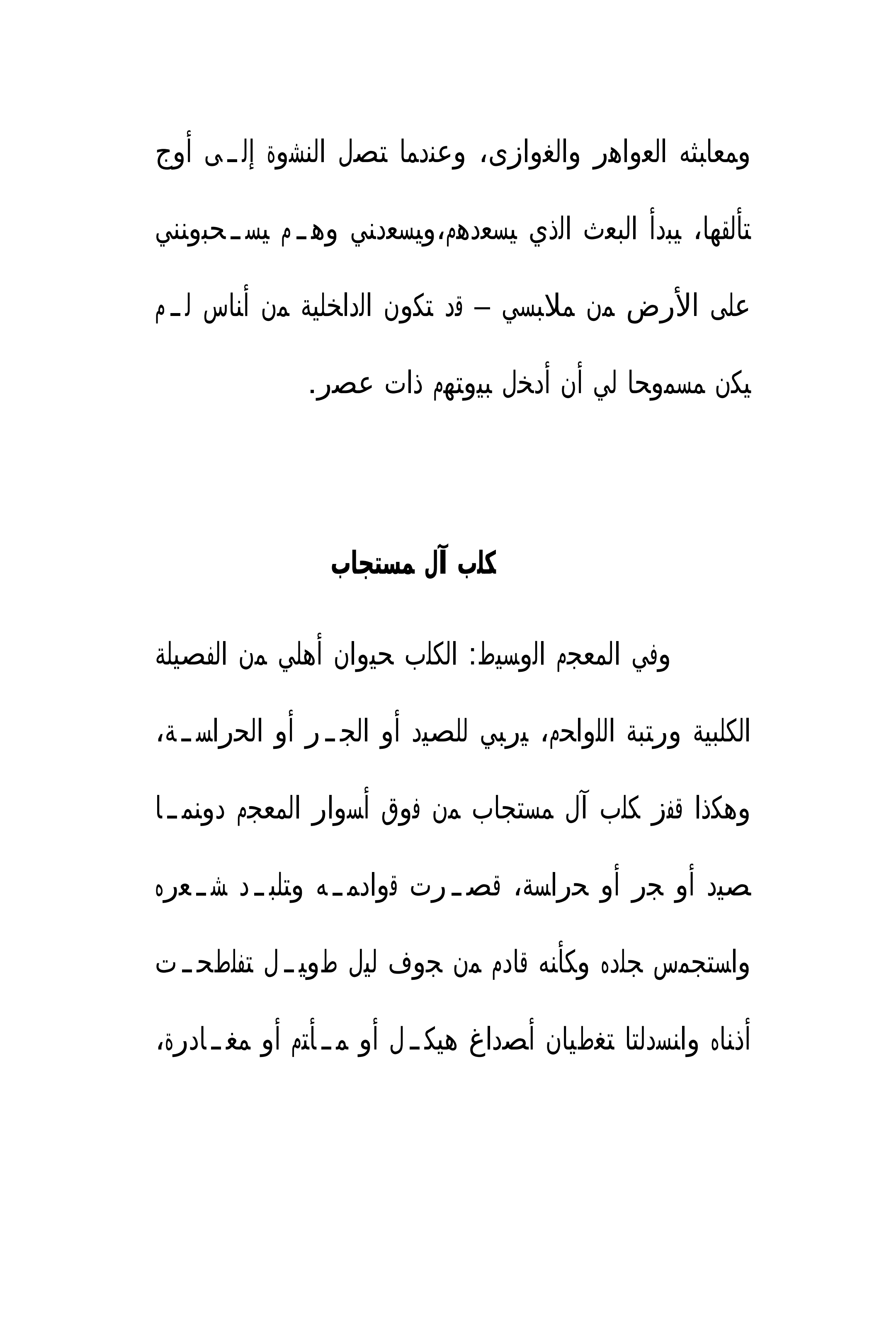
حبيبتي لم تضطرب، ولم تصرخ، لفت ذراعيها حول جسدي،و همست في نعومة لم تصل إليها أية رواية في الكتب أو السينما...

- أنت.. أنت سوف تظل حبيبي، وإنا لا أستطيع الاستغناء عنك أبدا، سوف تظل العشيق الدائم الذي يرقص ويتراقص ويشدو بالأغاني والأشعار،و يضع النقوط في صدور الغوازي الراقصات، فأنت لا تصلح إلا لذلك، وسوف تسمح لي الآن أن أسعى – من جديد – كي أبحث عن أشلاء حبيبي..

وبدأت تبحث عن المقطف.. أي القفة التي من الخوص.. فطلبت منها في حب دافق أن تستريح، كي أعد لها القفة التي تبحث عنها..



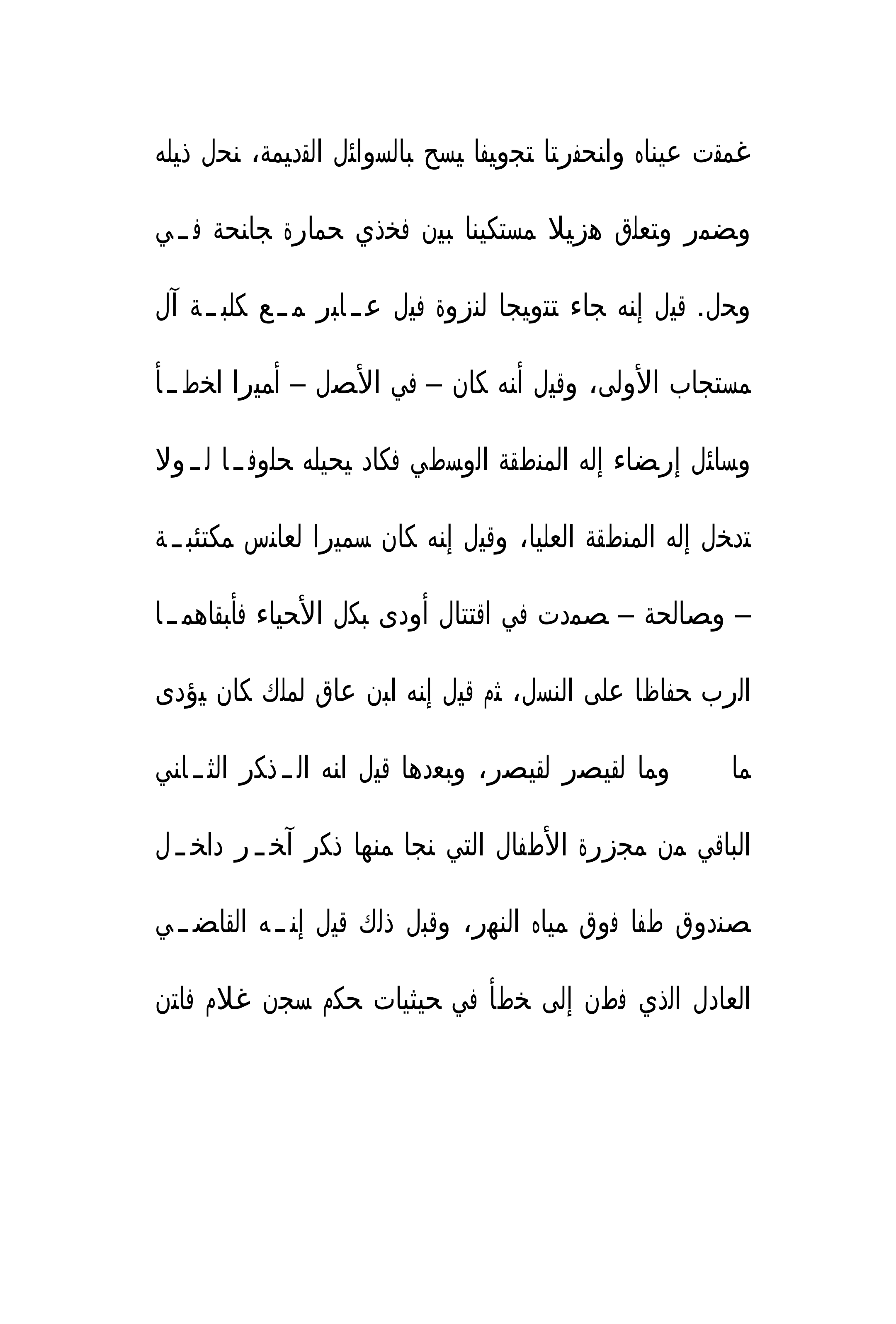
لكنى، وجدت نفسي أستعيد فروسيتي التي لم أمارسها، لأشترى الرهوان الذي لم يركبه أو يستخدمه أو يخدمه واحد من عائلتي وأستعد بارتداء ملابس فرسان قريتي ذات الخطوط الحريرية والتلفيحة الناعمة الأنيقة، لأتدرب على ركوبه بعض الوقت، ثم لم ألبث أن ابتلعت عنترة و " أبو زيد الهلالي " في جوفي لأجتاح بالرهوان المتراقص في كبرياء مخترقا شوارع القرية بالعرض، مستعرضا قدراتى الفائقة في إثارة الخوف، والمرح والرعب – والتعليقات بين الحوائط والساحات ومعمل الكتاكيت ومناطق المقابر، ثم لا ألبث في زهو مرهق يحتاج إلى راحة – أن أمسح على ظهر الرهوان في حب وأتوجه – أول الليل إلى قصور من كانوا العائلات العالية ذات أحقاب، أضحك وأشارك في المأكل



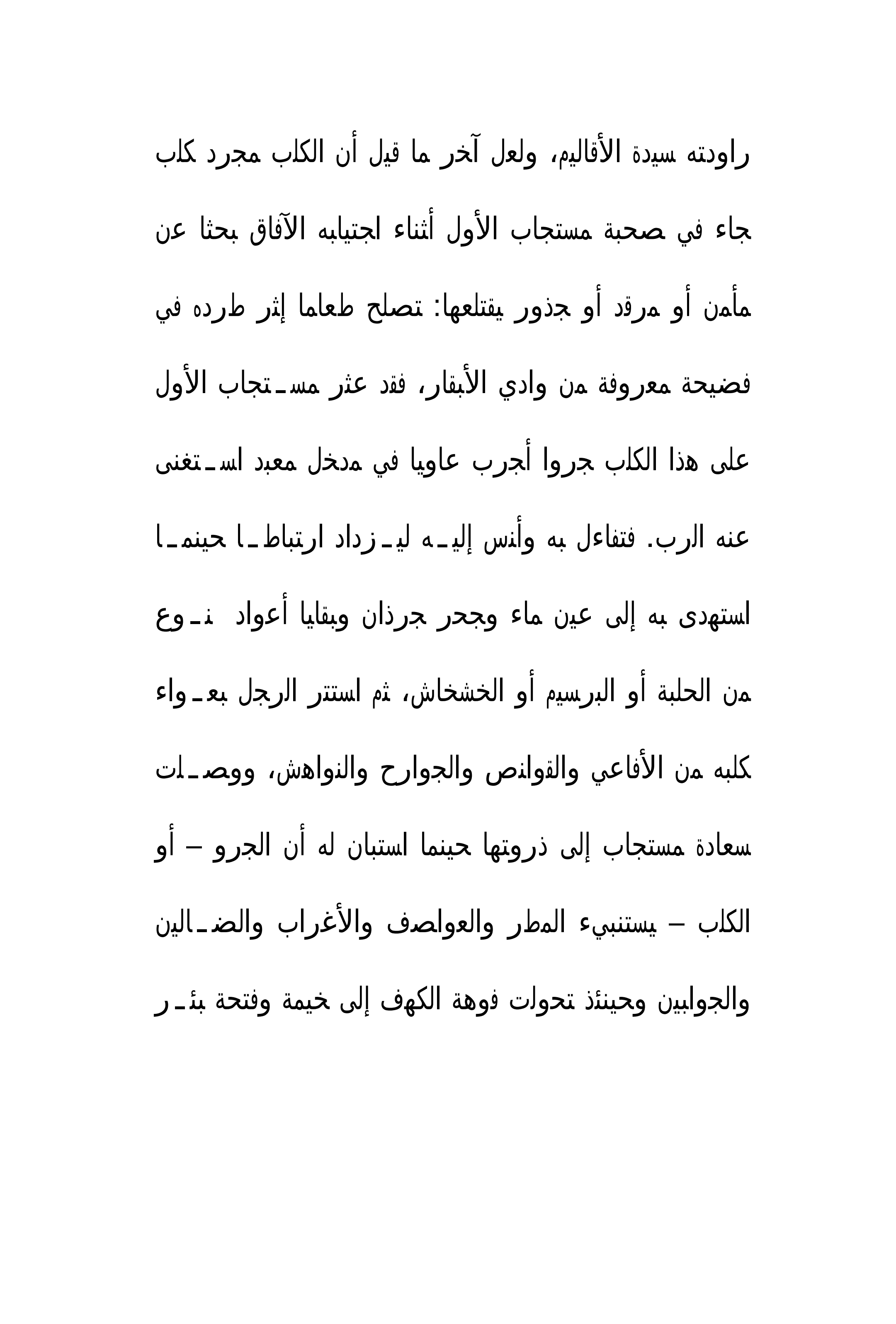
ومعابثه العواهر والغوازى، وعندما تصل النشوة إلـى أوج تألقها، يبدأ البعث الذي يسعدهم،ويسعدني وهـم يسـحبونني على الأرض من ملابسي – قد تكون الداخلية من أناس لـم يكن مسموحا لي أن أدخل بيوتهم ذات عصر.

كلاب آل مستجاب

وفي المعجم الوسيط: الكلاب حيوان أهلي من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم، يربي للصيد أو الجـر أو الحراسـة، وهكذا قفز كلاب آل مستجاب من فوق أسوار المعجم دونمـا صيد أو جر أو حراسة، قصـرت قوادمـه وتلبـد شـعره واستجمس جلده وكأنه قادم من جوف ليل طويـل تفلطحـت أذناه وانسدلتا تغطيان أصداغ هيكـل أو مـأتم أو مغـادرة،



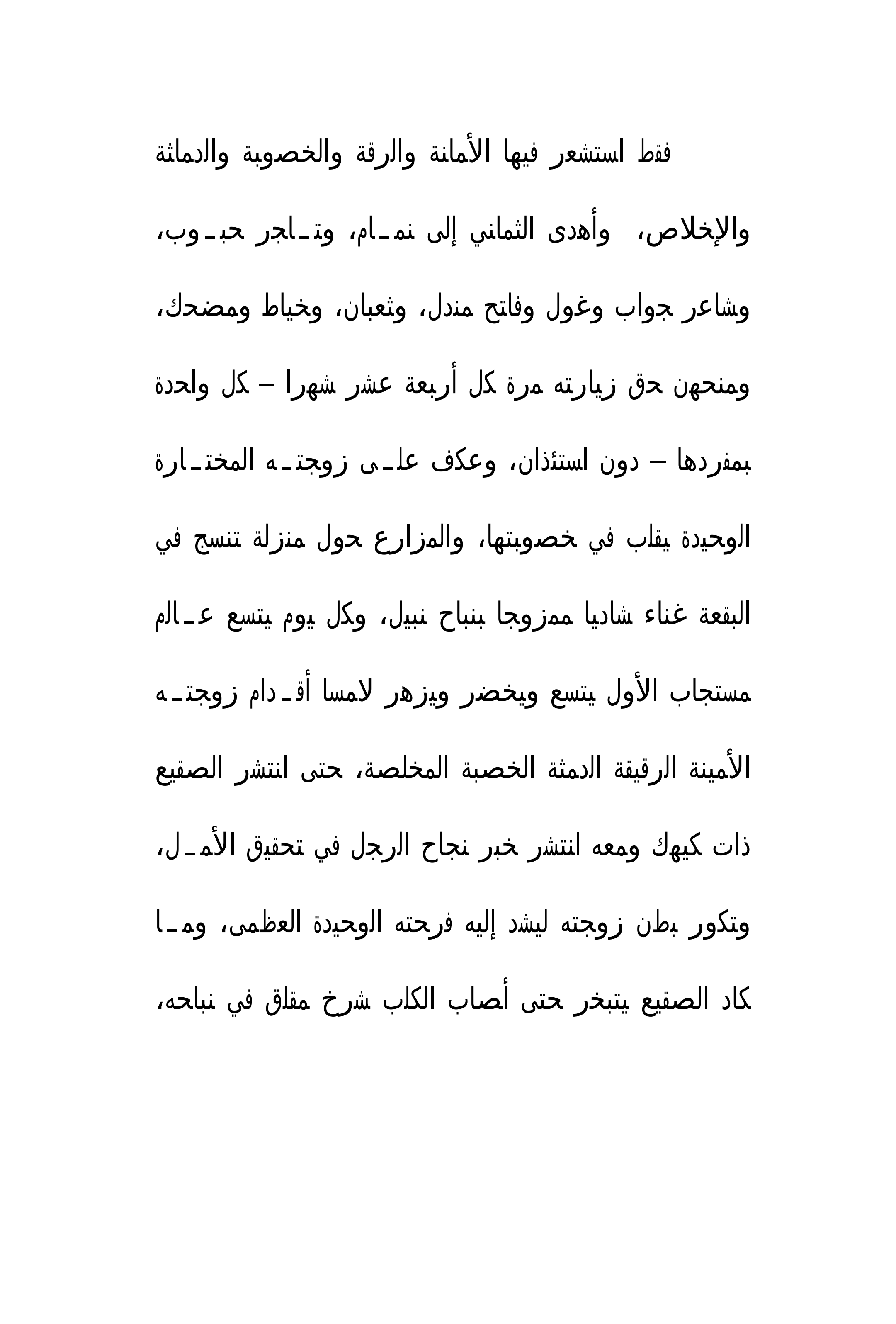
غمقت عيناه وانحفرتا تجويفا يسح بالسوائل القديمة، نحل ذيله وضمر وتعلق هزيلا مستكينا بين فخذي حمارة جانحة فـي وحل. قيل إنه جاء تتويجا لنزوة فيل عـابر مـع كلبـة آل مستجاب الأولى، وقيل أنه كان – في الأصل – أميرا اخطـأ وسائل إرضاء إله المنطقة الوسطي فكاد يحيله حلوفـا لـولا تدخل إله المنطقة العليا، وقيل إنه كان سميرا لعانس مكتئبـة – وصالحة – صمدت في اقتتال أودى بكل الأحياء فأبقاهمـا الرب حفاظا على النسل، ثم قيل إنه ابن عاق لملك كان يؤدى ما   وما لقيصر لقيصر، وبعدها قيل انه الـذكر الثـاني الباقي من مجزرة الأطفال التي نجا منها ذكر آخـر داخـل صندوق طفا فوق مياه النهر، وقبل ذلك قيل إنـه القاضـي العادل الذي فطن إلى خطأ في حيثيات حكم سجن غلام فاتن



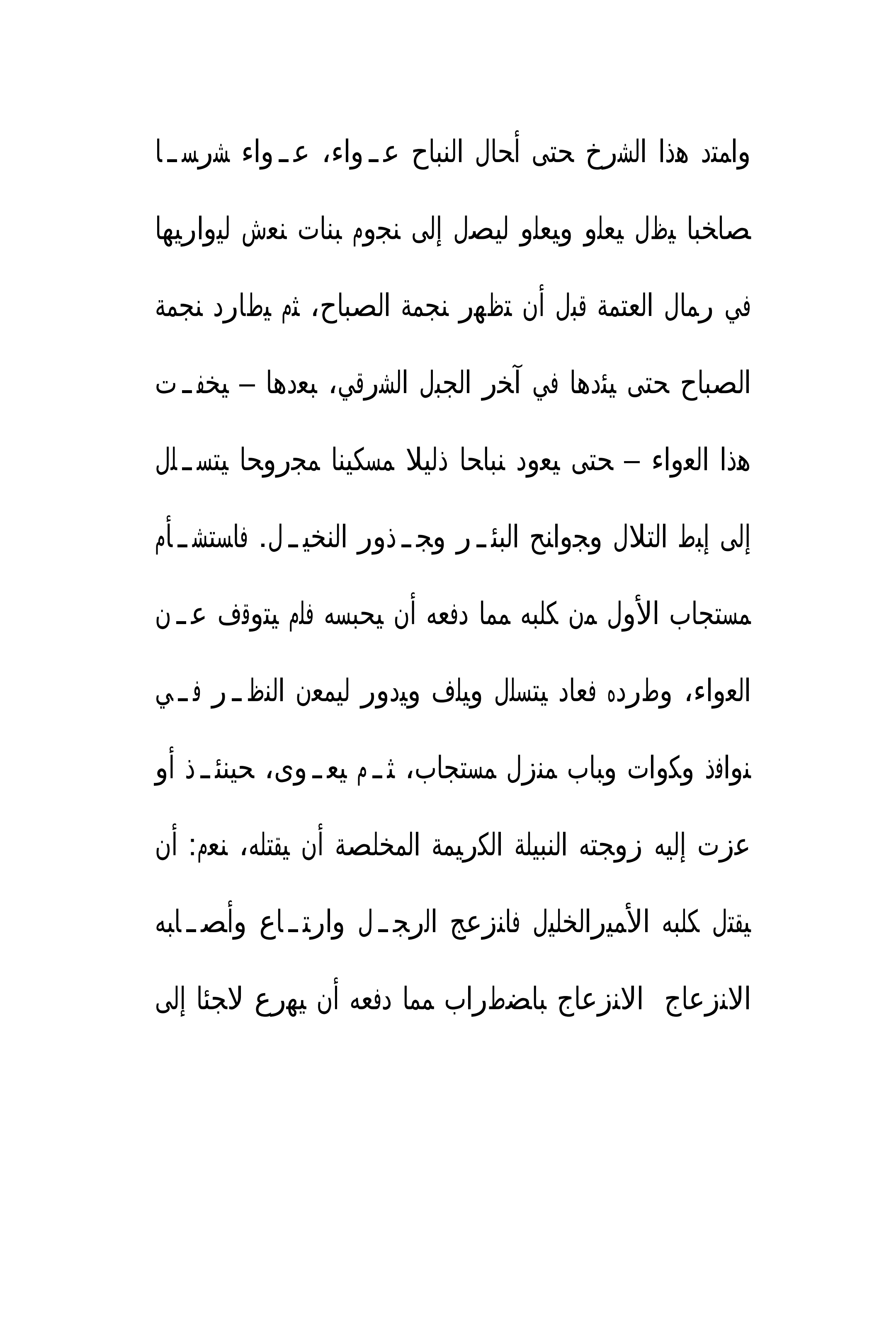
راودته سيدة الأقاليم، ولعل آخر ما قيل أن الكلاب مجرد كلاب جاء في صحبة مستجاب الأول أثناء اجتيابه الآفاق بحثا عن مأمن أو مرقد أو جذور يقتلعها: تصلح طعاما إثر طرده في فضيحة معروفة من وادي الأبقار، فقد عثر مسـتجاب الأول على هذا الكلاب جروا أجرب عاويا في مدخل معبد اسـتغنى عنه الرب. فتفاءل به وأنس إليـه ليـزداد ارتباطـا حينمـا استهدى به إلى عين ماء وجحر جرذان وبقايا أعواد نـوع من الحلبة أو البرسيم أو الخشخاش، ثم استتر الرجل بعـواء كلبه من الأفاعي والقوانص والجوارح والنواهش، ووصـلت سعادة مستجاب إلى ذروتها حينما استبان له أن الجرو – أو الكلاب – يستنبيء المطر والعواصف والأغراب والضـالين والجوابين وحينئذ تحولت فوهة الكهف إلى خيمة وفتحة بئـر

وحبوب حنطة وبر القمح، ثم إلى ماعز ولبن وعشة وفسائل نخل وبوادر حصرم الكروم.

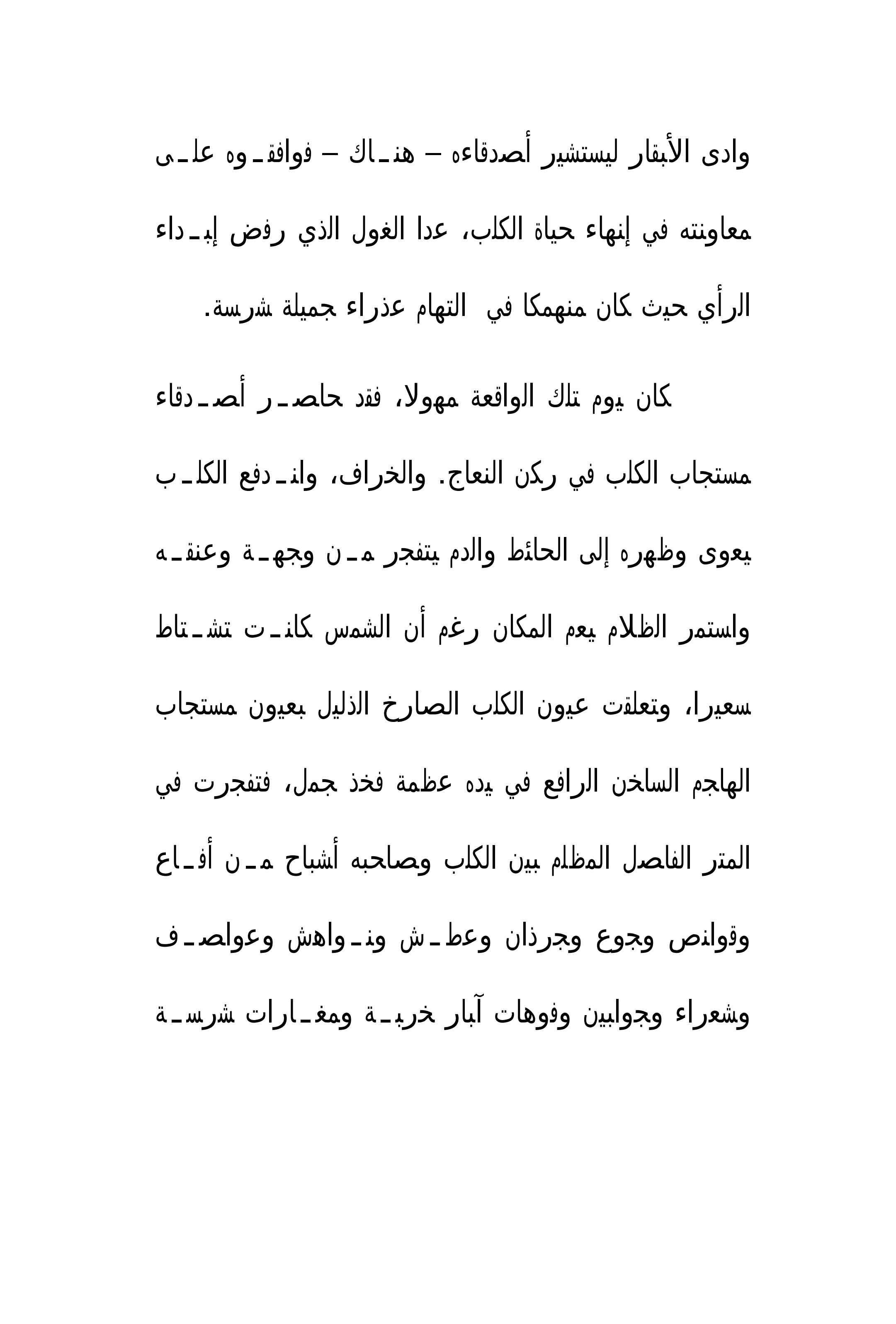
كان يمكن أن يستمر الأمر بالرجل وكلبه حتى ينتهيا إلى أن يقيم أحدهما حول عظام الآخر باكيا، ولـو لا تلـك الكارثة التي زلت الوادي فاهتزت بسببها الصـحراء، فقـد غضب الرب ذات مساء فاوعز للثوار أو يفرغوا القصـور من الجواري من اجل العدل، فقام العدل بإفراغ السجون من الجواري من اجل الثوار فامتلأت الصحارى والفيافي بالنسوة والهائمات كان نصيب رجلنا منهن تسعا، عاشرهن بمعروف وابتني بهن منزلا واستزرع أرضا واستنمي تكعيبة وارفـة من العنب، ثم استنسج بهن الوثير والمدفئ والهفهـاف، ثـم خاف ألا يعدل وسط كل ذلك الضجيج فاحتفظ بواحدة.



فقط استشعر فيها الأمانة والرقة والخصوبة والدماثة والإخلاص، وأهدى الثماني إلى نمـام، وتـاجر حبـوب، وشاعر جواب وغول وفاتح مندل، وثعبان، وخياط ومضحك، ومنحهن حق زيارته مرة كل أربعة عشر شهرا – كل واحدة بمفردها – دون استئذان، وعكف علـى زوجتـه المختـارة الوحيدة يقلب في خصوبتها، والمزارع حول منزلة تنسج في البقعة غناء شاديا ممزوجا بنباح نبيل، وكل يوم يتسع عـالم مستجاب الأول يتسع ويخضر ويزهر لامسا أقـدام زوجتـه الأمينة الرقيقة الدمثة الخصبة المخلصة، حتى انتشر الصقيع ذات كيهك ومعه انتشر خبر نجاح الرجل في تحقيق الأمـل، وتكور بطن زوجته ليشد إليه فرحته الوحيدة العظمى، ومـا كاد الصقيع يتبخر حتى أصاب الكلاب شرخ مقلق في نباحه،



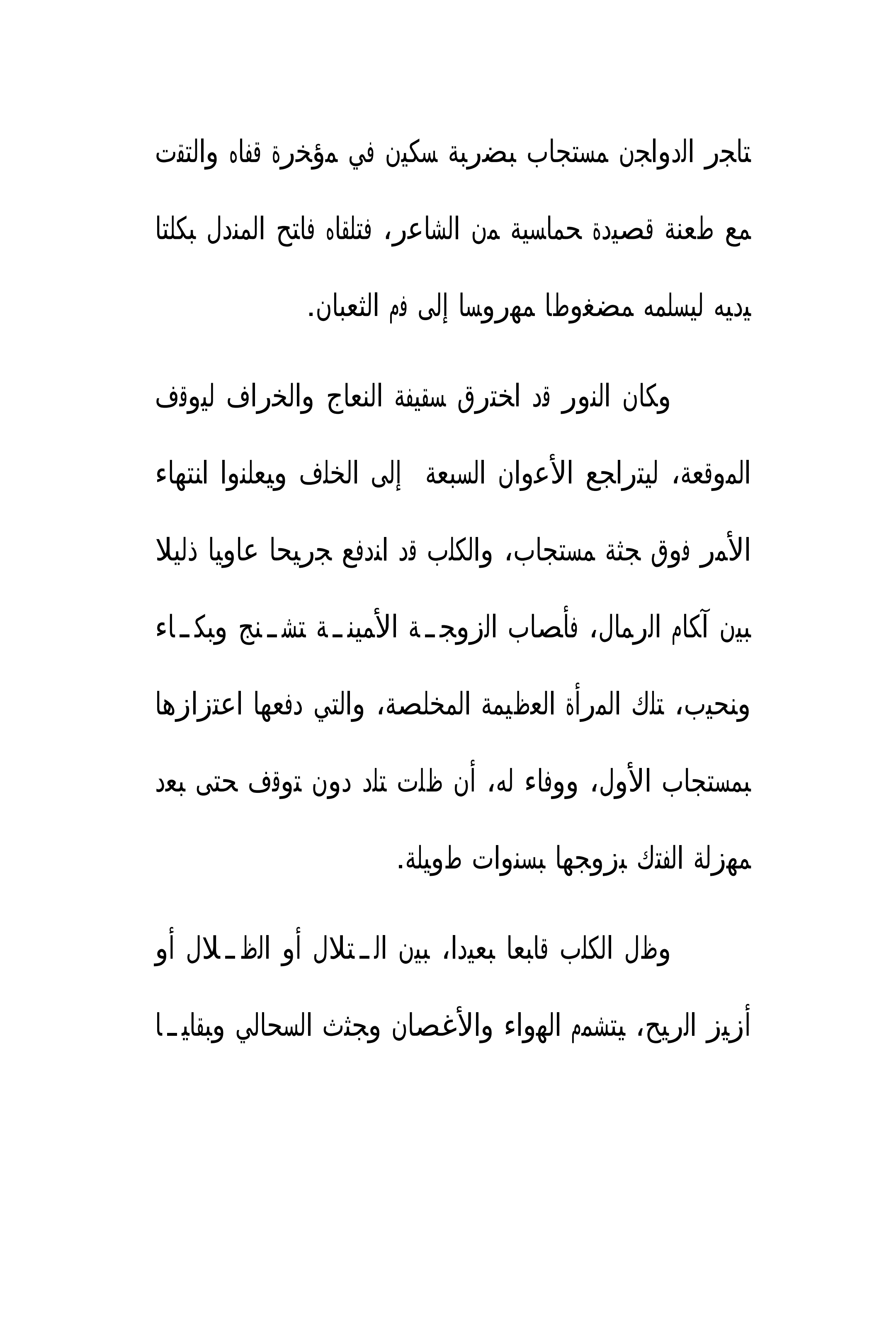
وامتد هذا الشرخ حتى أحال النباح عـواء، عـواء شرسـا صاخبا يظل يعلو ويعلو ليصل إلى نجوم بنات نعش ليواريها في رمال العتمة قبل أن تظهر نجمة الصباح، ثم يطارد نجمة الصباح حتى يئدها في آخر الجبل الشرقي، بعدها – يخفـت هذا العواء – حتى يعود نباحا ذليلا مسكينا مجروحا يتسـلل إلى إبط التلال وجوانح البئـر وجـذور النخيـل. فاستشـأم مستجاب الأول من كلبه مما دفعه أن يحبسه فلم يتوقف عـن العواء، وطرده فعاد يتسلل ويلف ويدور ليمعن النظـر فـي نوافذ وكوات وباب منزل مستجاب، ثـم يعـوى، حينئـذ أو عزت إليه زوجته النبيلة الكريمة المخلصة أن يقتله، نعم: أن يقتل كلبه الأميرالخليل فانزعج الرجـل وارتـاع وأصـابه الانزعاج الانزعاج باضطراب مما دفعه أن يهرع لاجئا إلى



وادى الأبقار ليستشير أصدقاءه – هنـاك – فوافقـوه علـى معاونته في إنهاء حياة الكلب، عدا الغول الذي رفض إبـداء الرأي حيث كان منهمكا في التهام عذراء جميلة شرسة.

كان يوم تلك الواقعة مهولا، فقد حاصـر أصـدقاء مستجاب الكلب في ركن النعاج. والخراف، واندفع الكلـب يعوى وظهره إلى الحائط والدم يتفجر مـن وجهـة وعنقـه واستمر الظلام يعم المكان رغم أن الشمس كانـت تشـتاط سعيرا، وتعلقت عيون الكلب الصارخ الذليل بعيون مستجاب الهاجم الساخن الرافع في يده عظمة فخذ جمل، فتفجرت في المتر الفاصل المظلم بين الكلب وصاحبه أشباح مـن أفـاع وقوانص وجوع وجرذان وعطـش ونـواهش وعواصـف وشعراء وجوابين وفوهات آبار خربـة ومغـارات شرسـة

ومعابد مهجورة، فانثنت ذراع الرجل القوية واستحالت إلـى فرع شجيرة تتقي الريح، لكن الأعوان كانوا قد قطعوا المتر الفاصل ليعاجل المضحك الكلب بضربة في الأنف طاشـت، وفي الرقبة بحجر من الخياط في الحائط تحطم،والعواء الذليل المشروخ ينشب أظفاره في أعصاب الكون ويداهم الشـقوق ومخازن التبن وجمار النخيـل وجمـر الكـانون ونـافوخ مستجاب، فانتفض الرجل مستعيدا قوته وذكرياته ليقف بـين الأعوان وبين الكلب، فيقفز الكلب قفزة عاوية تختـرق أذرع المهاجمين ذوى الوجوه المصممة الجامحة الشرسة، والتـاث مستجاب والقوم يصرخون في المحاولة الأخيـرة للإجهـاز على الكلب المتصادم مع السقف، فإذا بالقوم وجهـان لوجـه أمام مستجاب وإذا بمستجاب وجها لوجه أمام القوم، فعاجـل



تاجر الدواجن مستجاب بضربة سكين في مؤخرة قفاه والتقت مع طعنة قصيدة حماسية من الشاعر، فتلقاه فاتح المندل بكلتا يديه ليسلمه مضغوطا مهروسا إلى فم الثعبان.

وكان النور قد اخترق سقيفة النعاج والخراف ليوقف الموقعة، ليتراجع الأعوان السبعة إلى الخلف ويعلنوا انتهاء الأمر فوق جثة مستجاب، والكلاب قد اندفع جريحا عاويا ذليلا بين آكام الرمال، فأصاب الزوجـة الأمينـة تشـنج وبكـاء ونحيب، تلك المرأة العظيمة المخلصة، والتي دفعها اعتزازها بمستجاب الأول، ووفاء له، أن ظلت تلد دون توقف حتى بعد مهزلة الفتك بزوجها بسنوات طويلة.

وظل الكلب قابعا بعيدا، بين الـتلال أو الظـلال أو أزيز الريح، يتشمم الهواء والأغصان وجثث السحالي وبقايـا

قصائد الرثاء التي اعتاد أن تطلقها أم آل مستجاب في البكور (لوكا ن دمع العين يجيب حبيـب، كانـت عيـوني تكـب صديد)، (واللي بكيت أبكي كتير يانا،أروي جزيرتك تكون عطشانة)،

وكانت الشمس – في مثل هذه الظروف – تنـزوي في بوادر الأفق لينحني قرصها الواهن احتراما للشجن، حيث تكون آخر الخطوات قد ذابت لتصل الزوجـة إلـى فسـاقي زوجها العظيم مرة واحدة ذهبت إلى المقبرة – في أول موسم بمفردها، وفي العام التالي كان على صدرها أول مولـود – رضيع – شارك بموائه الرهيف الهزيل إيقاع النحيب لأمـه الباكية، وضعته في حنانها الغامر الحزين المتشـح بالأمـل الجديد فوق هامة المقبرة، والكلب يزوم بعيدا خشية أن تـراه

– أو تحس به المرأة المكلومة فتنهار على رأسـه قصـيدتها

(أشيل عينى في الجبل وأنوح، وإن صـابني ظلـم لمـين

أروح)؟؟، ولا سيما أن الزوجة الجريحة تدرك أن الكلاب هو

الوحيد المدرك لأسباب اغتيال الرجل العظيم الذي لم يـدرك

شيئا، غير أن المرأة عادت في الموسم التالي وقـد أصـبح

الرضيع طفلا يجرى متشبثا بأذيالها وقد حملت فوق صدرها

وليدها التالي،و قبل أن يستبين الكلاب – الكامن وراء الـتلال

– قصيدة النواح الجديدة، تسلل إلى ظهر المقبـرة خفـيض

الرأس يزوم في ذل مستكينا ليقدم اعتـذاره الحـزين، وقـد

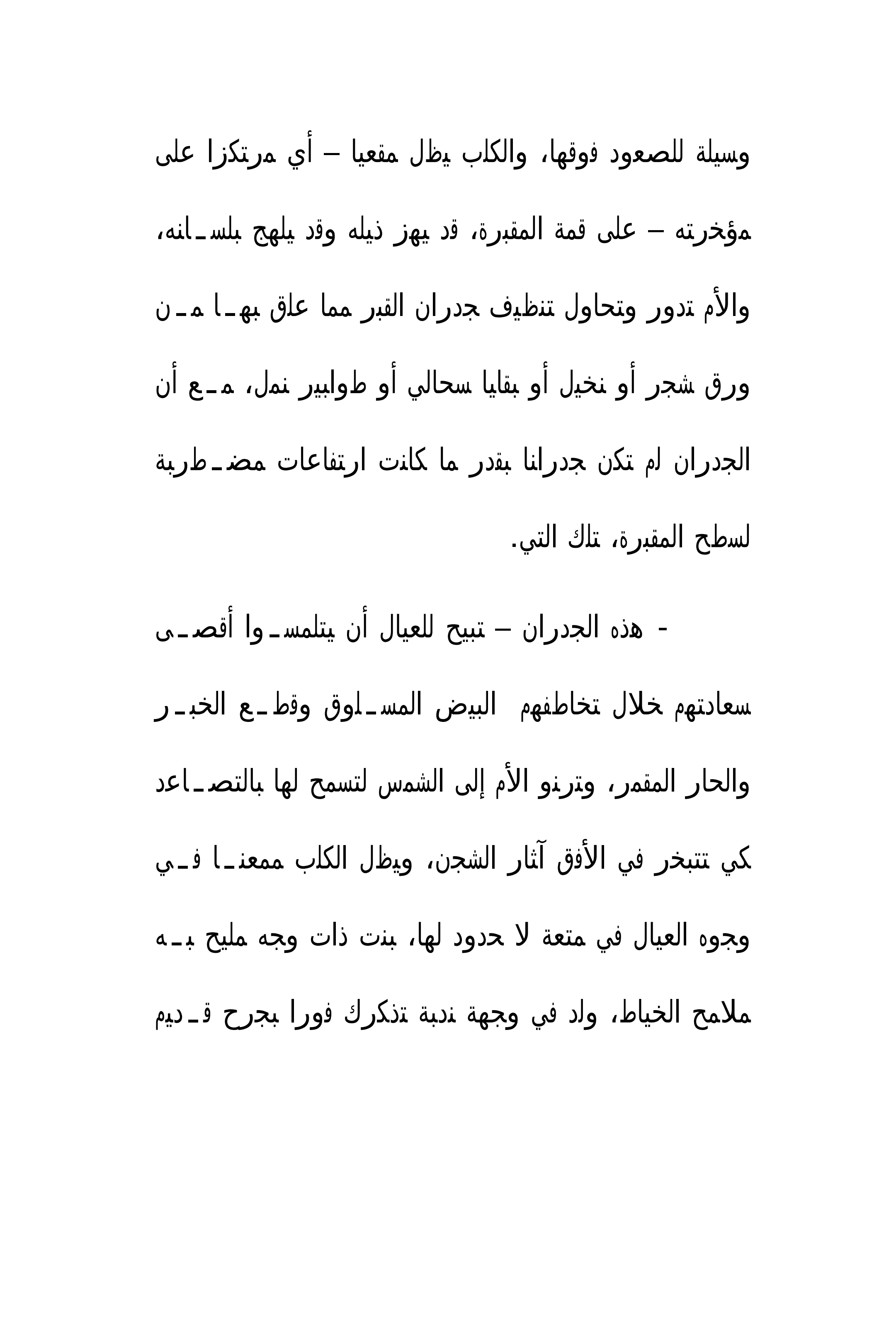
غمرت عيونه دموع بؤس الاختفاء، وما كاد الكلاب يلمح في

عيون أم آل مستجاب بقايا عتاب قديم حتـى توجـه إليهـا

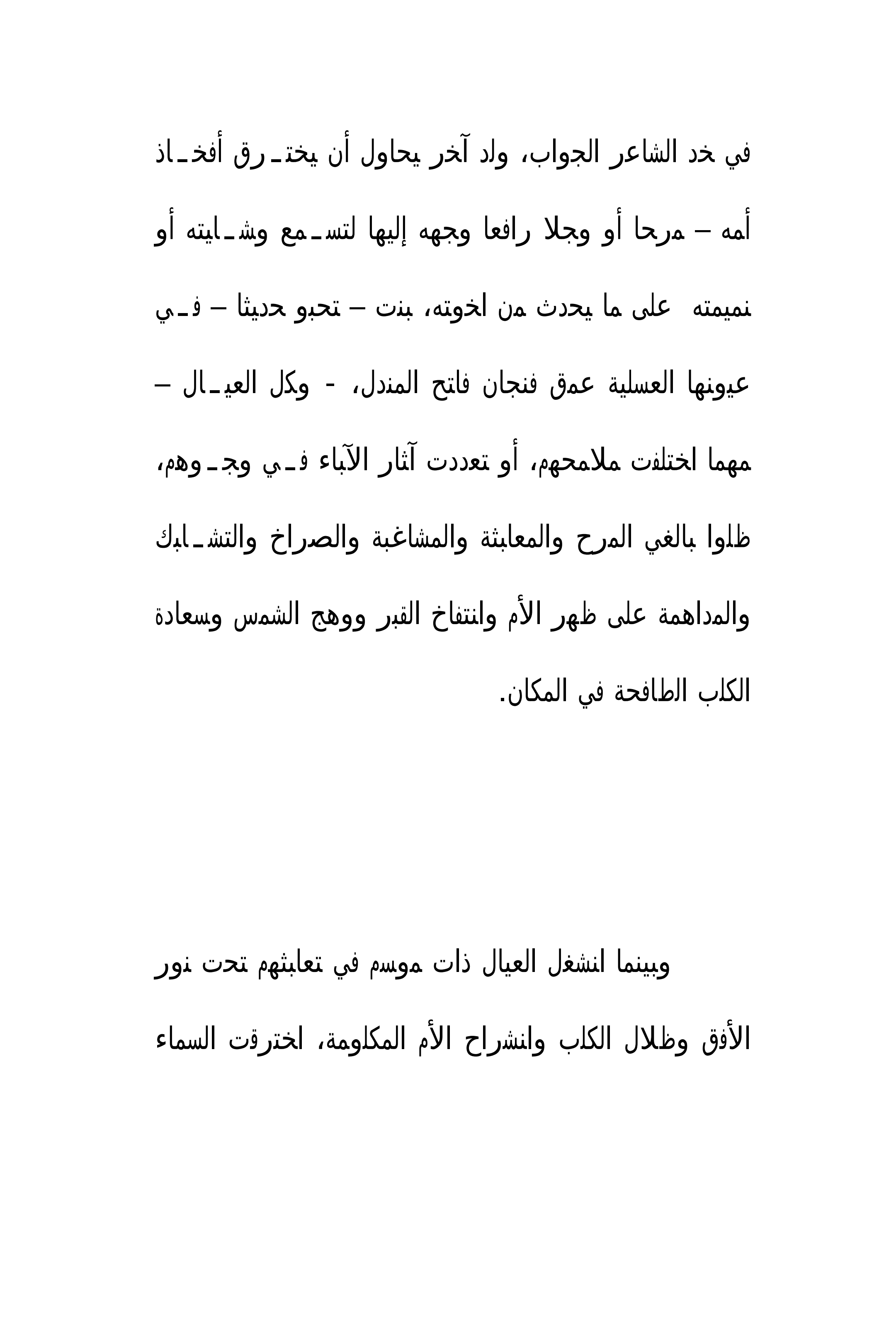
متشمما الأرض ثم أقدامها، ثم لم يلبث أن رقد بين قـدميها،

ليمتص – بهذا الرقاد – إجفال ولدها، ذلك الذي أسرع بعيدا، وبعدها عاد ليعابث الكلاب ذا الذيل المهتز سعادة واعتزاز.

وخلال أحقاب تالية لم يتغير هـذه المشـهد المبكـر كثيرا، فقط ازداد عدد الأطفال – والعيال – حول أمهم فـي زيارتها كل موسم لقبر زوجهـا، وتعـددت – وتنوعـت – قصائد النواح لتدخلها عناصر من القمح والبلح واللبن والزبد والقمر والورد وقلل الماء (اتنـين وراه واتنـين قدامـه، والقمح يقول للبلح لاعبوه في حزامه) يا بنات الحور يا زينة العرشة، جاكم حبيبي ينور الفرشة)، حتى أن الأمر وصـل إلى أن بعض العيال – خلال ظروف الرغبة الطفوليـة فـي المرح – خرجوا على الجو الحزين بالتماسك والتقافز، واللف حول مقبرة هذا الذي أصبح أباهم وهم أنجاله كـي يجـدوا

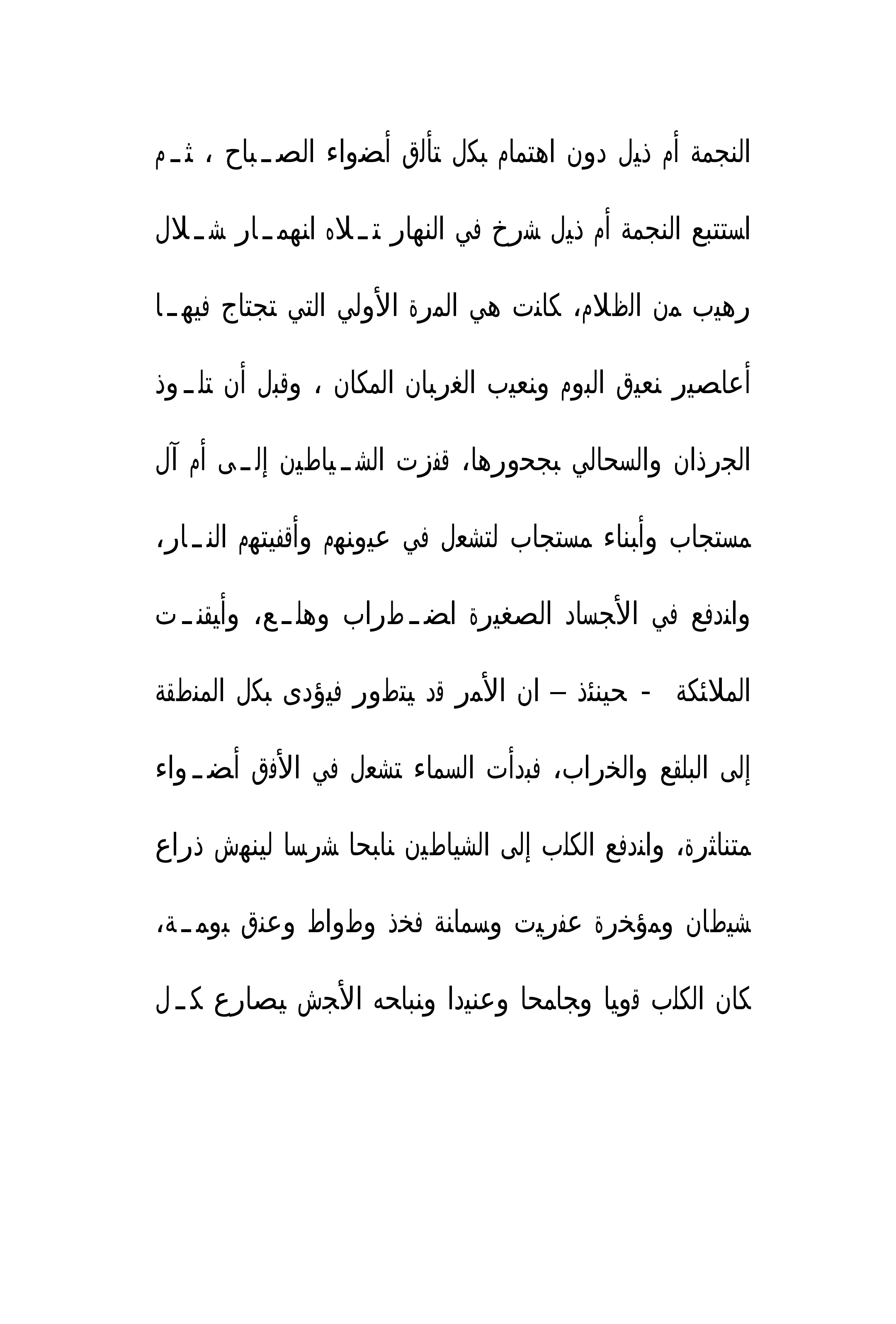

وسيلة للصعود فوقها، والكلاب يظل مقعيا – أي مرتكزا على مؤخرته – على قمة المقبرة، قد يهز ذيله وقد يلهج بلسـانه، والأم تدور وتحاول تنظيف جدران القبر مما علق بهـا مـن ورق شجر أو نخيل أو بقايا سحالي أو طوابير نمل، مـع أن الجدران لم تكن جدرانا بقدر ما كانت ارتفاعات مضـطربة لسطح المقبرة، تلك التي.

- هذه الجدران – تبيح للعيال أن يتلمسـوا أقصـى سعادتهم خلال تخاطفهم البيض المسـلوق وقطـع الخبـز والحار المقمر، وترنو الأم إلى الشمس لتسمح لها بالتصـاعد كي تتبخر في الأفق آثار الشجن، ويظل الكلاب ممعنـا فـي وجوه العيال في متعة لا حدود لها، بنت ذات وجه مليح بـه ملامح الخياط، ولد في وجهة ندبة تذكرك فورا بجرح قـديم

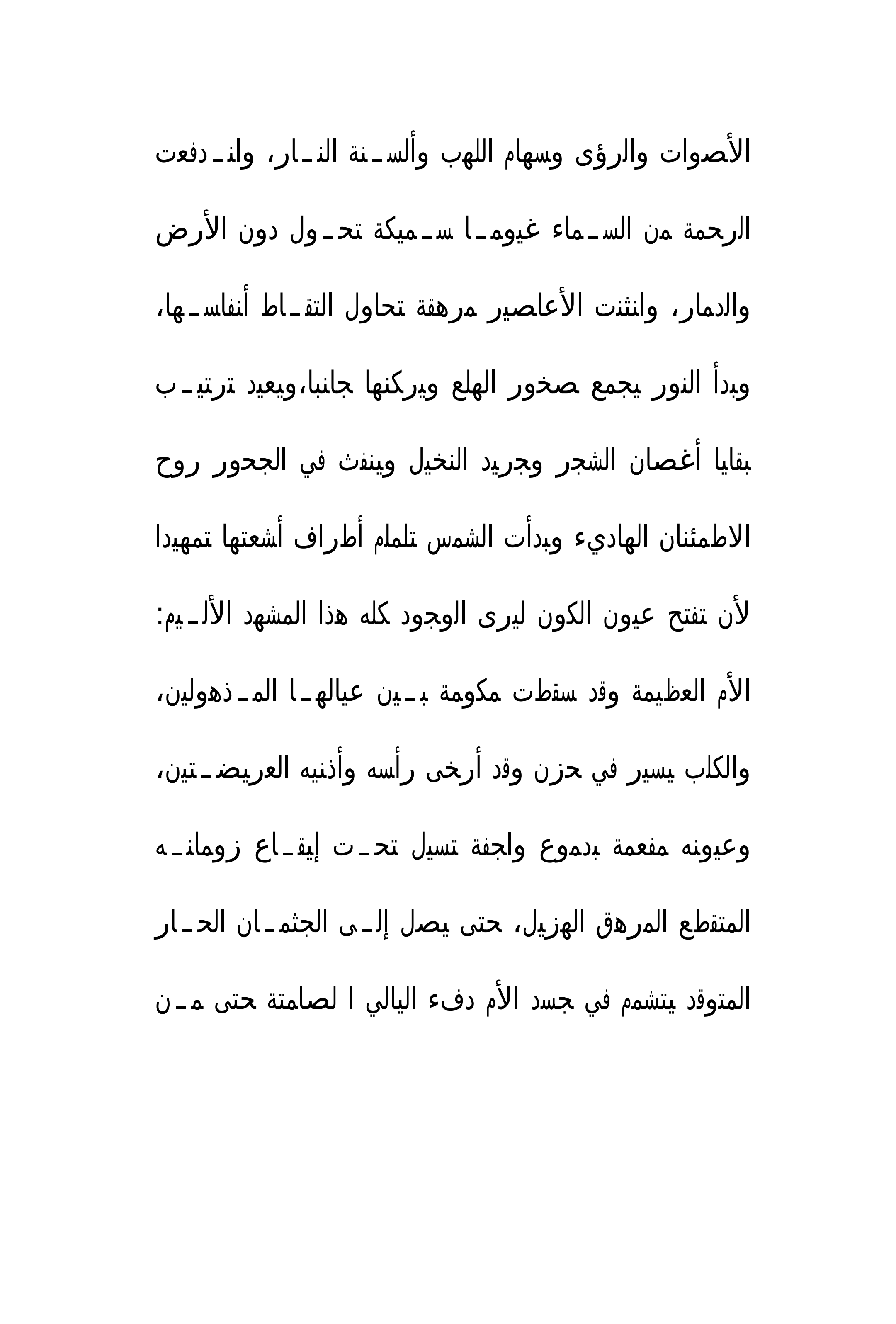


في خد الشاعر الجواب، ولد آخر يحاول أن يخترق أفخاذ أمه – مرحا أو وجلا رافعا وجهه إليها لتسمع وشايته أو نميمته على ما يحدث من اخوته، بنت – تحبو حديثا – في عيونها العسلية عمق فنجان فاتح المندل، - وكل العيال – مهما اختلفت ملامحهم، أو تعددت آثار الآباء في وجوهم، ظلوا بالغي المرح والمعابثة والمشاغبة والصراخ والتشابك والمداهمة على ظهر الأم وانتفاخ القبر ووهج الشمس وسعادة الكلب الطافحة في المكان.

وبينما انشغل العيال ذات موسم في تعابثهم تحت نور الأفق وظلال الكلب وانشراح الأم المكلومة، اخترقت السماء



النجمة أم ذيل دون اهتمام بكل تألق أضواء الصـباح ، ثـم استتبع النجمة أم ذيل شرخ في النهار تـلاه انهمـار شـلال رهيب من الظلام، كانت هي المرة الأولي التي تجتاج فيهـا أعاصير نعيق البوم ونعيب الغربان المكان ، وقبل أن تلـوذ الجرذان والسحالي بجحورها، قفزت الشـياطين إلـى أم آل مستجاب وأبناء مستجاب لتشعل في عيونهم وأقفيتهم النـار، واندفع في الأجساد الصغيرة اضـطراب وهلـع، وأيقنـت الملائكة - حينئذ – ان الأمر قد يتطور فيؤدى بكل المنطقة إلى البلقع والخراب، فبدأت السماء تشعل في الأفق أضـواء متناثرة، واندفع الكلب إلى الشياطين نابحا شرسا لينهش ذراع شيطان ومؤخرة عفريت وسمانة فخذ وطواط وعنق بومـة، كان الكلب قويا وجامحا وعنيدا ونباحه الأجش يصارع كـل



الأصوات والرؤى وسهام اللهب وألسـنة النـار، وانـدفعت

الرحمة من السـماء غيومـا سـميكة تحـول دون الأرض

والدمار، وانثنت الأعاصير مرهقة تحاول التقـاط أنفاسـها،

وبدأ النور يجمع صخور الهلع ويركنها جانبا،ويعيد ترتيـب

بقايا أغصان الشجر وجريد النخيل وينفث في الجحور روح

الاطمئنان الهاديء وبدأت الشمس تلملم أطراف أشعتها تمهيدا

لأن تفتح عيون الكون ليرى الوجود كله هذا المشهد الألـيم:

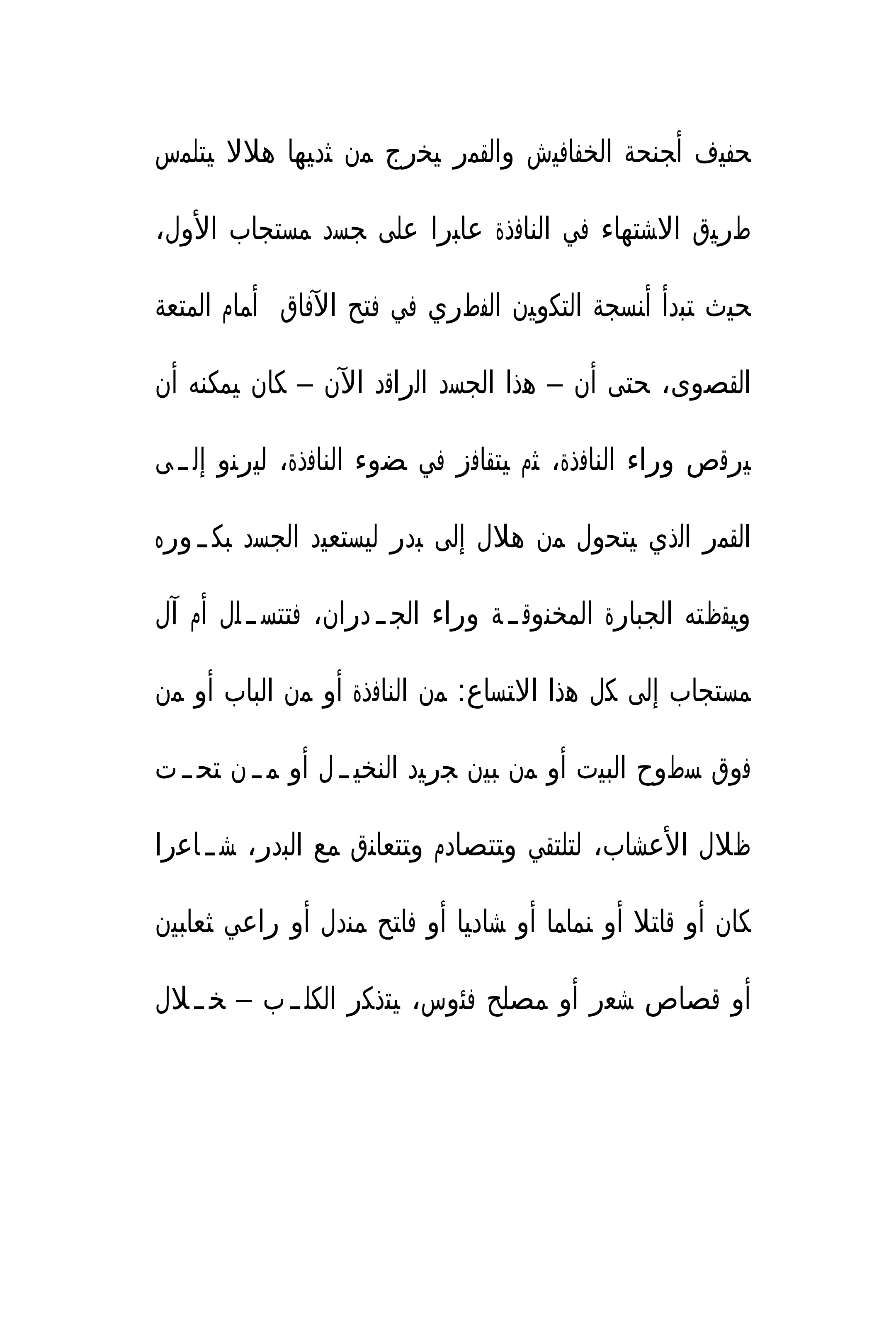
الأم العظيمة وقد سقطت مكومة بـين عيالهـا المـذهولين،

والكلب يسير في حزن وقد أرخى رأسه وأذنيه العريضـتين،

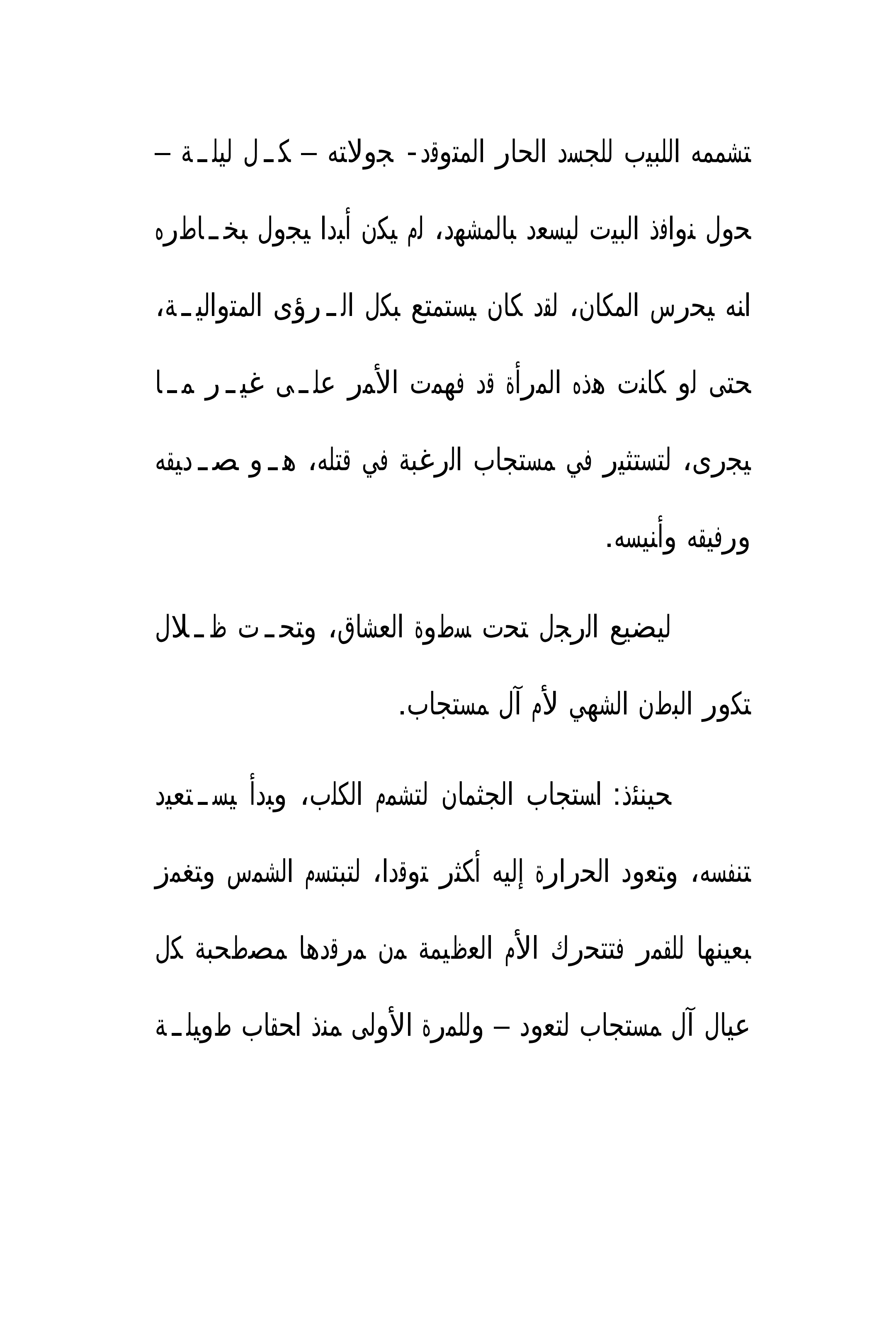
وعيونه مفعمة بدموع واجفة تسيل تحـت إيقـاع زومانـه

المتقطع المرهق الهزيل، حتى يصل إلـى الجثمـان الحـار

المتوقد يتشمم في جسد الأم دفء الليالي ا لصامتة حتى مـن



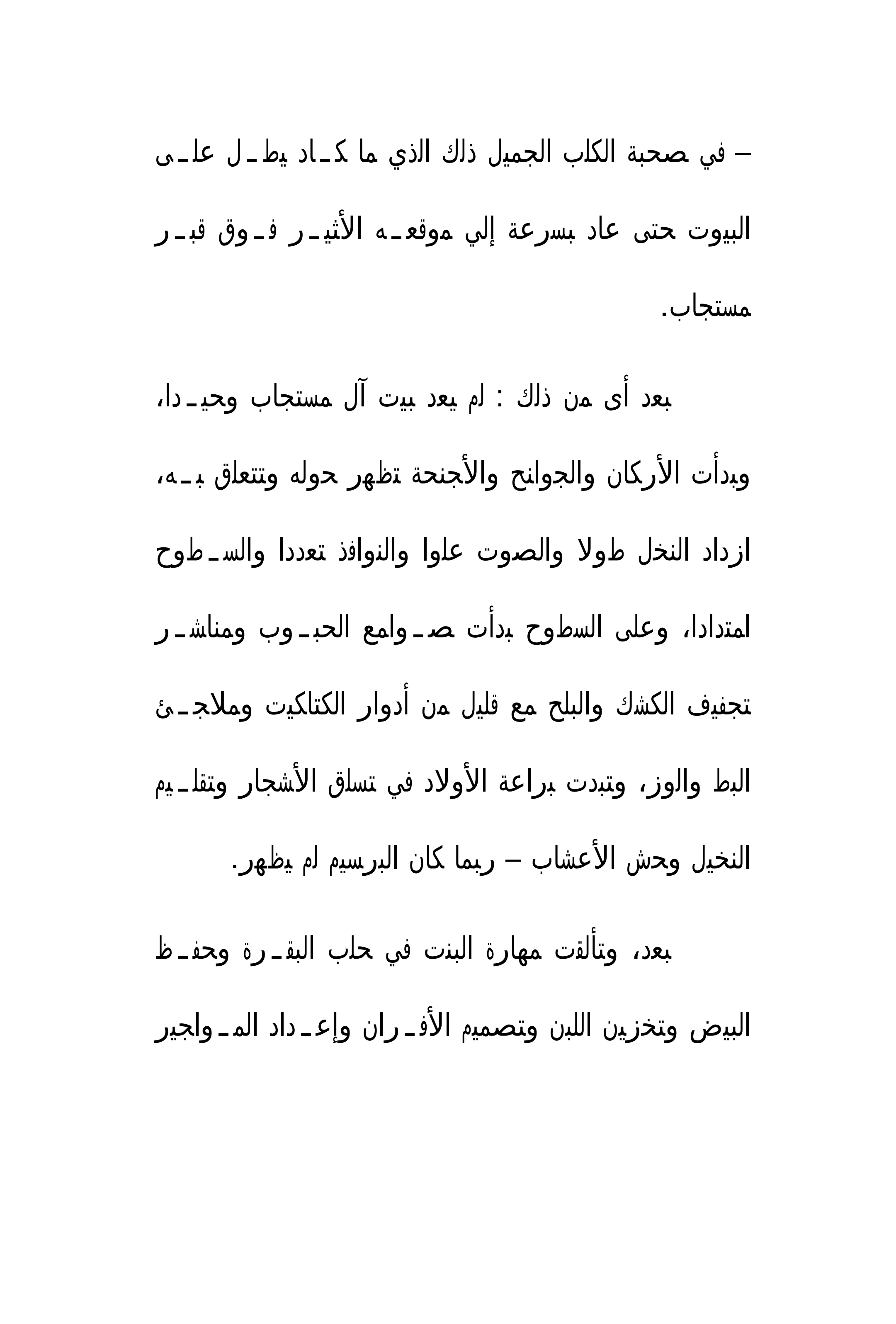
حفيف أجنحة الخفافيش والقمر يخرج من ثديها هلالا يتلمس طريق الاشتهاء في النافذة عابرا على جسد مستجاب الأول، حيث تبدأ أنسجة التكوين الفطري في فتح الآفاق أمام المتعة القصوى، حتى أن – هذا الجسد الراقد الآن – كان يمكنه أن يرقص وراء النافذة، ثم يتقافز في ضوء النافذة، ليرنو إلـى القمر الذي يتحول من هلال إلى بدر ليستعيد الجسد بكـوره ويقظته الجبارة المخنوقـة وراء الجـدران، فتتسـائل أم آل مستجاب إلى كل هذا الاتساع: من النافذة أو من الباب أو من فوق سطوح البيت أو من بين جريد النخيـل أو مـن تحـت ظلال الأعشاب، لتلتقي وتتصادم وتتعانق مع البدر، شـاعرا كان أو قاتلا أو نماما أو شاديا أو فاتح مندل أو راعي ثعابين أو قصاص شعر أو مصلح فئوس، يتذكر الكلـب – خـلال



تشممه اللبيب للجسد الحار المتوقد- جولاته – كـل ليلـة – حول نوافذ البيت ليسعد بالمشهد، لم يكن أبدا يجول بخـاطره انه يحرس المكان، لقد كان يستمتع بكل الـرؤى المتواليـة، حتى لو كانت هذه المرأة قد فهمت الأمر علـى غيـر مـا يجرى، لتستثير في مستجاب الرغبة في قتله، هـو صـديقه ورفيقه وأنيسه.

ليضيع الرجل تحت سطوة العشاق، وتحـت ظـلال تكور البطن الشهي لأم آل مستجاب.

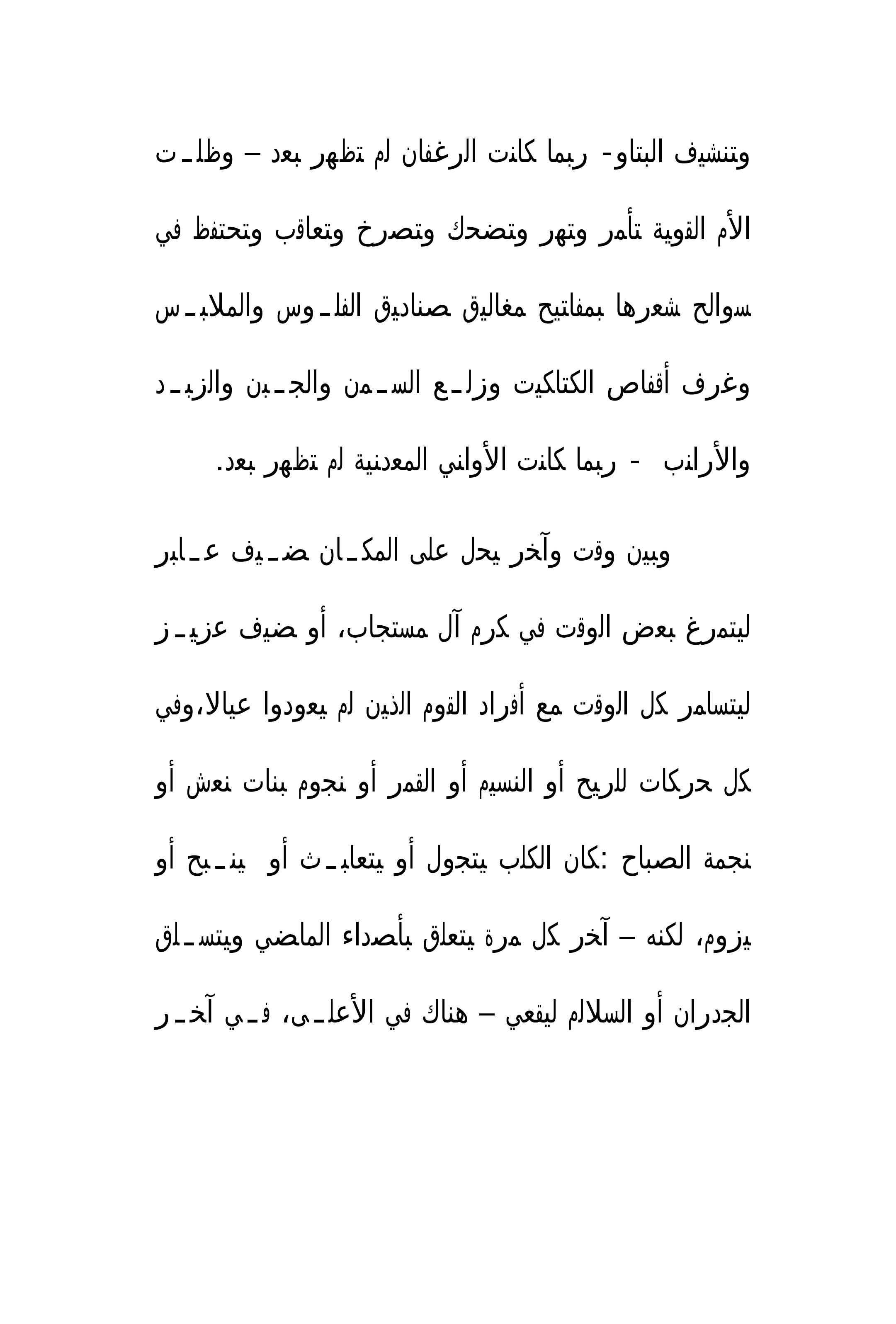
حينئذ: استجاب الجثمان لتشمم الكاب، وبدأ يسـتعيد تنفسه، وتعود الحرارة إليه أكثر توقدا، لتبتسم الشمس وتغمز بعينها للقمر فتتحرك الأم العظيمة من مرقدها مصطحبة كل عيال آل مستجاب لتعود – وللمرة الأولى منذ احقاب طويلـة



– في صحبة الكلب الجميل ذلك الذي ما كـاد يطـل علـى البيوت حتى عاد بسرعة إلي موقعـه الأثيـر فـوق قبـر مستجاب.

بعد أى من ذلك : لم يعد بيت آل مستجاب وحيـدا، وبدأت الأركان والجوانح والأجنحة تظهر حوله وتتعلق بـه، ازداد النخل طولا والصوت علوا والنوافذ تعددا والسـطوح امتدادا، وعلى السطوح بدأت صـوامع الحبـوب ومناشـر تجفيف الكشك والبلح مع قليل من أدوار الكتاكيت وملاجـئ البط والوز، وتبدت براعة الأولاد في تسلق الأشجار وتقلـيم النخيل وحش الأعشاب – ربما كان البرسيم لم يظهر.

بعد، وتألقت مهارة البنت في حلب البقـرة وحفـظ البيض وتخزين اللبن وتصميم الأفـران وإعـداد المـواجير


وتنشيف البتاو- ربما كانت الرغفان لم تظهر بعد – وظلـت الأم القوية تأمر وتهر وتضحك وتصرخ وتعاقب وتحتفظ في سوالح شعرها بمفاتيح مغاليق صناديق الفلـوس والملابـس وغرف أقفاص الكتاكيت وزلـع السـمن والجـبن والزبـد والأرانب - ربما كانت الأواني المعدنية لم تظهر بعد.

وبين وقت وآخر يحل على المكـان ضـيف عـابر ليتمرغ بعض الوقت في كرم آل مستجاب، أو ضيف عزيـز ليتسامر كل الوقت مع أفراد القوم الذين لم يعودوا عيالا،وفي كل حركات للريح أو النسيم أو القمر أو نجوم بنات نعش أو نجمة الصباح :كان الكلب يتجول أو يتعابـث أو ينـبح أو يزوم، لكنه – آخر كل مرة يتعلق بأصداء الماضي ويتسـلق الجدران أو السلالم ليقعي – هناك في الأعلـى، فـي آخـر

الأعلي، يظل في إقعائه فوق المقبرة يمعن في حدود الآفـاق

حتى يأذن له الظلام أن ينام لحين هبوط اللحظات السـاحرة

بعد منتصف الليل إنه السحر،حينذاك يهز الكلب رأسه وذيله

مستعيدا نشاطه فتنتبه الديوك لبداية عوائه لتشـاركه اليقظـة

بتبادل الصياح والكاكات والنباح، إن اختراق الأصوات هـذه

المسافة بين البيوت وقبر مستجاب يصنع في الدنيا صـباحا

غير أى صباح على كـل مسـطحات الكـون ، حتـى أن

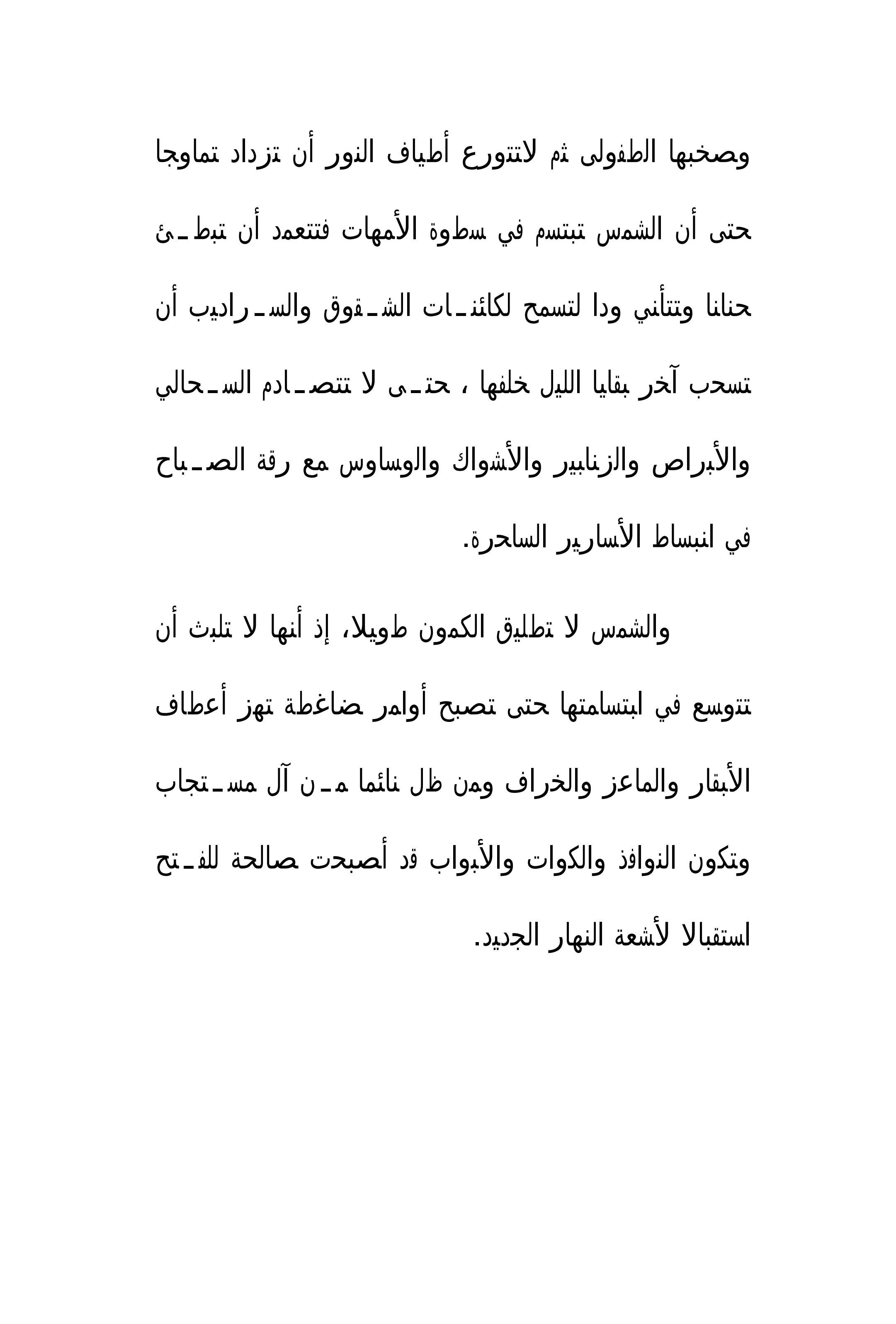
العصافير والزهور والزرازير واليمام تتلقف التراتيل فتتمايل

وتتراقص طاردة وسن الليـل، ثـم لا تلبـث أن أن يغـدق

الامتزاج على عروقها ذلك النشاط الساخن لتبـدأ أجسـادها

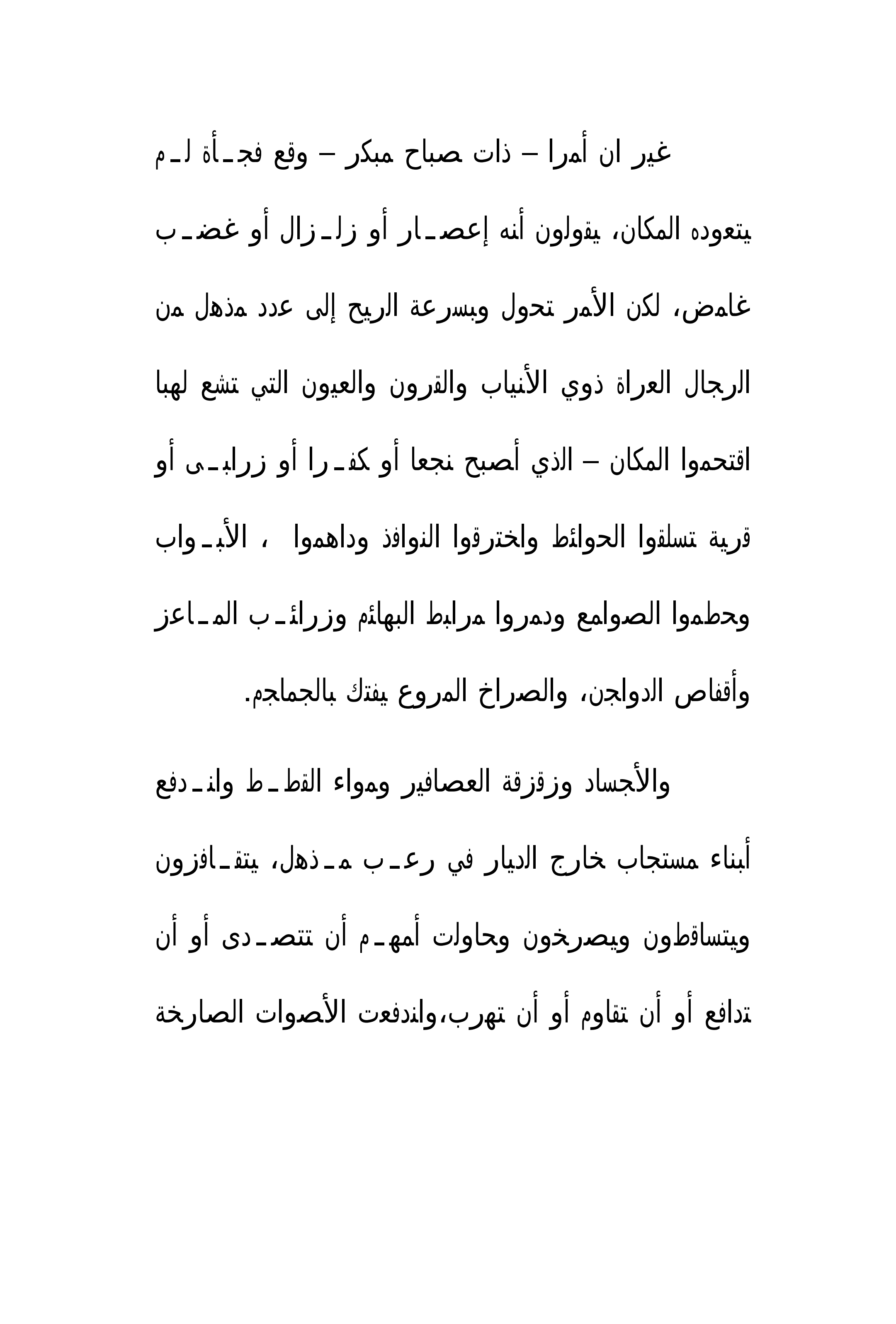
انتفاضها الشرس الناعم الذي يحرك الكون ليصبح سـماءها

ونسيمها ومتعتها وزقزقتهـا وحركـة أجنحتهـا ورائحتهـا



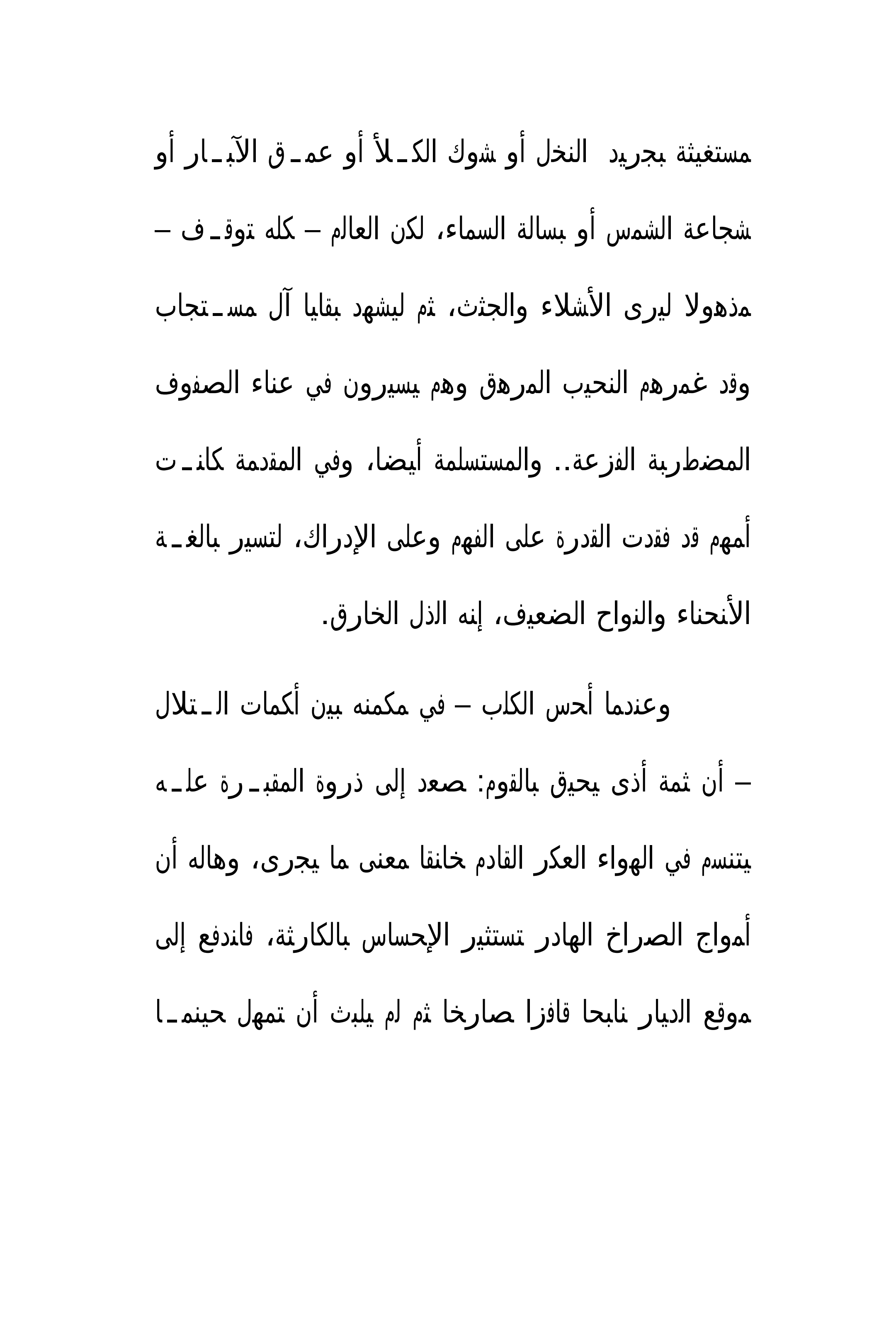
وصخبها الطفولى ثم لاتتورع أطياف النور أن تزداد تماوجا حتى أن الشمس تبتسم في سطوة الأمهات فتتعمد أن تبطـئ حنانا وتتأني ودا لتسمح لكائنـات الشـقوق والسـراديب أن تسحب آخر بقايا الليل خلفها ، حتـى لا تتصـادم السـحالي والأبراص والزنابير والأشواك والوساوس مع رقة الصـباح في انبساط الأسارير الساحرة.

والشمس لا تطيق الكمون طويلا، إذ أنها لا تلبث أن تتوسع في ابتسامتها حتى تصبح أوامر ضاغطة تهز أعطاف الأبقار والماعز والخراف ومن ظل نائما مـن آل مسـتجاب وتكون النوافذ والكوات والأبواب قد أصبحت صالحة للفـتح استقبالا لأشعة النهار الجديد.



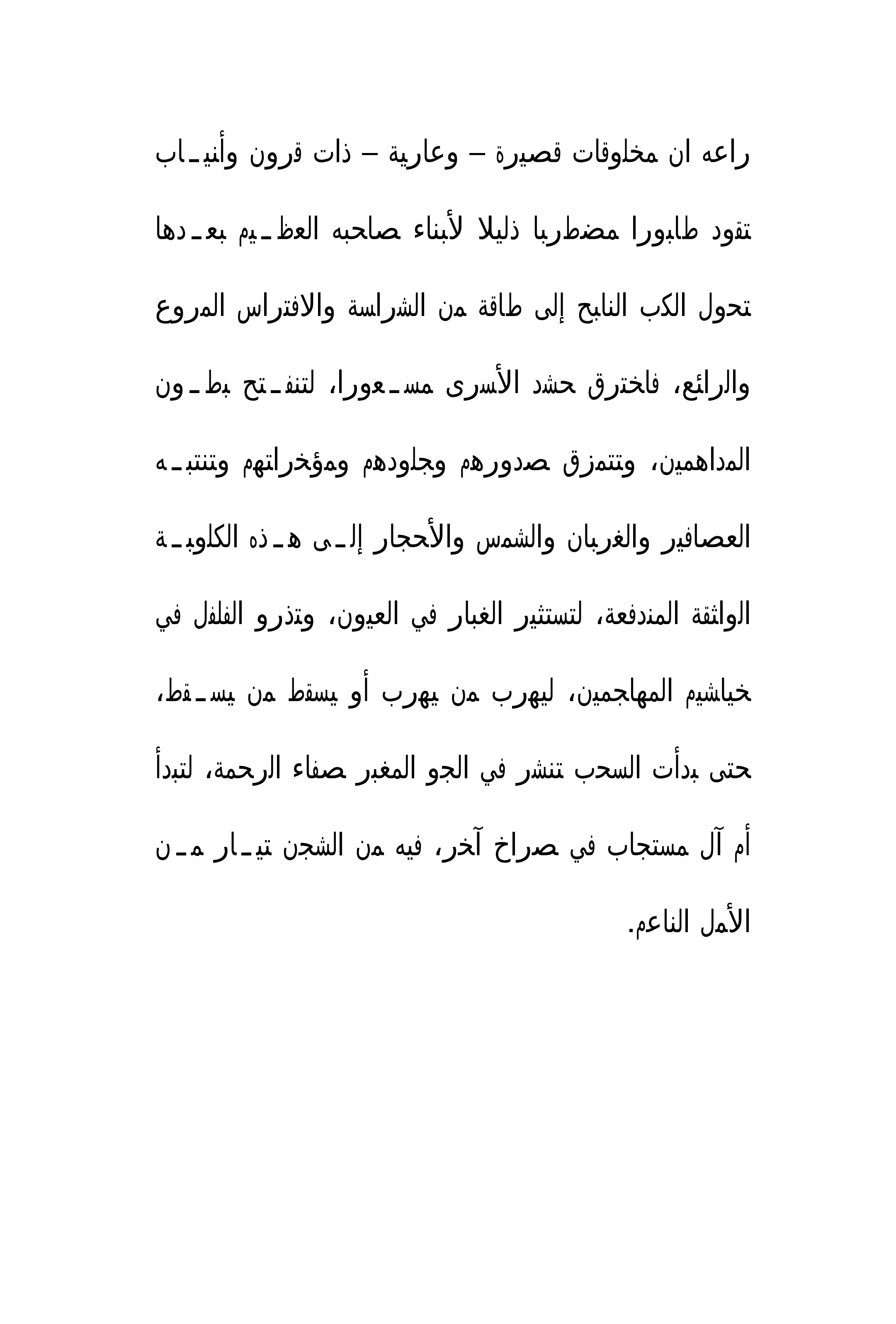
غير ان أمرا – ذات صباح مبكر – وقع فجأة لم يتعوده المكان، يقولون أنه إعصار أو زلزال أو غضب غامض، لكن الأمر تحول وبسرعة الريح إلى عدد مذهل من الرجال العراة ذوي الأنياب والقرون والعيون التي تشع لهبا اقتحموا المكان – الذي أصبح نجعا أو كفرا أو زرابى أو قرية تسلقوا الحوائط واخترقوا النوافذ وداهموا ، الأبواب وحطموا الصوامع ودمروا مرابط البهائم وزرائب الماعز وأقفاص الدواجن، والصراخ المروع يفتك بالجماجم.

والأجساد وزقزقة العصافير ومواء القطط واندفع أبناء مستجاب خارج الديار في رعب مذهل، يتقافزون ويتساقطون ويصرخون وحاولت أمهم أن تتصدى أو أن تدافع أو أن تقاوم أو أن تهرب،واندفعت الأصوات الصارخة

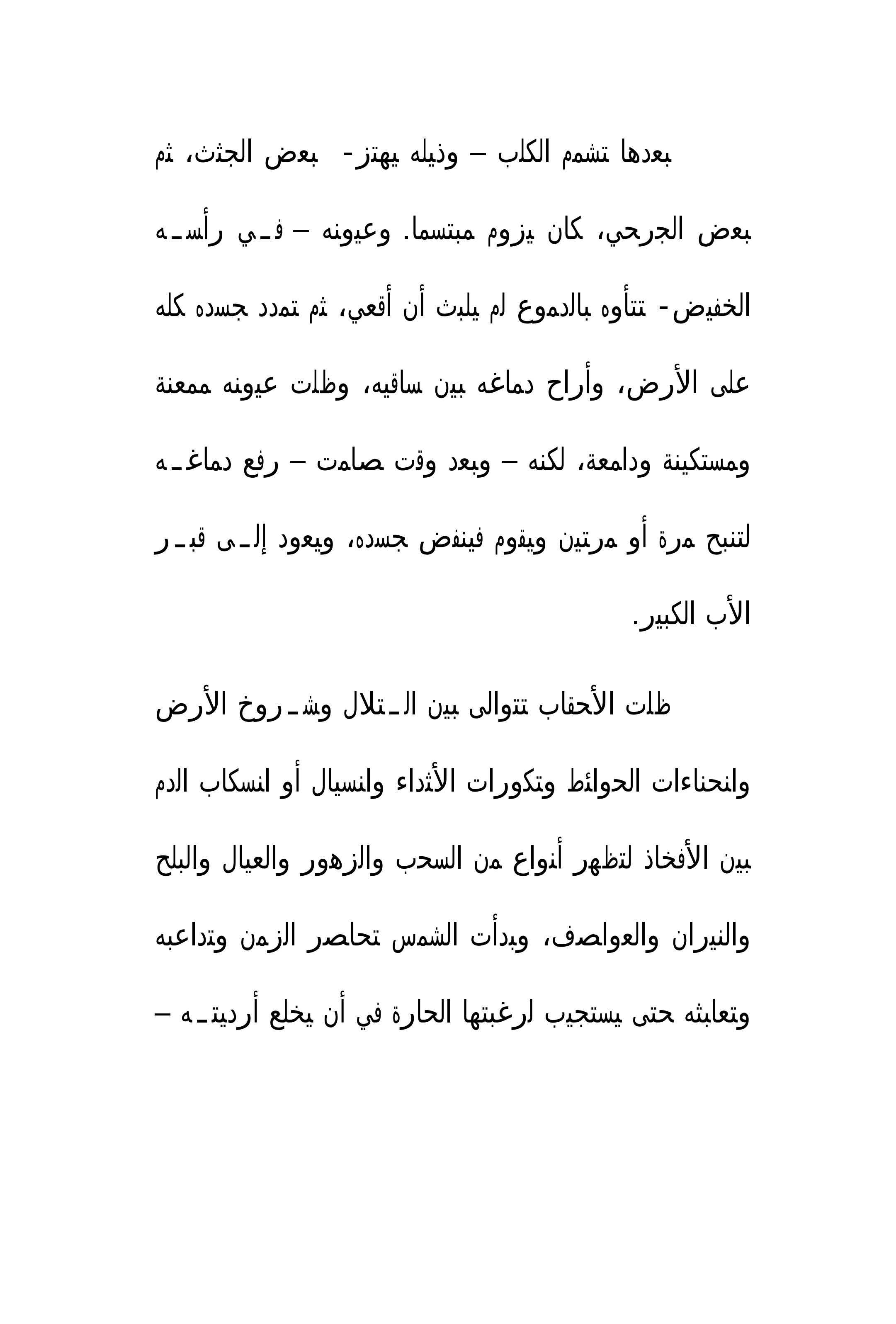


مستغيثة بجريد النخل أو شوك الكـلأ أو عمـق الآبـار أو شجاعة الشمس أو بسالة السماء، لكن العالم – كله توقـف – مذهولا ليرى الأشلاء والجثث، ثم ليشهد بقايا آل مسـتجاب وقد غمرهم النحيب المرهق وهم يسيرون في عناء الصفوف المضطربة الفزعة.. والمستسلمة أيضا، وفي المقدمة كانـت أمهم قد فقدت القدرة على الفهم وعلى الإدراك، لتسير بالغـة الأنحناء والنواح الضعيف، إنه الذل الخارق.

وعندما أحس الكلاب – في مكمنه بين أكمات الـتلال – أن ثمة أذى يحيق بالقوم: صعد إلى ذروة المقبـرة علـه يتنسم في الهواء العكر القادم خانقا معنى ما يجرى، وهاله أن أمواج الصراخ الهادر تستثير الإحساس بالكارثة، فاندفع إلى موقع الديار نابحا قافزا صارخا ثم لم يلبث أن تمهل حينمـا

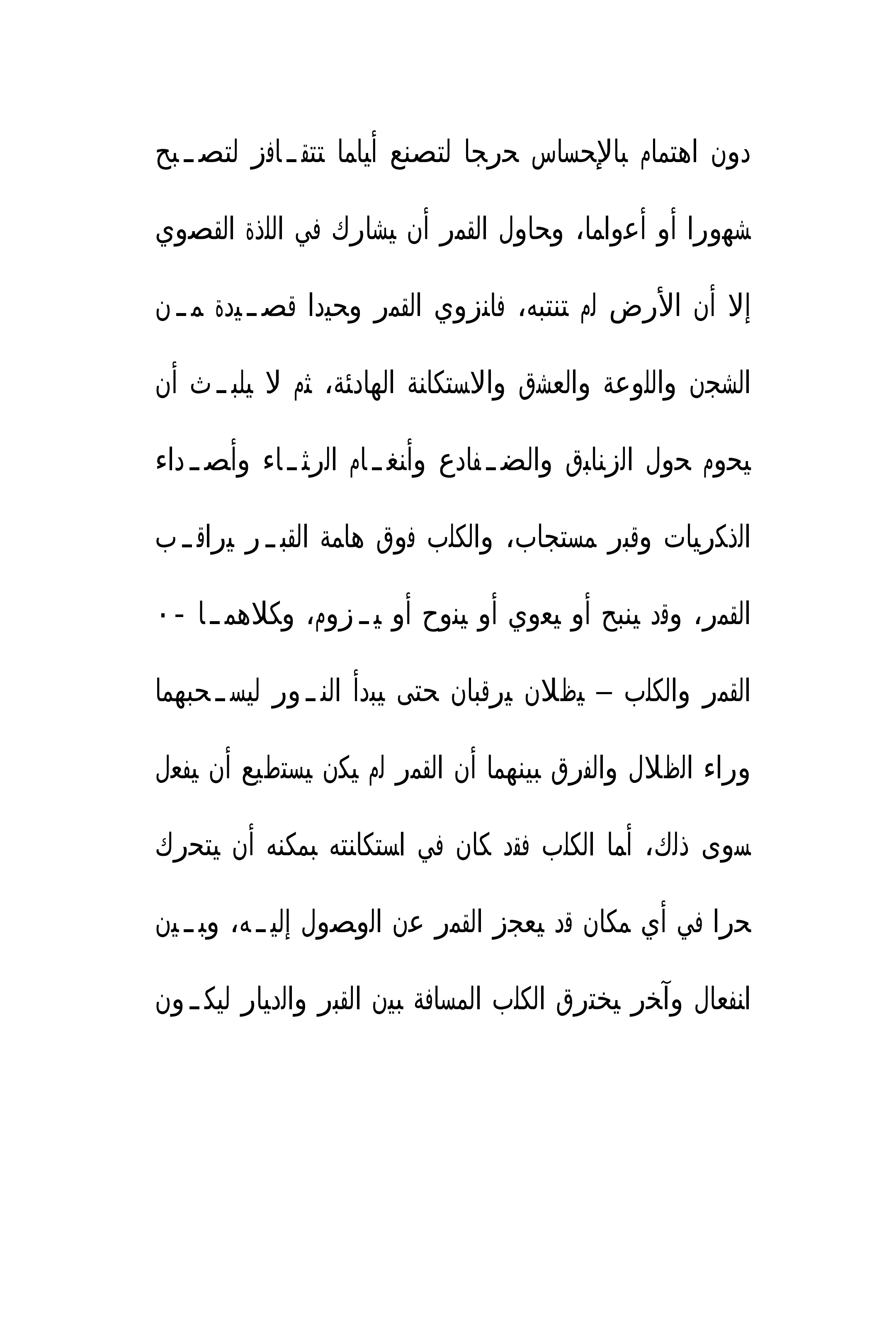


راعه ان مخلوقات قصيرة – وعارية – ذات قرون وأنيـاب تقود طابورا مضطربا ذليلا لأبناء صاحبه العظـيم بعـدها تحول الكب النابح إلى طاقة من الشراسة والافتراس المروع والرائع، فاخترق حشد الأسرى مسـعورا، لتنفـتح بطـون المداهمين، وتتمزق صدورهم وجلودهم ومؤخراتهم وتنتبـه العصافير والغربان والشمس والأحجار إلـى هـذه الكلوبـة الواثقة المندفعة، لتستثير الغبار في العيون، وتذرو الفلفل في خياشيم المهاجمين، ليهرب من يهرب أو يسقط من يسـقط، حتى بدأت السحب تنشر في الجو المغبر صفاء الرحمة، لتبدأ أم آل مستجاب في صراخ آخر، فيه من الشجن تيـار مـن الأمل الناعم.

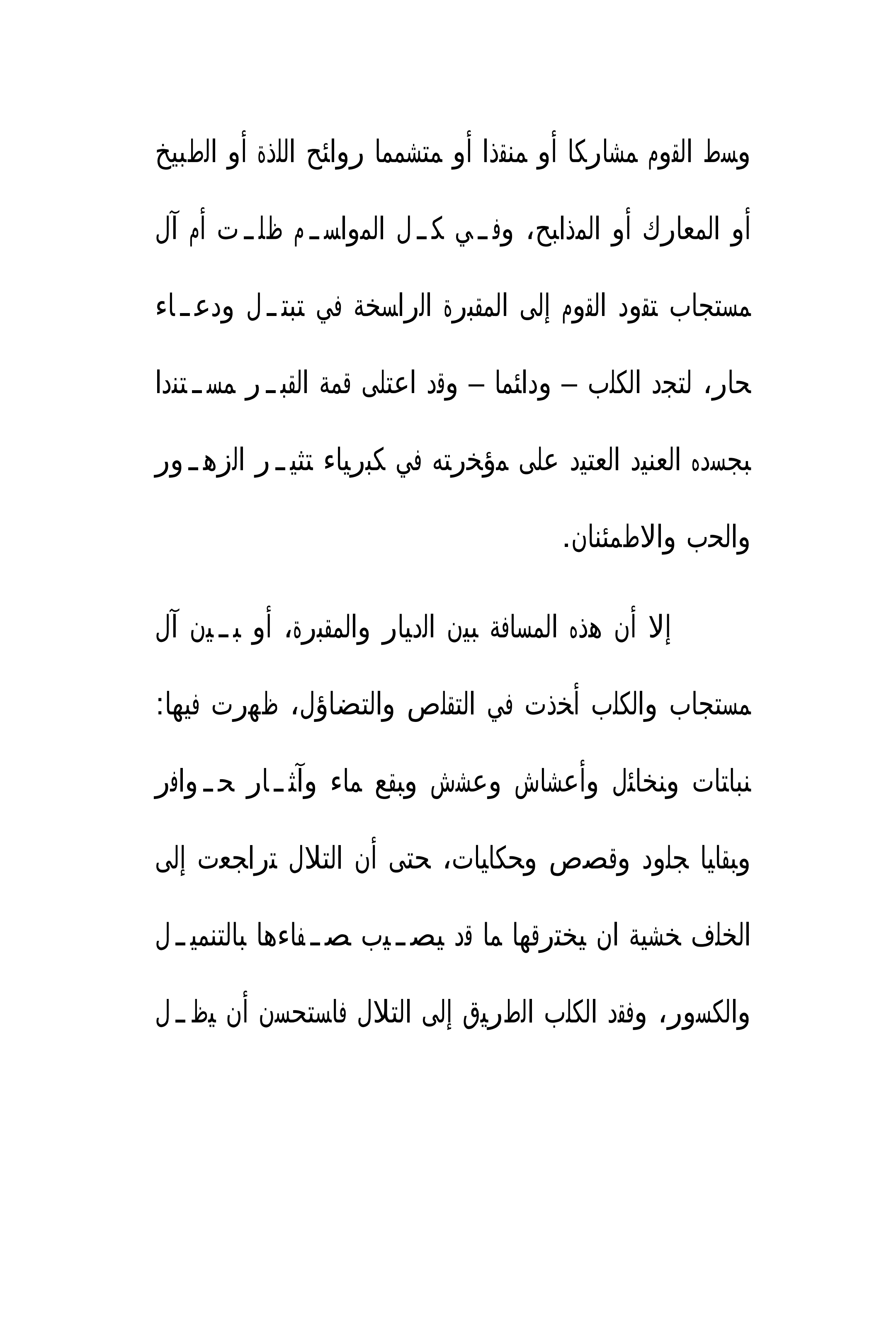


بعدها تشمم الكلاب – وذيله يهتز- بعض الجثث، ثم بعض الجرحي، كان يزوم مبتسما. وعيونه – في رأسه الخفيض- تتأوه بالدموع لم يلبث أن أقعي، ثم تمدد جسده كله على الأرض، وأراح دماغه بين ساقيه، وظلت عيونه ممعنة ومستكينة ودامعة، لكنه – وبعد وقت صامت – رفع دماغه لتنبح مرة أو مرتين ويقوم فينفض جسده، ويعود إلى قبر الأب الكبير.

ظلت الأحقاب تتوالى بين التلال وشروخ الأرض وانحناءات الحوائط وتكورات الأثداء وانسيال أو انسكاب الدم بين الأفخاذ لتظهر أنواع من السحب والزهور والعيال والبلح والنيران والعواصف، وبدأت الشمس تحاصر الزمن وتداعبه وتعابثه حتى يستجيب لرغبتها الحارة في أن يخلع أرديته –

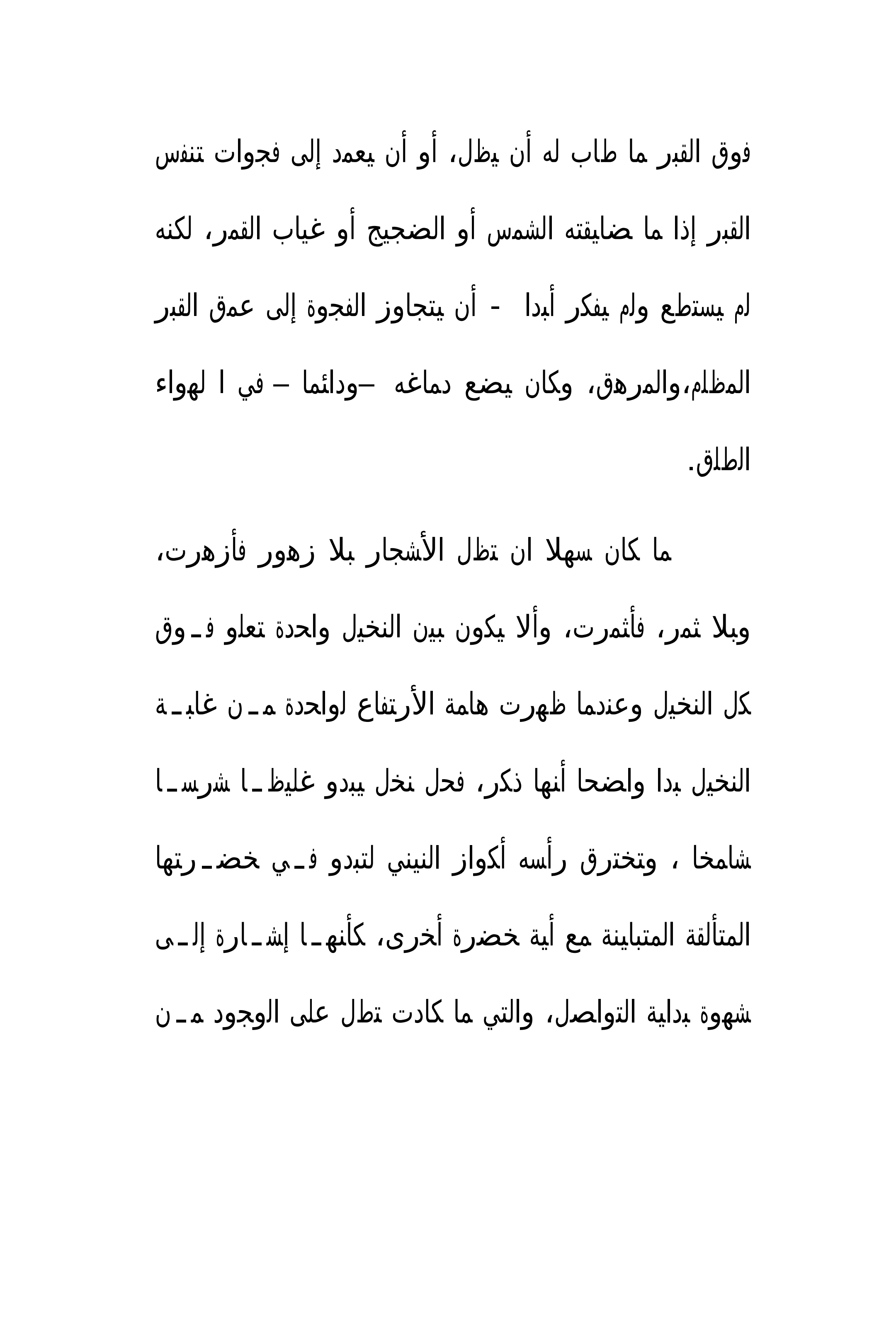


دون اهتمام بالإحساس حرجا لتصنع أياما تتقـافز لتصـبح شهورا أو أعواما، وحاول القمر أن يشارك في اللذة القصوى إلا أن الأرض لم تنتبه، فانزوى القمر وحيدا قصـيدة مـن الشجن واللوعة والعشق والاستكانة الهادئة، ثم لا يلبـث أن يحوم حول الزنابق والضـفادع وأنغـام الرثـاء وأصـداء الذكريات وقبر مستجاب، والكلاب فوق هامة القبـر يراقـب القمر، وقد ينبح أو يعوي أو ينوح أو يـزوم، وكلاهمـا -- القمر والكلب – يظلان يرقبان حتى يبدأ النـور ليسـحبهما وراء الظلال والفرق بينهما أن القمر لم يكن يستطيع أن يفعل سوى ذلك، أما الكلب فقد كان في استكانته بمكنه أن يتحرك حرا في أي مكان قد يعجز القمر عن الوصول إليـه، وبـين انفعال وآخر يخترق الكلب المسافة بين القبر والديار ليكـون

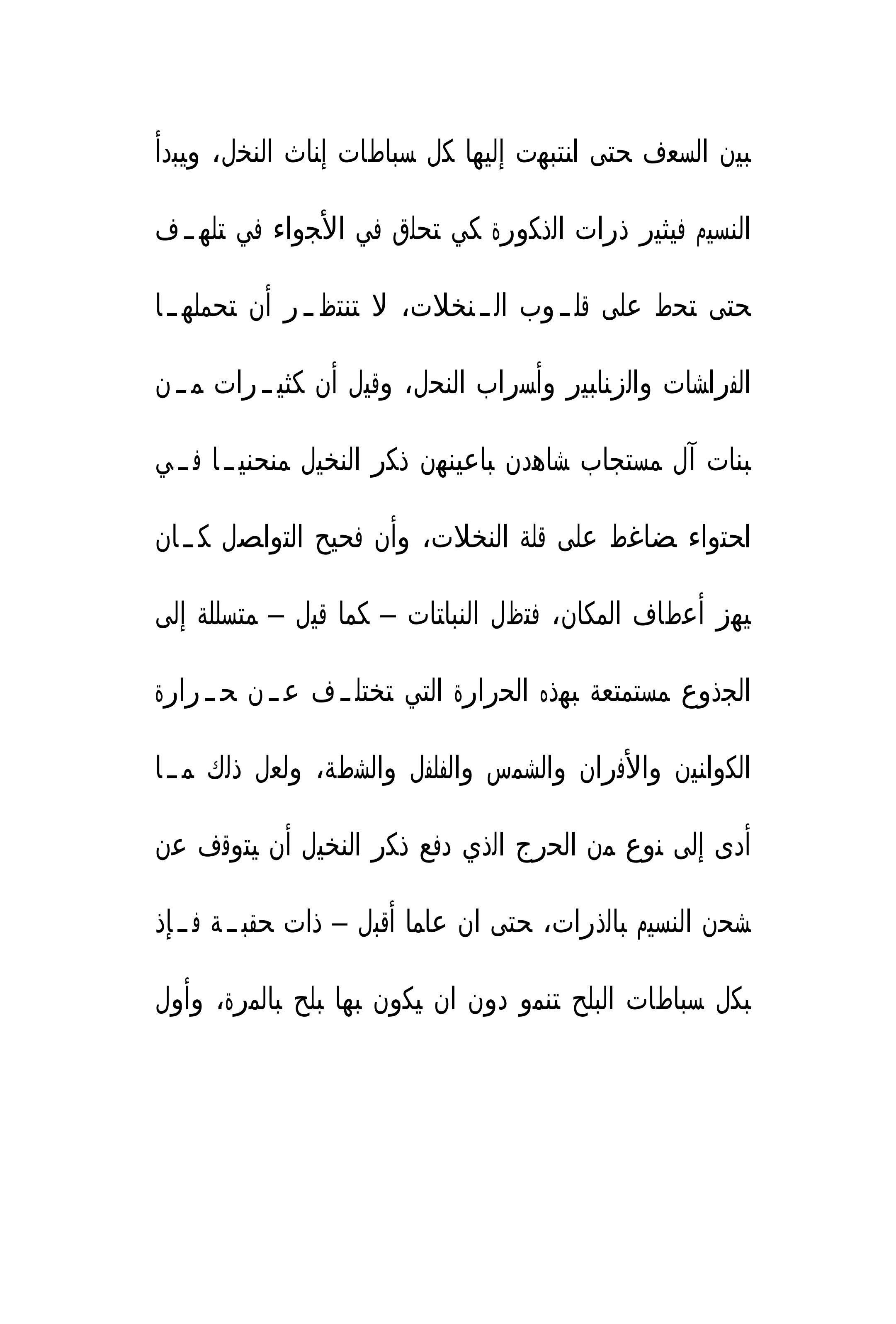


وسط القوم مشاركا أو منقذا أو متشمما روائح اللذة أو الطبيخ أو المعارك أو المذابح، وفـي كـل المواسـم ظلـت أم آل مستجاب تقود القوم إلى المقبرة الراسخة في تبتـل ودعـاء حار، لتجد الكلاب – ودائما – وقد اعتلى قمة القبـر مسـتندا بجسده العنيد العتيد على مؤخرته في كبرياء تثيـر الزهـور والحب والاطمئنان.

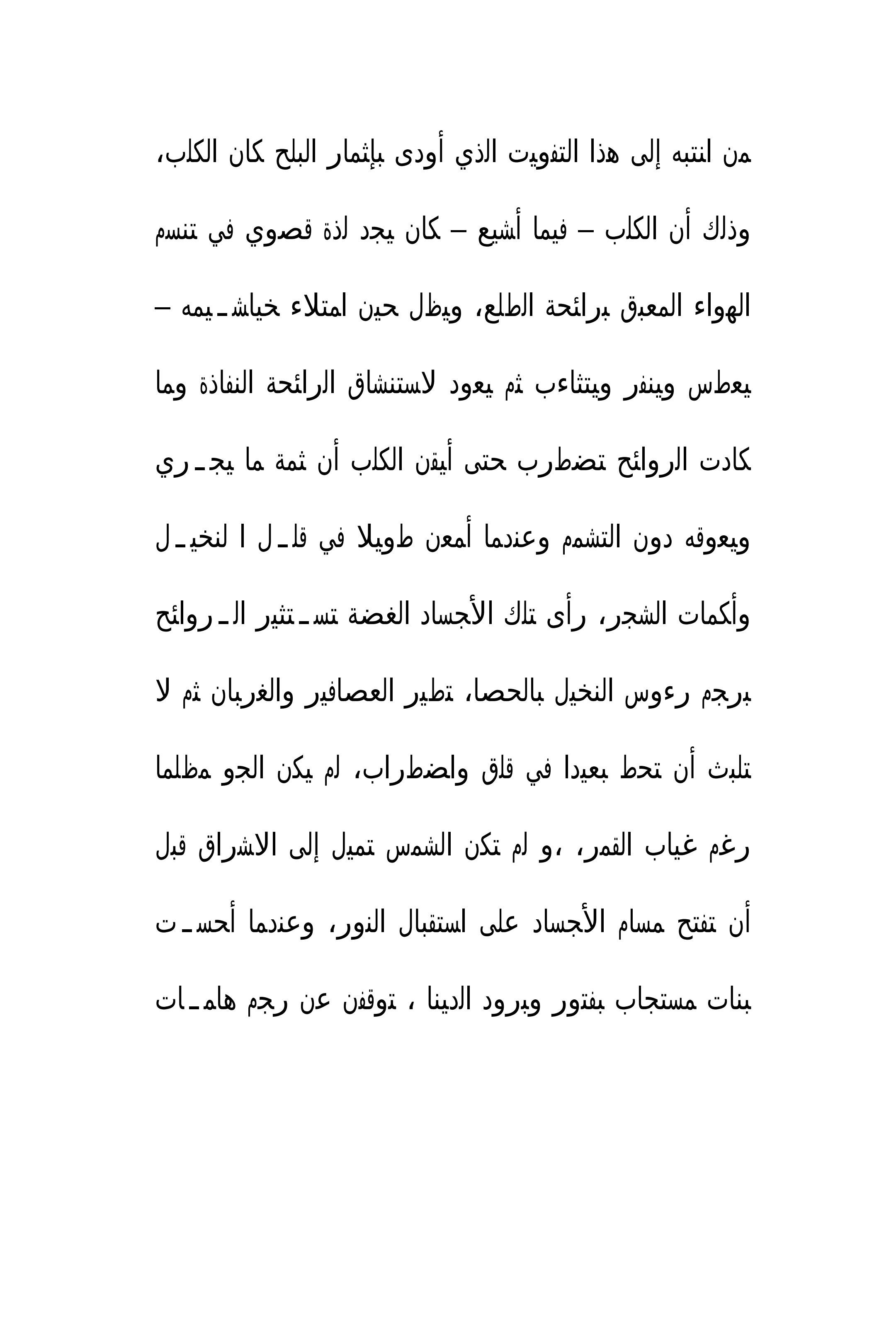
إلا أن هذه المسافة بين الديار والمقبرة، أو بـين آل مستجاب والكلاب أخذت في التقلص والتضاؤل، ظهرت فيها: نباتات ونخائل وأعشاش وعشش وبقع ماء وآثـار حـوافر وبقايا جلود وقصص وحكايات، حتى أن التلال تراجعت إلى الخلف خشية ان يخترقها ما قد يصـيب صـفاءها بالتنميـل والكسور، وفقد الكلاب الطريق إلى التلال فاستحسن أن يظـل


فوق القبر ما طاب له أن يظل، أو أن يعمد إلى فجوات تنفس القبر إذا ما ضايقته الشمس أو الضجيج أو غياب القمر، لكنه لم يستطع ولم يفكر أبدا - أن يتجاوز الفجوة إلى عمق القبر المظلم،والمرهق، وكان يضع دماغه –ودائما – في ا لهواء الطلق.

ما كان سهلا ان تظل الأشجار بلا زهور فأزهرت، وبلا ثمر، فأثمرت، وألا يكون بين النخيل واحدة تعلو فـوق كل النخيل وعندما ظهرت هامة الأرتفاع لواحدة مـن غابـة النخيل بدا واضحا أنها ذكر، فحل نخل يبدو غليظـا شرسـا شامخا ، وتخترق رأسه أكواز النيني لتبدو فـي خضـرتها المتألقة المتباينة مع أية خضرة أخرى، كأنهـا إشـارة إلـى شهوة بداية التواصل، والتي ما كادت تطل على الوجود مـن



بين السعف حتى انتبهت إليها كل سباطات إناث النخل، ويبدأ النسيم فيثير ذرات الذكورة كي تحلق في الأجواء في تلهـف حتى تحط على قلـوب الـنخلات، لا تنتظـر أن تحملهـا الفراشات والزنابير وأسراب النحل، وقيل أن كثيـرات مـن بنات آل مستجاب شاهدن باعينهن ذكر النخيل منحنيـا فـي احتواء ضاغط على قلة النخلات، وأن فحيح التواصل كـان يهز أعطاف المكان، فتظل النباتات – كما قيل – متسللة إلى الجذوع مستمتعة بهذه الحرارة التي تختلـف عـن حـرارة الكوانين والأفران والشمس والفلفل والشطة، ولعل ذلك مـا أدى إلى نوع من الحرج الذي دفع ذكر النخيل أن يتوقف عن شحن النسيم بالذرات، حتى ان عاما أقبل – ذات حقبـة فـإذ بكل سباطات البلح تنمو دون ان يكون بها بلح بالمرة، وأول



من انتبه إلى هذا التفويت الذي أودى بإثمار البلح كان الكلب، وذلك أن الكلب – فيما أشيع – كان يجد لذة قصوى في تنسم الهواء المعبق برائحة الطلع، ويظل حين امتلاء خياشـيمه – يعطس وينفر ويتثاءب ثم يعود لاستنشاق الرائحة النفاذة وما كادت الروائح تضطرب حتى أيقن الكلب أن ثمة ما يجـري ويعوقه دون التشمم وعندما أمعن طويلا في قلـل ا لنخيـل وأكمات الشجر، رأى تلك الأجساد الغضة تسـتثير الـروائح برجم رءوس النخيل بالحصا، تطير العصافير والغربان ثم لا تلبث أن تحط بعيدا في قلق واضطراب، لم يكن الجو مظلما رغم غياب القمر، ،و لم تكن الشمس تميل إلى الاشراق قبل أن تفتح مسام الأجساد على استقبال النور، وعندما أحسـت بنات مستجاب بفتور وبرود الدينا ، توقفن عن رجم هامـات

النخيل ، لكن الكلاب كان قد داهمهن صارخا نابحا، حتـى أن كثيرات منهن تصادمن فزعا وتساقطن اضطرابا بين النـور والأعشاب وسيقان الخيل وضباب الصباح.

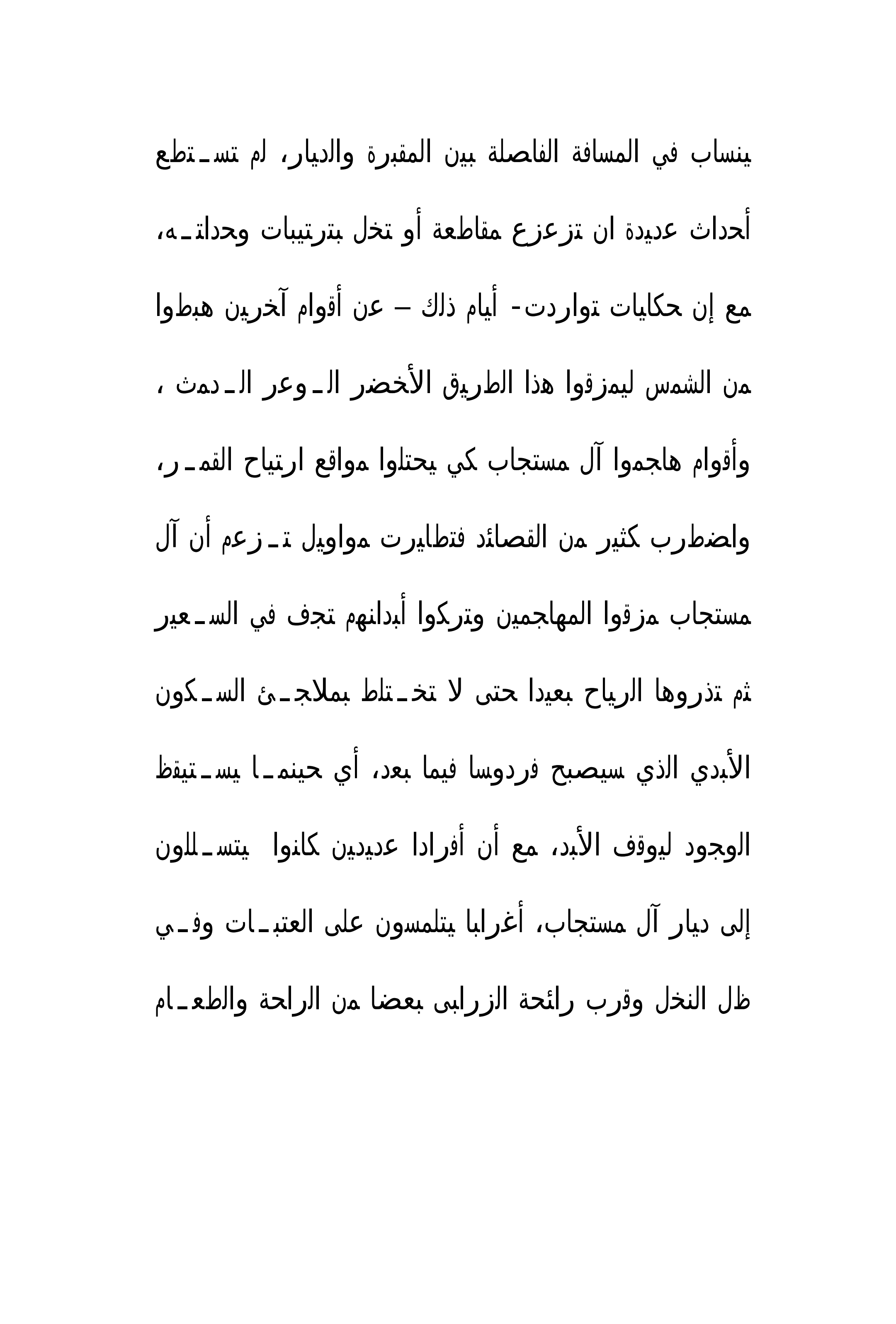
فأشارت امرأة – وهى زوجة لعساس البهائم [1]– أن تتوقف البنات عن التسلل ليلا إلى الأحـراش، وأن الـديار تحتاج إلي عبق المتعة المبددة في الهواء الطلق ،وصرخت أم آل مستجاب في بناتها وهى شديدة المرارة أن يبتعـدن عـن استثارة الكلاب، وان هذا الضجيج النابح يثيـر فـي النسـيم الرغبة المتوحشة كي يصبح ريحا أو عاصفة، (وكل اللـي فاتح باب يقف وراه أحسن، واللي يـنط الحـواجز هيكـون

([1]) عساس البهائم رجل له خبرة بتقدير حالة البقرة إن كانت حاملا أو خاوية بلا حمل، ثم يستخدم درايته في إيلاج ذراعه كله في رحم البقرة متحسسا الجنين كي يقدر عمره أو تحديد ما يكون قد أصاب حالته من احتمالات الموت الكامن الذي لا يظهر خارج البطن المتكورة

جرادة أو حصين [٢] ده اللي ورا الحواجز دايما – ياغلبـانين – ألعن)، وهو ما أدى أن تحمل الأم فوق رأس بناتها – في أول طلعة موسم – بيضا وخبزا ، وأن تلف وتـدور حـول المقبرة عند طلوع الشمس كي يضعن خبز الرضـا ونـذور الرحمة أمام فتحة القبر وعلى قمة القبر، وهن ينظرن الكلب الرابض فوق القمة في توسل واسترحام. وعند عودتهن كانت كل النخلات تهتز في ود بالغ، تاركة سباطاتها ترنو إلى ذكر النخيل وقد بدأت ذرات التواصل تعبق الجو.

(ناس البلد : لموا طواريكم ، جديع غريـب نـازل فساقيكم ، ناس البلد لموا مقاطفكم ، جـديع غريـب نـازل مقابركم) ، واستمر هذا اللحن النائح المنتحب نشيدا وطنيـا

([2]) الحصين : الاسم الشائع للثعلب.



ينساب في المسافة الفاصلة بين المقبرة والديار، لم تسـتطع

أحداث عديدة ان تزعزع مقاطعة أو تخل بترتيبات وحداتـه،

مع إن حكايات تواردت- أيام ذلك – عن أقوام آخرين هبطوا

من الشمس ليمزقوا هذا الطريق الأخضر الـوعر الـدمث ،

وأقوام هاجموا آل مستجاب كي يحتلوا مواقع ارتياح القمـر،

واضطرب كثير من القصائد فتطايرت مواويل تـزعم أن آل

مستجاب مزقوا المهاجمين وتركوا أبدانهم تجف في السـعير

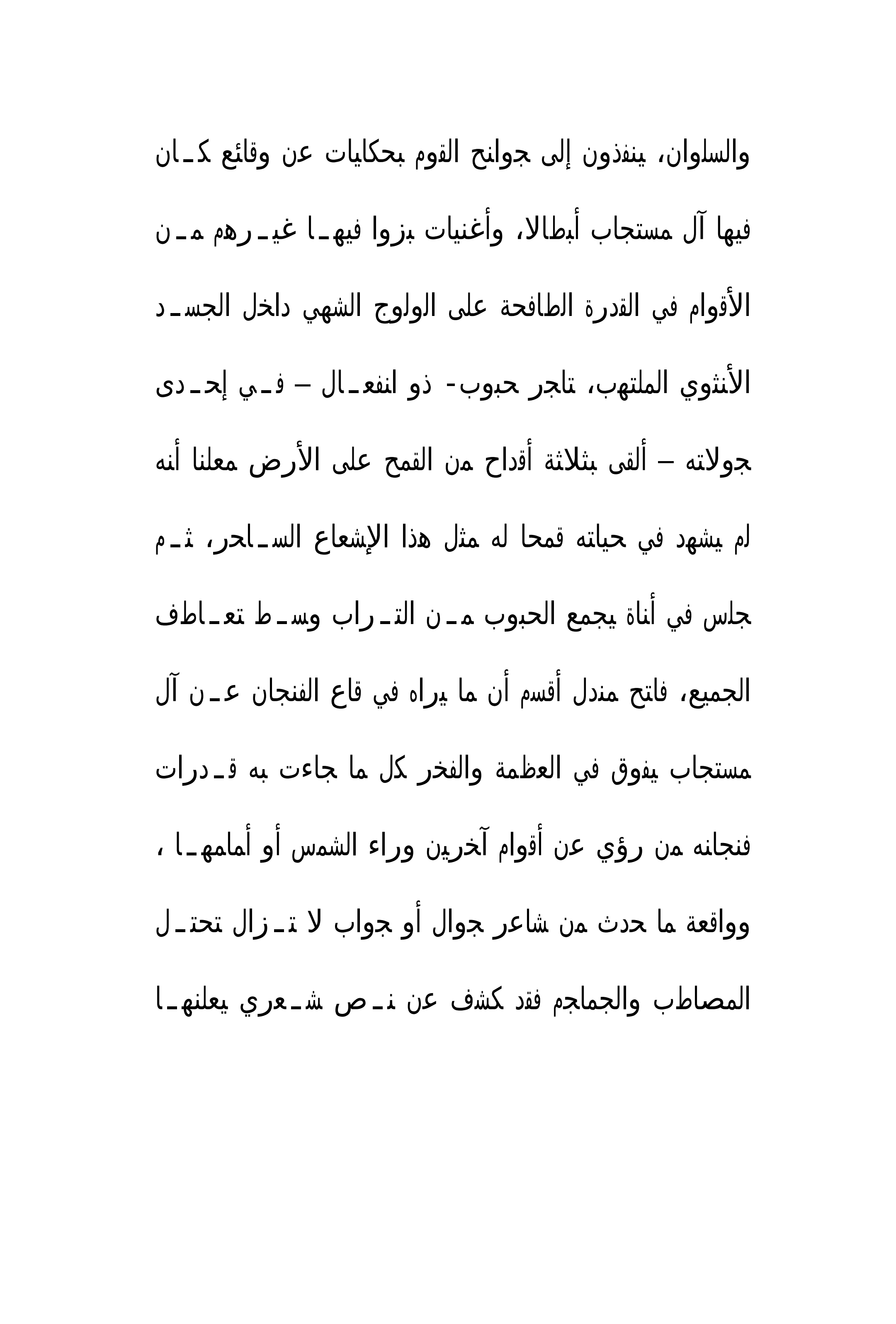
ثم تذروها الرياح بعيدا حتى لا تخـتلط بملاجـئ السـكون

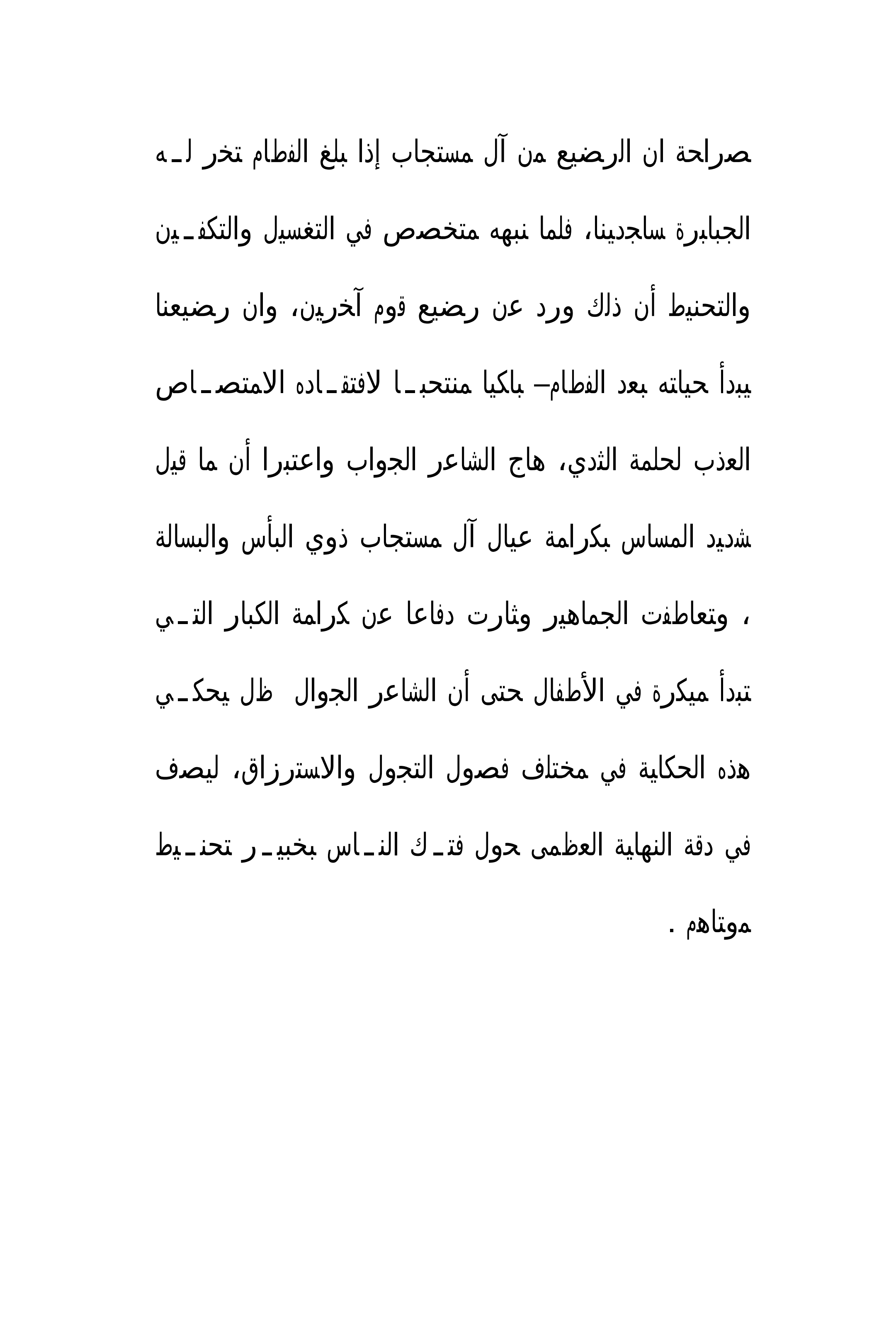
الأبدي الذي سيصبح فردوسا فيما بعد، أي حينمـا يسـتيقظ

الوجود ليوقف الأبد، مع أن أفرادا عديدين كانوا يتسـللون

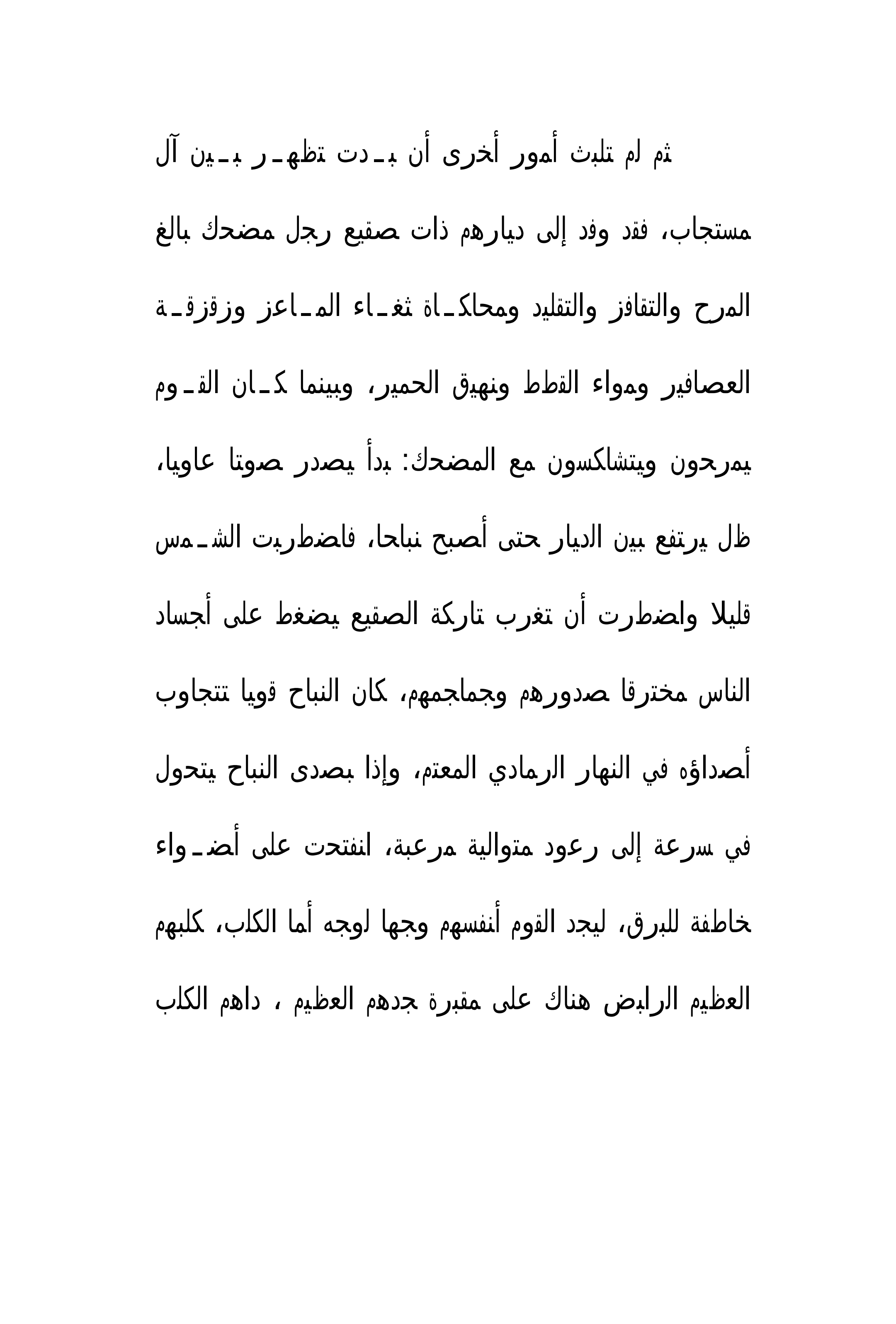
إلى ديار آل مستجاب، أغرابا يتلمسون على العتبـات وفـي

ظل النخل وقرب رائحة الزرابى بعضا من الراحة والطعـام

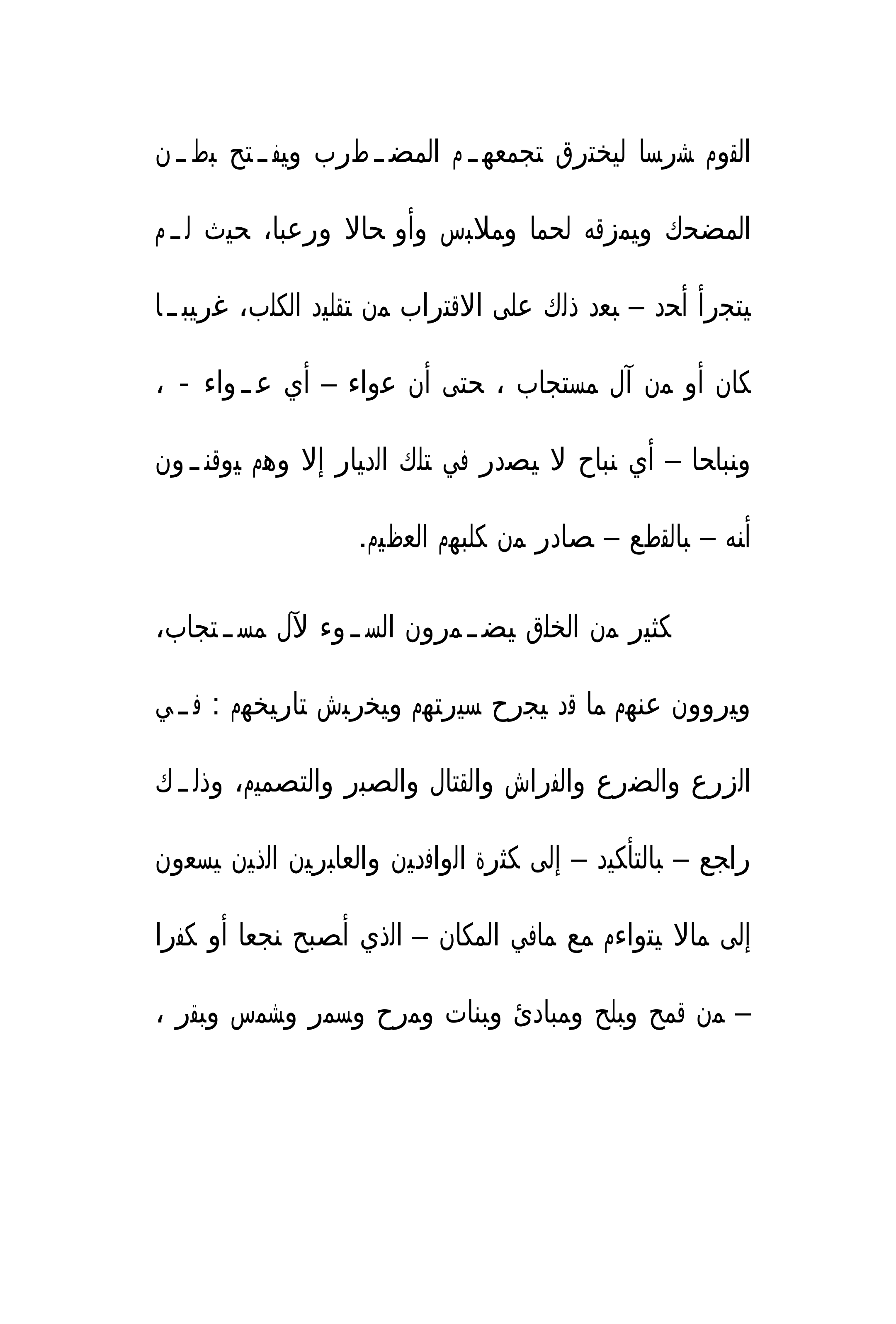

والسلوان، ينفذون إلى جوانح القوم بحكايات عن وقائع كـان فيها آل مستجاب أبطالا، وأغنيات برزوا فيهـا غيـرهم مـن الأقوام في القدرة الطافحة على الولوج الشهي داخل الجسـد الأنثوي الملتهب، تاجر حبوب- ذو انفعـال – فـي إحـدى جولاته – ألقى بثلاثة أقداح من القمح على الأرض معلنا أنه لم يشهد في حياته قمحا له مثل هذا الإشعاع السـاحر، ثـم جلس في أناة يجمع الحبوب مـن التـراب وسـط تعـاطف الجميع، فاتح مندل أقسم أن ما يراه في قاع الفنجان عـن آل مستجاب يفوق في العظمة والفخر كل ما جاءت به قـدرات فنجانه من رؤى عن أقوام آخرين وراء الشمس أو أمامهـا ، وواقعة ما حدث من شاعر جوال أو جواب لا تـزال تحتـل المصاطب والجماجم فقد كشف عن نـص شـعري يعلنهـا



صراحة ان الرضيع من آل مستجاب إذا بلغ الفطام تخر لـه الجبابرة ساجدينا، فلما نبهه متخصص في التغسيل والتكفـين والتحنيط أن ذلك ورد عن رضيع قوم آخرين، وان رضيعنا يبدأ حياته بعد الفطام– باكيا منتحبـا لافتقـاده الامتصـاص العذب لحلمة الثدي، هاج الشاعر الجواب واعتبرا أن ما قيل شديد المساس بكرامة عيال آل مستجاب ذوي البأس والبسالة ، وتعاطفت الجماهير وثارت دفاعا عن كرامة الكبار التـي تبدأ مبكرة في الأطفال حتى أن الشاعر الجوال ظل يحكـي هذه الحكاية في مختلف فصول التجول والاسترزاق، ليصف في دقة النهاية العظمى حول فتـك النـاس بخبيـر تحنـيط موتاهم .



ثم لم تلبث أمور أخرى أن بـدت تظهـر بـين آل مستجاب، فقد وفد إلى ديارهم ذات صقيع رجل مضحك بالغ المرح والتقافز والتقليد ومحاكـاة ثغـاء المـاعز وزقزقـة العصافير ومواء القطط ونهيق الحمير، وبينما كـان القـوم يمرحون ويتشاكسون مع المضحك: بدأ يصدر صوتا عاويا، ظل يرتفع بين الديار حتى أصبح نباحا، فاضطربت الشـمس قليلا واضطرت أن تغرب تاركة الصقيع يضغط على أجساد الناس مخترقا صدورهم وجماجمهم، كان النباح قويا تتجاوب أصداؤه في النهار الرمادي المعتم، وإذا بصدى النباح يتحول في سرعة إلى رعود متوالية مرعبة، انفتحت على أضـواء خاطفة للبرق، ليجد القوم أنفسهم وجها لوجه أما الكلاب، كلبهم العظيم الرابض هناك على مقبرة جدهم العظيم ، داهم الكلاب

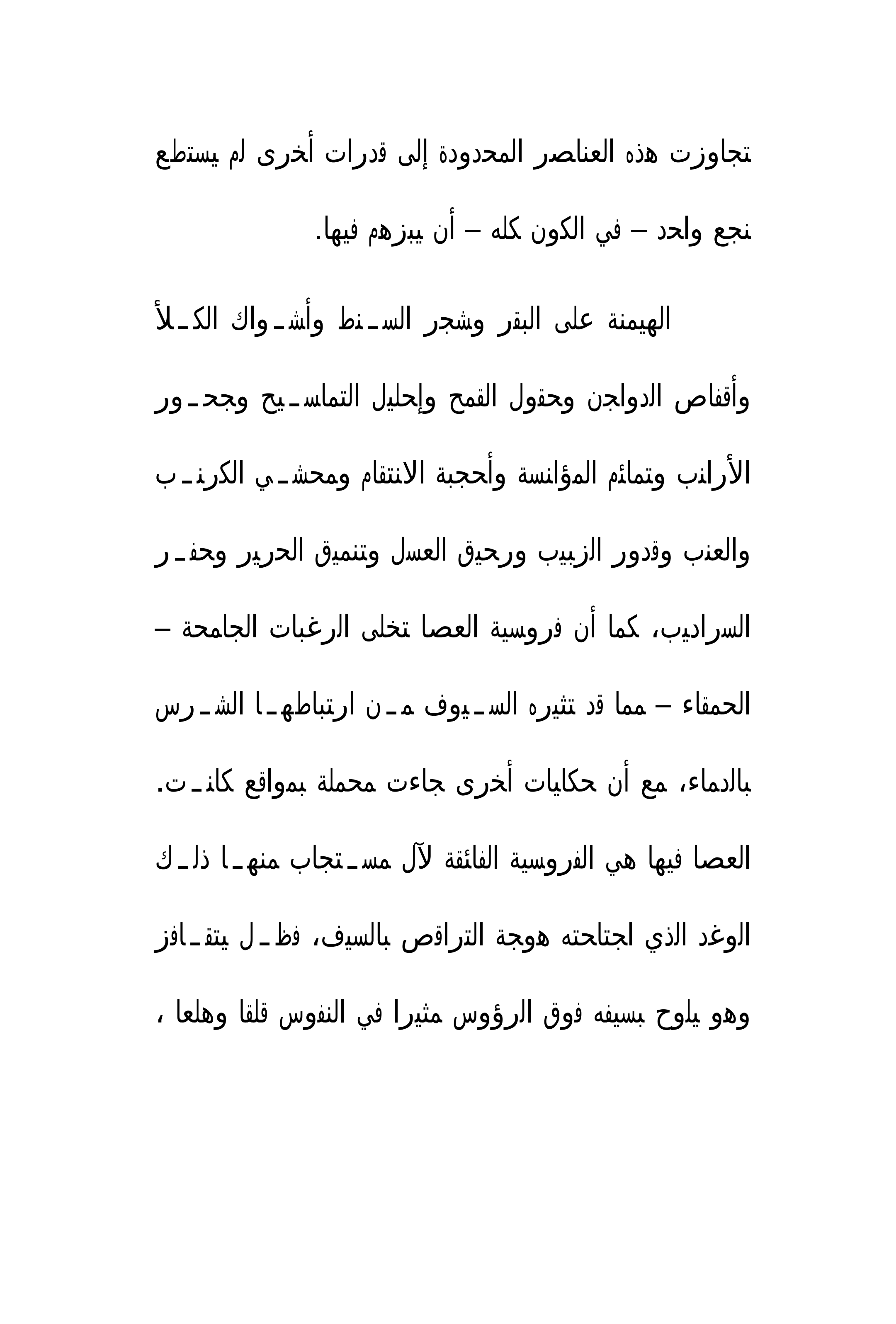


القوم شرسا ليخترق تجمعهـم المضـطرب ويفـتح بطـن المضحك ويمزقه لحما وملابس وأو حالا ورعبا، حيث لـم يتجرأ أحد – بعد ذلك على الاقتراب من تقليد الكلب، غريبـا كان أو من آل مستجاب ، حتى أن عواء – أي عـواء - ، ونباحا – أي نباح لا يصدر في تلك الديار إلا وهم يوقنـون أنه – بالقطع – صادر من كلبهم العظيم.

كثير من الخلق يضـمرون السـوء لآل مسـتجاب، ويروون عنهم ما قد يجرح سيرتهم ويخربش تاريخهم : فـي الزرع والضرع والفراش والقتال والصبر والتصميم، وذلـك راجع – بالتأكيد – إلى كثرة الوافدين والعابرين الذين يسعون إلى مالا يتواءم مع مافي المكان – الذي أصبح نجعا أو كفرا – من قمح وبلح ومبادئ وبنات ومرح وسمر وشمس وبقر ،

فقد وردت حكاية – واضحة الهدف عن واحدة من بناتهن لم تكن تستطيع أن تمنح جسدها لرجلها في يوم غـائم، وإنهـا كانت تستحم بنور الشمس تمهيدا للوصول إلى لحظات المتعة القصوى ، وبالتالي فقد خرج الليل من اللعبة تاركا الأمر كله للنهار، كما أن واحدا من القوم – في حكاية أخرى كان يفخر بأنه (أسفل شجرة، وفي آخر النهار، ومـن خـلال أنثـى مفرودة تحت صدره، بمكنه أن يصل بالنشوة إلى لا نهائيته) [٣] وحاولت حكايات عديدة أن تصفهم بأنهم قوم يخلون مـن الفروسية، وهذا واضح من عشقهم للعبة العصا دون السيف، ولم ينتبه صاحب الحكاية اللئيمة أن فروسـية آل مسـتجاب

([3]) هذا المقطع منقول بالنص من قصة لنفس المؤلف سبق نشرها مرات آخرها كانت في (قصيدة حمقاء).



تجاوزت هذه العناصر المحدودة إلى قدرات أخرى لم يستطع نجع واحد – في الكون كله – أن يبزهم فيها.

الهيمنة على البقر وشجر السـنط وأشـواك الكـلأ وأقفاص الدواجن وحقول القمح وإحليل التماسـيح وجحـور الأرانب وتمائم المؤانسة وأحجبة الانتقام ومحشـي الكرنـب والعنب وقدور الزبيب ورحيق العسل وتنميق الحرير وحفـر السراديب، كما أن فروسية العصا تخلى الرغبات الجامحة – الحمقاء – مما قد تثيره السـيوف مـن ارتباطهـا الشـرس بالدماء، مع أن حكايات أخرى جاءت محملة بمواقع كانـت. العصا فيها هي الفروسية الفائقة لآل مسـتجاب منهـا ذلـك الوغد الذي اجتاحته هوجة التراقص بالسيف، فظـل يتقـافز وهو يلوح بسيفه فوق الرؤوس مثيرا في النفوس قلقا وهلعا ،

فانبري له واحد ممن يعشقون التحطيب – تلك اللعبـة التـي

تدور فيها العصا وتتطاوح وتلتف فوق الرؤوس وأسفل الإبط

وبين الرموش [٤] وظل الأنوف وتحت طلبة الأذن ومـوطن

التقاء المشاعر بالمفاصل والكوع والأفخـاذ والقلـب وقمـة

الدماغ - ، ودارت المباراة هادئة وسلسـلة حتـى التهبـت

باندلاع نار التصفيق العارم، وما كاد السيف يختـرق الحـد

الفاصل إلى الصدر أو الرقبة: حتى انثنت العصـا ملتويـة

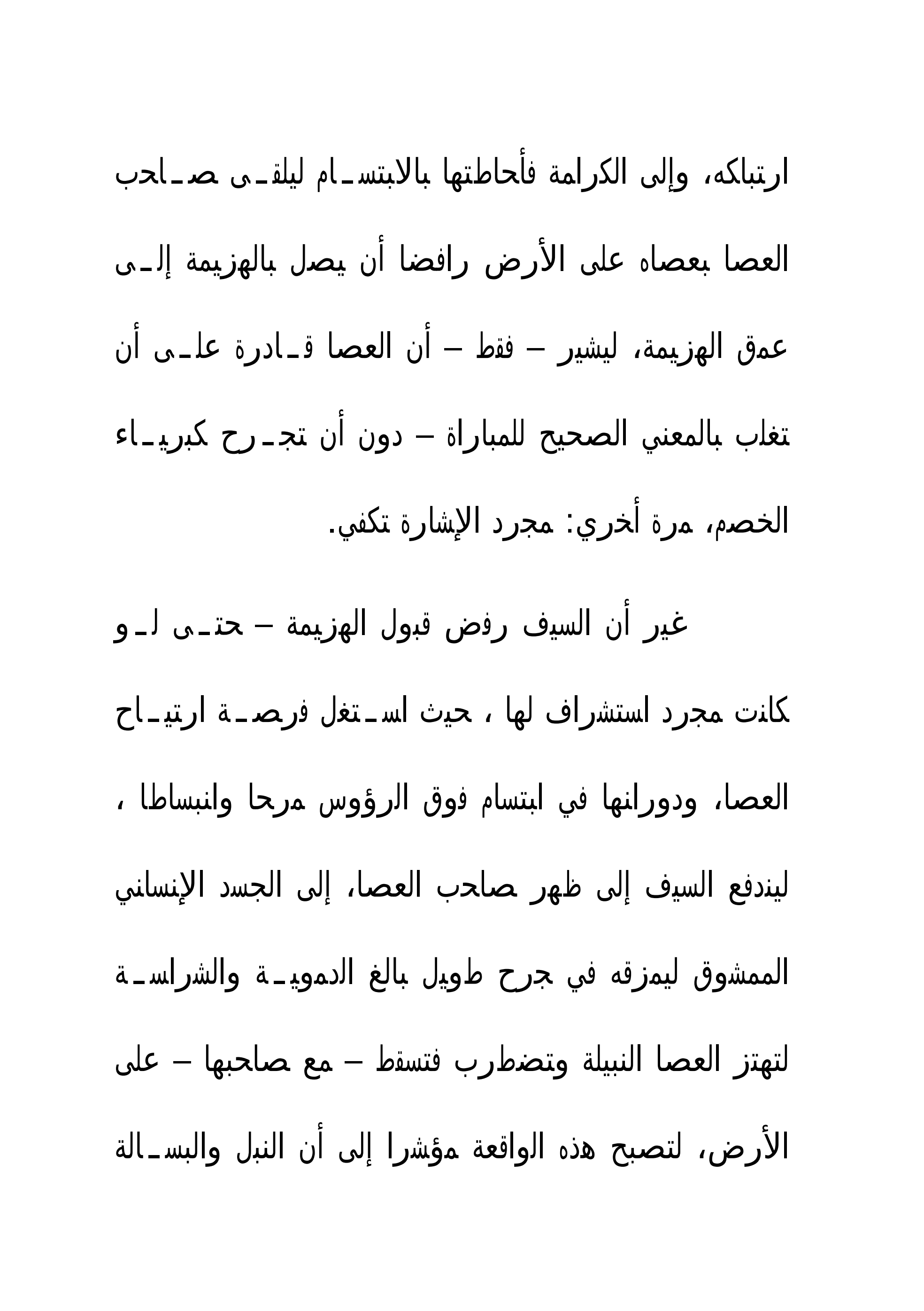
لتقذف بالسيف مرتدا إلى الخلف ، ولتدفع – هذه العصـا –

إلى الذقن والصدر في خط حاسم ساخن يشير إلـى العنـق،

فاختل توازن السيف وكاد يسقط إلى الخلـف لكـن العصـا

بحنان فائق. هرعت إلى التوازن فأزالـت – فـي كبريـاء

([4]) لا يوجد في المعاجم العربية لفظ الرموش ، ولو كان المؤلف دقيقا لاستخدم لفظ (الأهداب)



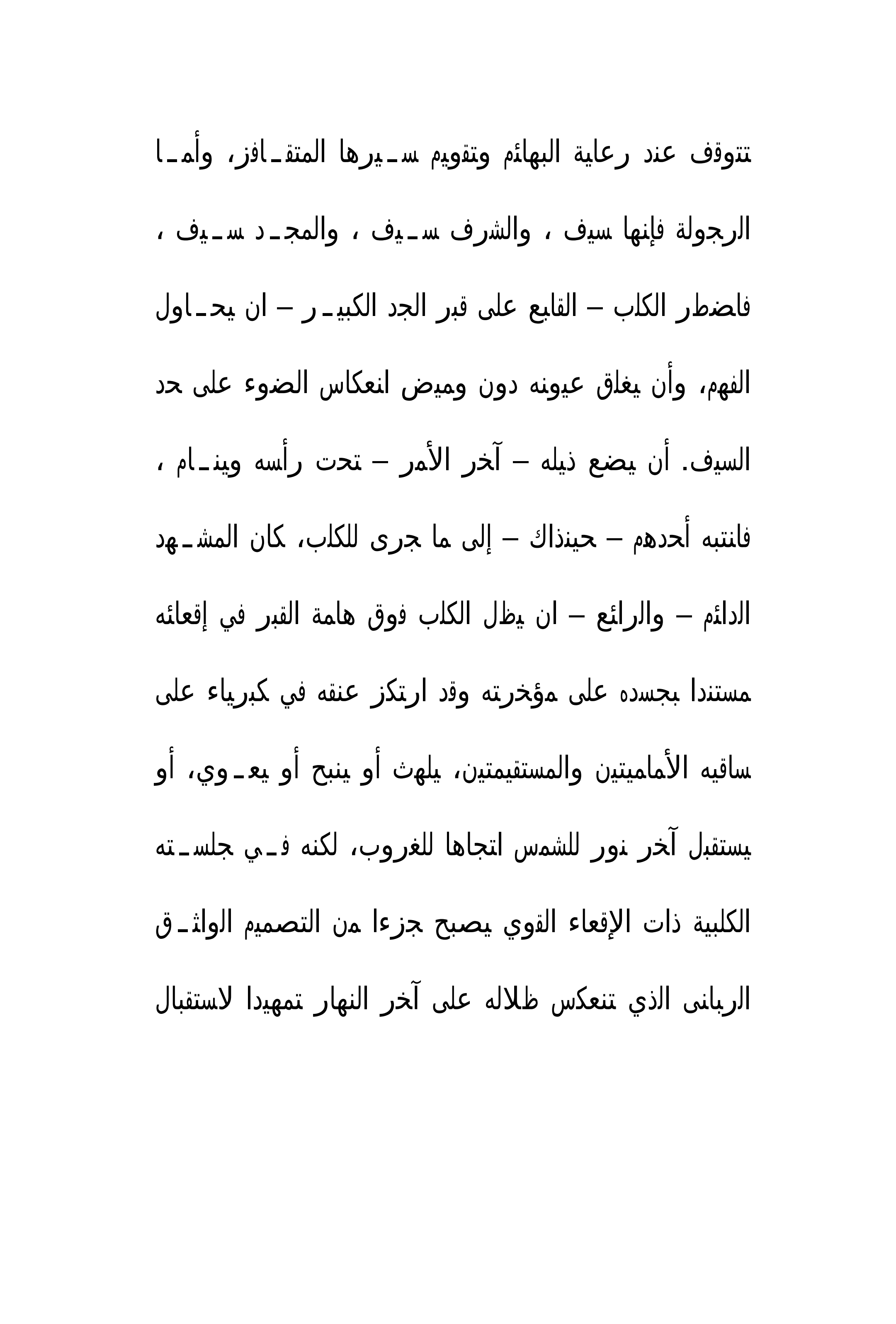
ارتباكه، وإلى الكرامة فأحاطتها بالابتسام ليلقى صاحب العصا بعصاه على الأرض رافضا أن يصل بالهزيمة إلى عمق الهزيمة، ليشير – فقط – أن العصا قادرة على أن تغلب بالمعني الصحيح للمباراة – دون أن تجرح كبرياء الخصم، مرة أخري: مجرد الإشارة تكفي.

غير أن السيف رفض قبول الهزيمة – حتى لو كانت مجرد استشراف لها ، حيث استغل فرصة ارتياح العصا، ودورانها في ابتسام فوق الرؤوس مرحا وانبساطا ، ليندفع السيف إلى ظهر صاحب العصا، إلى الجسد الإنساني الممشوق ليمزقه في جرح طويل بالغ الدموية والشراسة لتهتز العصا النبيلة وتضطرب فتسقط – مع صاحبها – على الأرض، لتصبح هذه الواقعة مؤشرا إلى أن النبل والبسالة

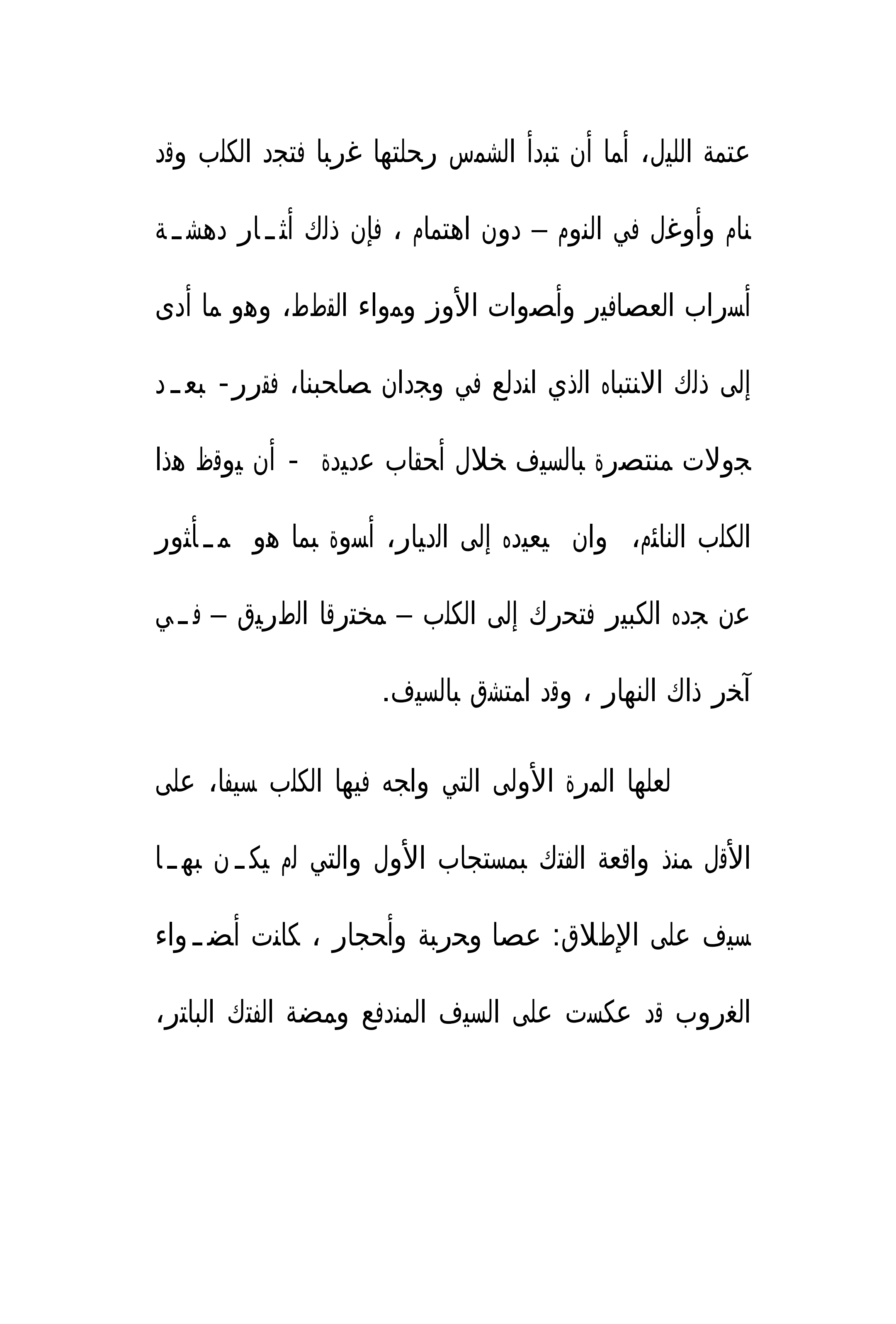
والتباري في حاجة دائمة إلى الحرص ، هو مـا أدي إلـى اعتبار أي نوع من النبل دون حرص يضع صاحبه في خانة البلهاء، حيث بدأت الأغاني الماكرة تحيق بصاحب العصـا المقتولة صفات ساخرة (لو كانت ماشي وإيدك في الجيـوب سكين، أحسن لك يا جميل من نشو في [(5)]الهوا مسـكين) ، فبدأ السيف ينتشر معلقا في صـدور آل مسـتجاب، جرابـه الأسود الكالح ينفث القدرة الفائقة علـى التمزيـق لأجسـاد المناوئين ، وظل منظر الأذرع المبتورة والرقاب المقطوعة يثير في آل مستجاب وجلا لم يعرفوه من قبـل ، حتـى أن أحدهم – في لحظة انفعال طائش – قرر أن العصا يجب أن

---

(5) النشو : عصا رفيعة لدنة تكون عادة من الجزء غير الغليظ من جريدة النخيل أو غصون الشجر ، يستخدم عادة في طرد الحيوانات أو الحشرات الطائرة ، ولكن اكثر استخدامه أثناء جس الخبز فوق البلاطة الحارة داخل الفرن ، والمعجم يخلو أيضا من هذا اللفظ مع أن النشو قد يثير في النفس النشوة.

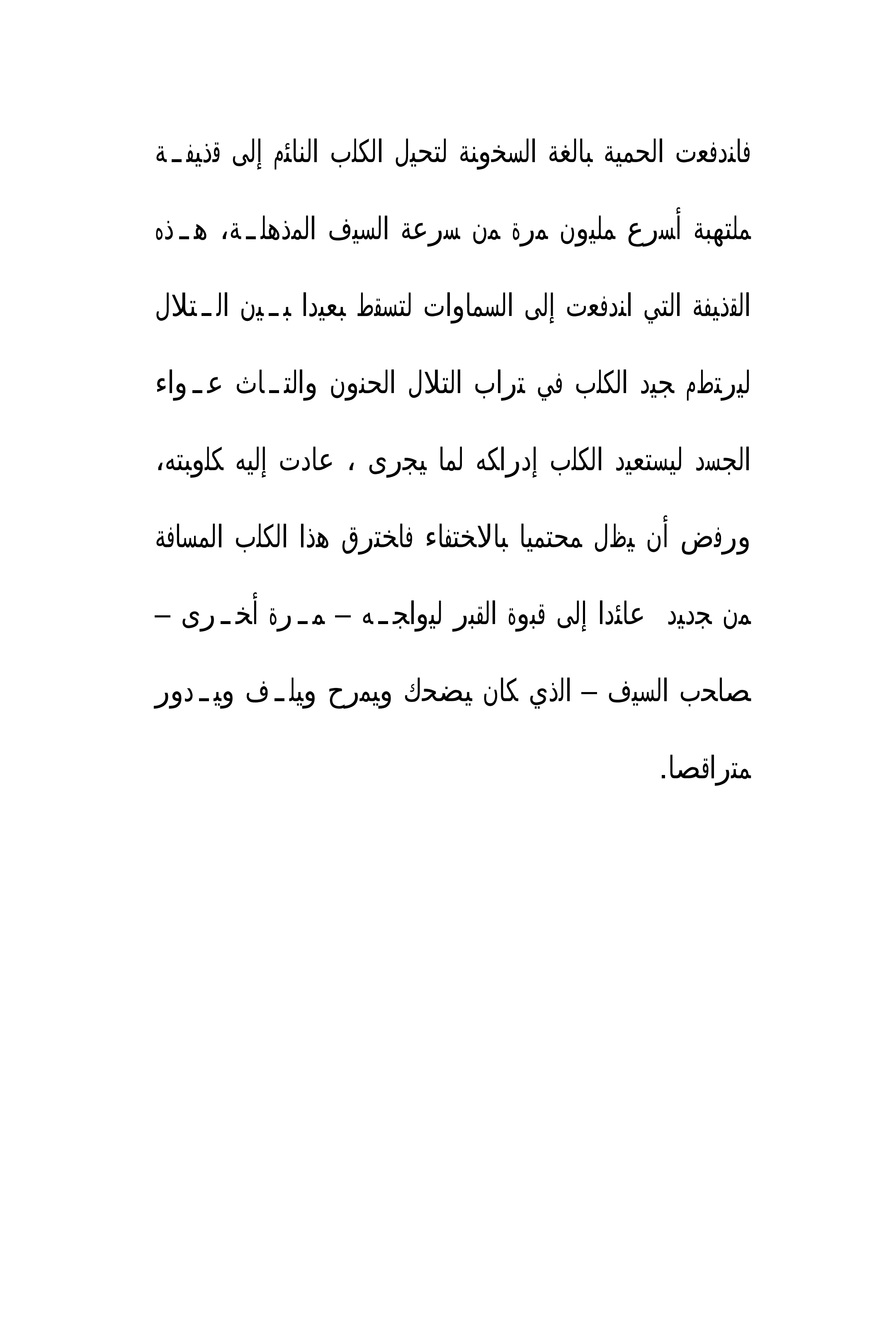


تتوقف عند رعاية البهائم وتقويم سـيرها المتقـافز، وأمـا الرجولة فإنها سيف ، والشرف سـيف ، والمجـد سـيف ، فاضطر الكلب – القابع على قبر الجد الكبيـر – ان يحـاول الفهم، وأن يغلق عيونه دون وميض انعكاس الضوء على حد السيف. أن يضع ذيله – آخر الأمر – تحت رأسه وينـام ، فانتبه أحدهم – حينذاك – إلى ما جرى للكلب، كان المشـهد الدائم – والرائع – ان يظل الكلب فوق هامة القبر في إقعائه مستندا بجسده على مؤخرته وقد ارتكز عنقه في كبرياء على ساقيه الأماميتين والمستقيمتين، يلهث أو ينبح أو يعـوي، أو يستقبل آخر نور للشمس اتجاها للغروب، لكنه فـي جلسـته الكلبية ذات الإقعاء القوي يصبح جزءا من التصميم الواثـق الربانى الذي تنعكس ظلاله على آخر النهار تمهيدا لاستقبال



عتمة الليل، أما أن تبدأ الشمس رحلتها غربا فتجد الكلب وقد نام وأوغل في النوم – دون اهتمام ، فإن ذلك أثـار دهشـة أسراب العصافير وأصوات الأوز ومواء القطط، وهو ما أدى إلى ذلك الانتباه الذي اندلع في وجدان صاحبنا، فقرر- بعـد جولات منتصرة بالسيف خلال أحقاب عديدة - أن يوقظ هذا الكلب النائم، وان يعيده إلى الديار، أسوة بما هو مـأثور عن جده الكبير فتحرك إلى الكلب – مخترقا الطريق – فـي آخر ذاك النهار ، وقد امتشق بالسيف.

لعلها المرة الأولى التي واجه فيها الكلب سيفا، على الأقل منذ واقعة الفتك بمستجاب الأول والتي لم يكـن بهـا سيف على الإطلاق: عصا وحربة وأحجار ، كانت أضـواء الغروب قد عكست على السيف المندفع ومضة الفتك الباتر،


فاندفعت الحمية بالغة السخونة لتحيل الكلب النائم إلى قذيفـة ملتهبة أسرع مليون مرة من سرعة السيف المذهلـة، هـذه القذيفة التي اندفعت إلى السماوات لتسقط بعيدا بـين الـتلال ليرتطم جيد الكلب في تراب التلال الحنون والتـاث عـواء الجسد ليستعيد الكلب إدراكه لما يجرى ، عادت إليه كلوبته، ورفض أن يظل محتميا بالاختفاء فاخترق هذا الكلب المسافة من جديد عائدا إلى قبوة القبر ليواجـه – مـرة أخـرى – صاحب السيف – الذي كان يضحك ويمرح ويلـف ويـدور متراقصا.

كثيرون يزعمون ان الكلاب لم يعد من بين التلال، إلا أن امرأة يقال لها (الفاتية) [6] تشهد أنها أصيبت باضطراب حين داهمها نباح الكلاب، مع انها كانت في موقـع داخـل التلال يبيح لها أن تظل صامته كي لا يسألها أحد عما كانت تفعله هناك ، وعما إذا كانت بمفردها أو كانت فـي صـحبة أنيس ، إذ أن روايتها يحوطها شك كبيـر، حيـث تصـف الموقف بعد ما أقرت باضطرابها بان الكلاب حاول الوصـول إلى المقبرة ، إلا أن صاحب السيف قطع عليه الطريق، وعاد إلى مداورته ومناورته ، لكن الكلاب قفز من بـين خطـوط المداورة والمناورة ليصل مباشرة إلى بطن الرجـل ليرتفـع السيف إلى أعلى ويتحول إلى دائرة من المعدن البليد ، ليقـع

---

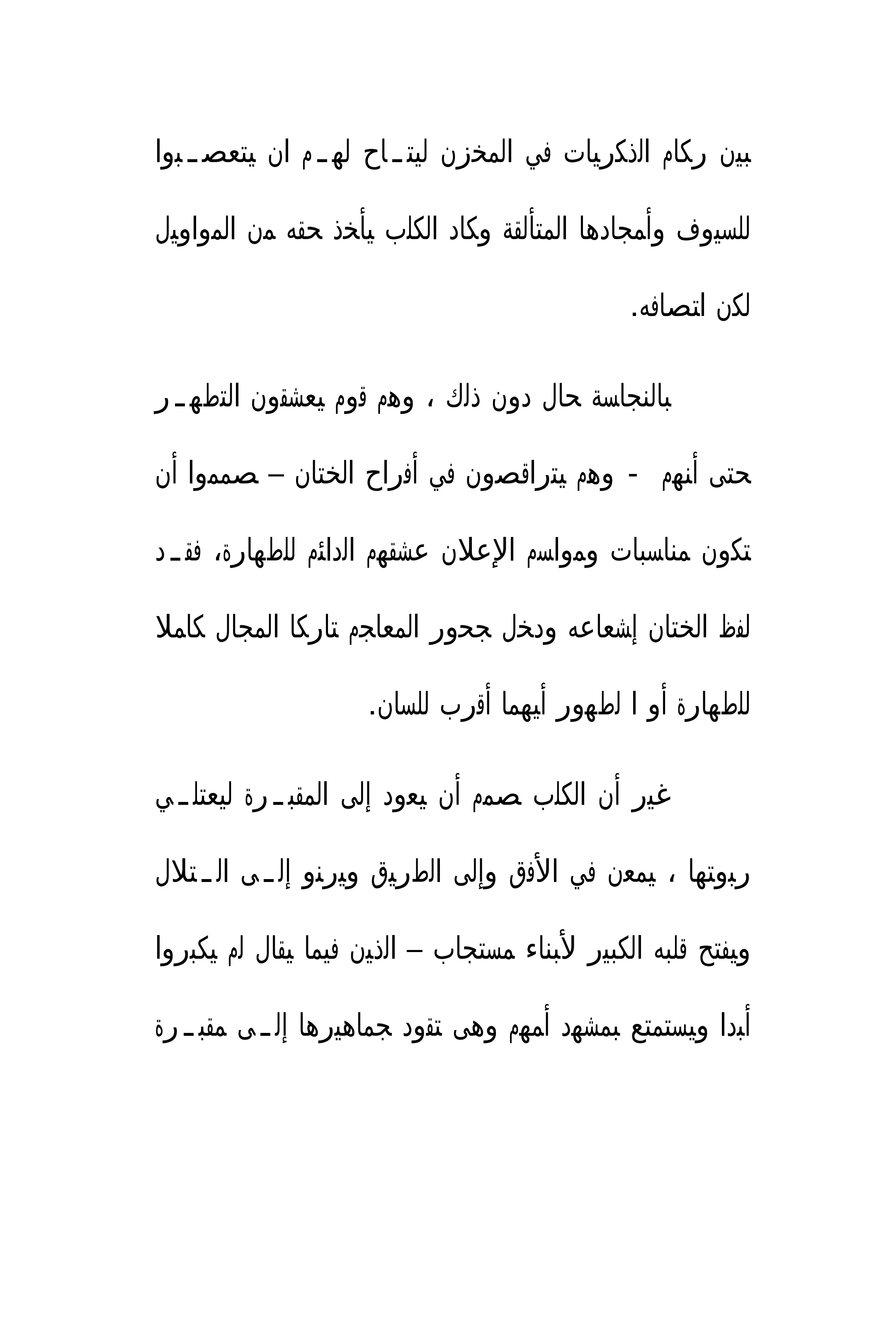
(6) الفاتية لفظ يشيع استخدامه لوصف الأنثى الخارجة على العرف أو الأخلاق، وفي المعجم: افتات : انفرد واستبد بالرأي ويسهل أن نعمم ذلك على السلوك أيضا.

– هذا السيف بجوار البطن المفتوح بجوار القبر مجرد عصا فاقدة الحرارة ، ولذا فسوف يدهشك ألا تجد أثرا لأية رسـوم لأية سيوف [٧] على جدران قبور آل مستجاب ، تلـك التـي تظل تتراقص العصيان [٨] على سـاحاتها : مرحـا ورعبـا وتلاعبا وزهوا ومصارعة دون أية سيف واحد.

ربما كان هذا وراء ما جرى بعد ذلك، فقد أصـبحت هذه الواقعة – بين الكلب والسيف والعصا مجـالا لحكايـات عديدة يأخذ كل عنصر فيها دورا يثير المواويل والأغنيات ، وآل مستجاب يتعصبون – في حب شديد – للعصا ثم يلقونها

([7]) لعله من المناسب أن نشير إلى ان قواعد لعبة التحطيب تقضى بعدم التسلح أثناءها بأية سلاح آخر : سيفا كان أو طبنجة أو سكينا ، على أساس معروف بين الناس هو انك لا تقاتل بل تتبارى .

([8]) لم يرد في المعجم جمع للعصا : عصيان ، مع ان للعصا فعلا مؤثرا يعنى مباشرة الضرب بالعصا ، فأن جاء الفعل بالياء دون الألف فإنه يعنى اللعب بالعصا كما يعلب بالسيف، فإن امتدت الألف في المنتصف (عصاه) فإنها تعنى ضاربة بالعصا ، واعتصى على العصا : توكأ عليها ، والجمع السليم للعصا – لغويا عصي وفي كتب اللغة الكثير من العصا.



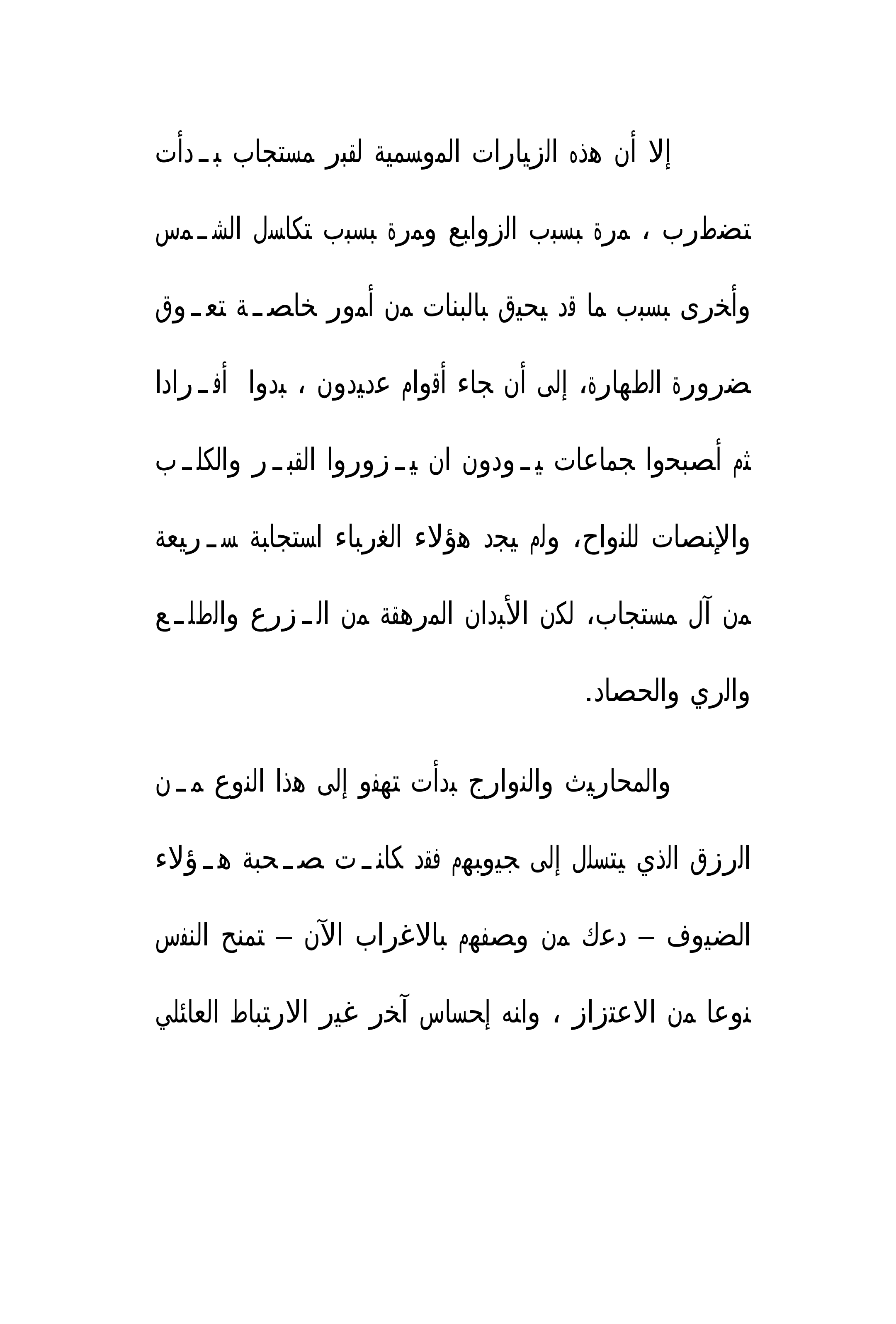
بين ركام الذكريات في المخزن ليتـاح لهـم ان يتعصـبوا للسيوف وأمجادها المتألقة وكاد الكلب يأخذ حقه من المواويل لكن انتصافه.

بالنجاسة حال دون ذلك ، وهم قوم يعشقون التطهـر حتى أنهم - وهم يتراقصون في أفراح الختان – صمموا أن تكون مناسبات ومواسم الإعلان عشقهم الدائم للطهارة، فقـد لفظ الختان إشعاعه ودخل جحور المعاجم تاركا المجال كاملا للطهارة أو ا لطهور أيهما أقرب للسان.

غير أن الكلب صمم أن يعود إلى المقبـرة ليعتلـي ربوتها ، يمعن في الأفق وإلى الطريق ويرنو إلـى الـتلال ويفتح قلبه الكبير لأبناء مستجاب – الذين فيما يقال لم يكبروا أبدا ويستمتع بمشهد أمهم وهى تقود جماهيرها إلـى مقبـرة

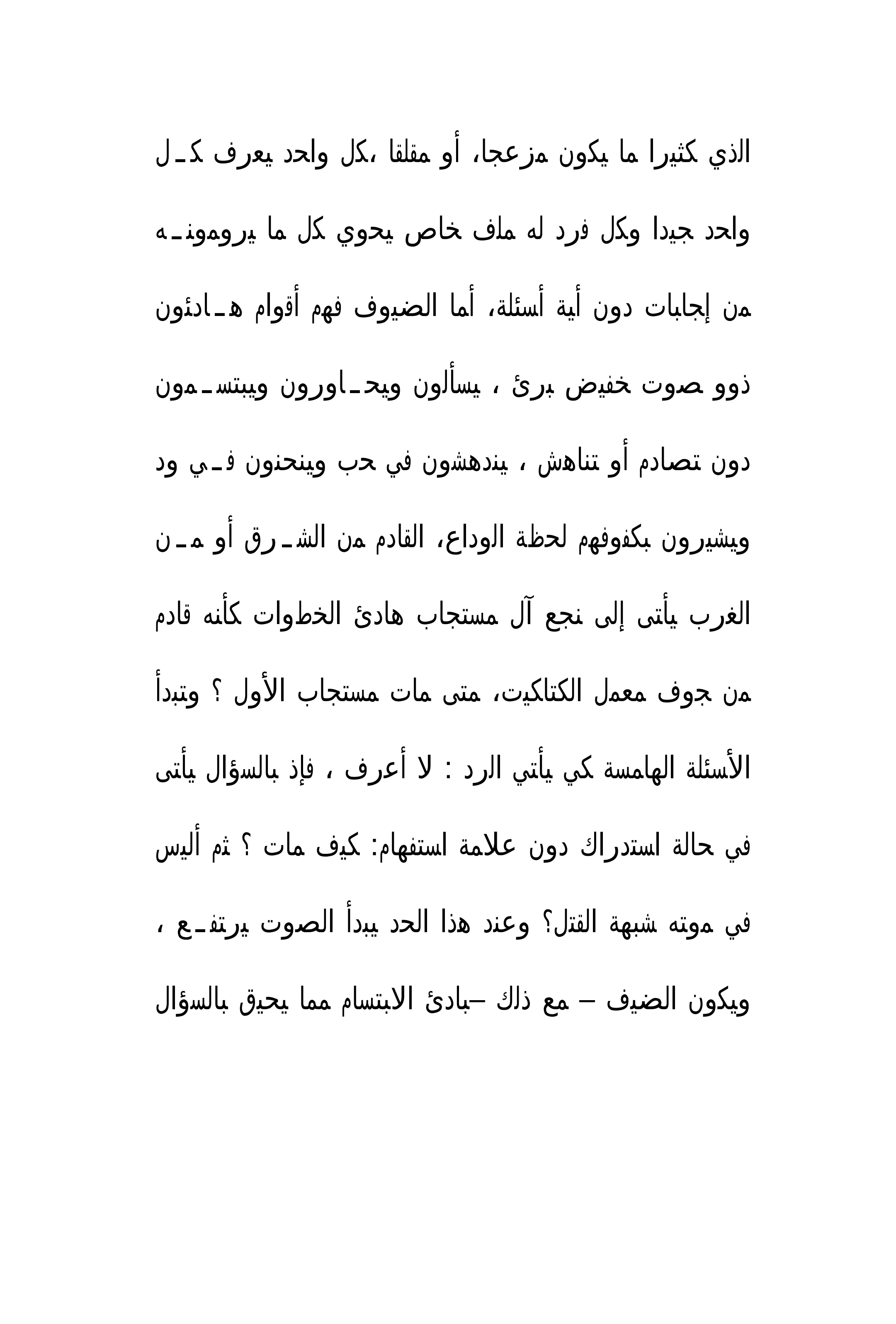
أبيهم مفعمة بشجن الوداع الذي ظل حارا مهمـا ضـاعطته الأحقاب (أشيل عيني في الجبل وأنوح ، وإن صابنى ظلـم لمين أروح، أشيل عيني في الجبل وأبكي ، وإن صابنى ضيم لمين أشكي) ، ثم يا ست أبوكي كان زي مين في دول، وفي الحظ كله ما لقيت له زول) فيتعلق نظر.

الكلاب بعيون المرأة الناحبـة ، وتتفاعـل النظـرات بينهما دون أن تطرح أية إجابات إذ لا يلبث الكلاب أن يغلـق عيونه ويفتح آذانه لكل ما في الصوت من أوشـاب الحـزن المفتت، وحين يتجاوب الكلاب نباحا يتضح للقوم أن ما أصاب النباح – ثم العواء – من شجن يختلط بسرعة مع تكوينـات شروخ صوت أم آل مستجاب ذي الحرقة الدافقة.

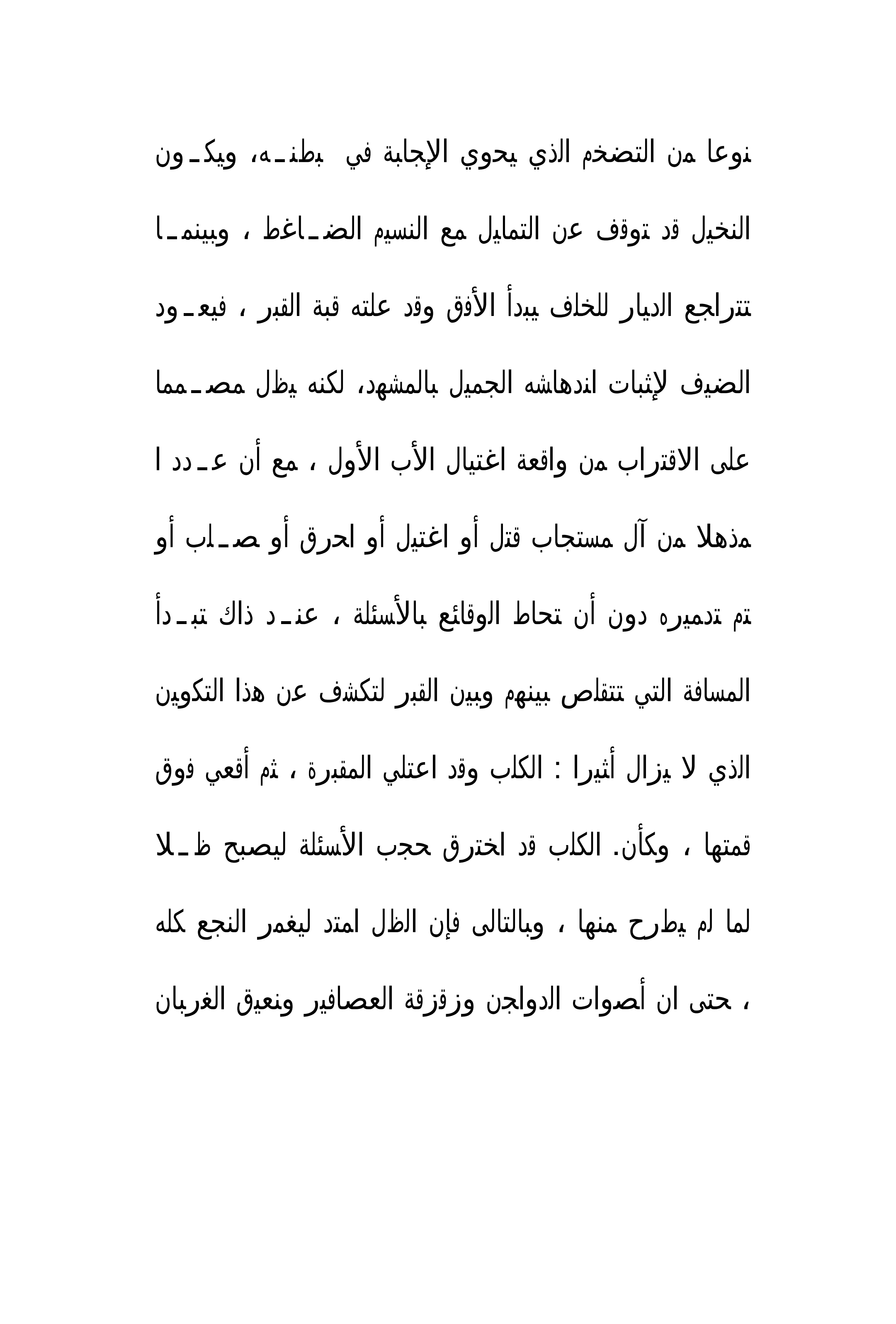


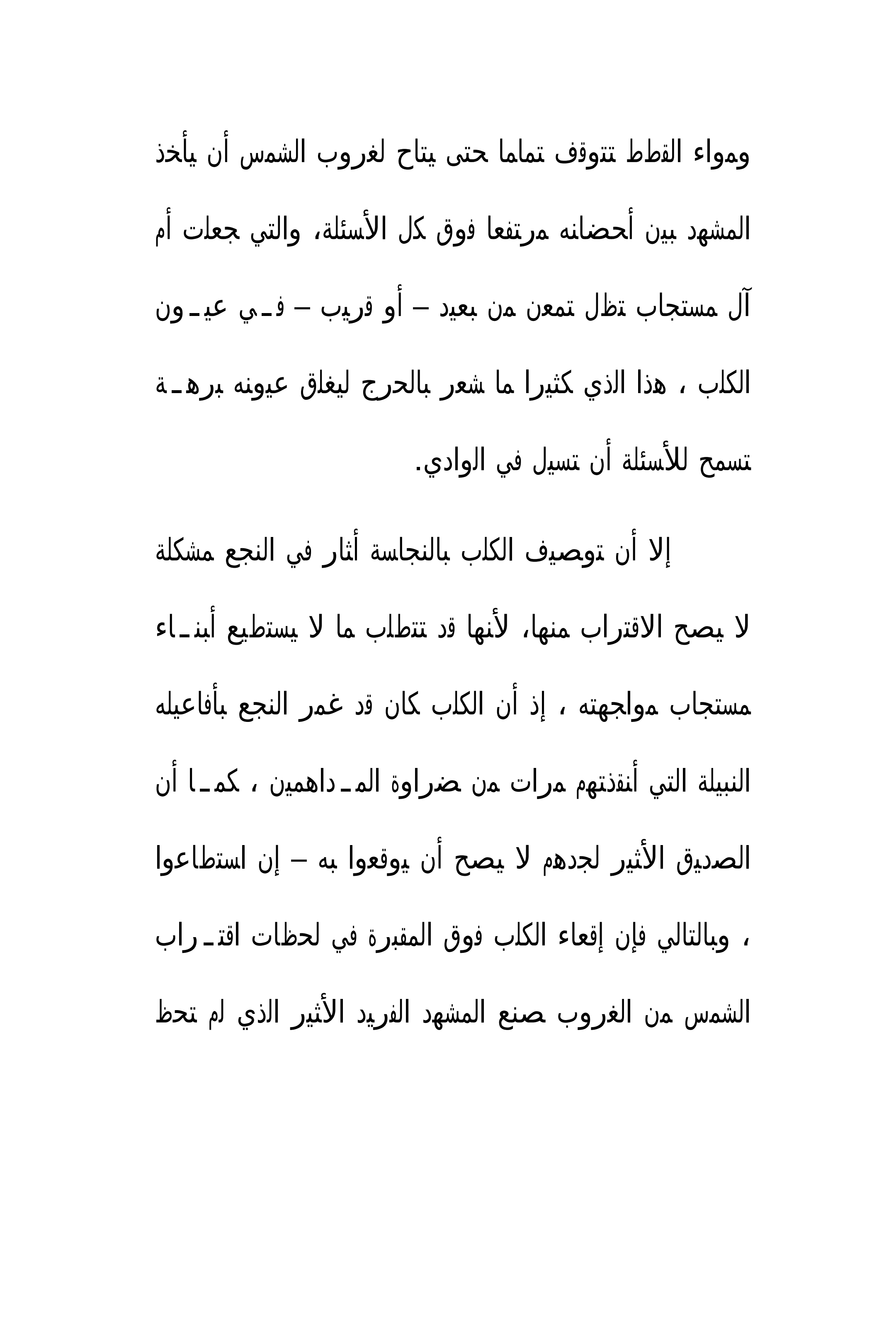
إلا أن هذه الزيارات الموسمية لقبر مستجاب بـدأت تضطرب ، مرة بسبب الزوابع ومرة بسبب تكاسل الشـمس وأخرى بسبب ما قد يحيق بالبنات من أمور خاصـة تعـوق ضرورة الطهارة، إلى أن جاء أقوام عديدون ، بدوا أفـرادا ثم أصبحوا جماعات يـودون ان يـزوروا القبـر والكلـب والإنصات للنواح، ولم يجد هؤلاء الغرباء استجابة سـريعة من آل مستجاب، لكن الأبدان المرهقة من الـزرع والطلـع والري والحصاد.

والمحاريث والنوارج بدأت تهفو إلى هذا النوع مـن الرزق الذي يتسلل إلى جيوبهم فقد كانـت صـحبة هـؤلاء الضيوف – دعك من وصفهم بالاغراب الآن – تمنح النفس نوعا من الاعتزاز ، وانه إحساس آخر غير الارتباط العائلي



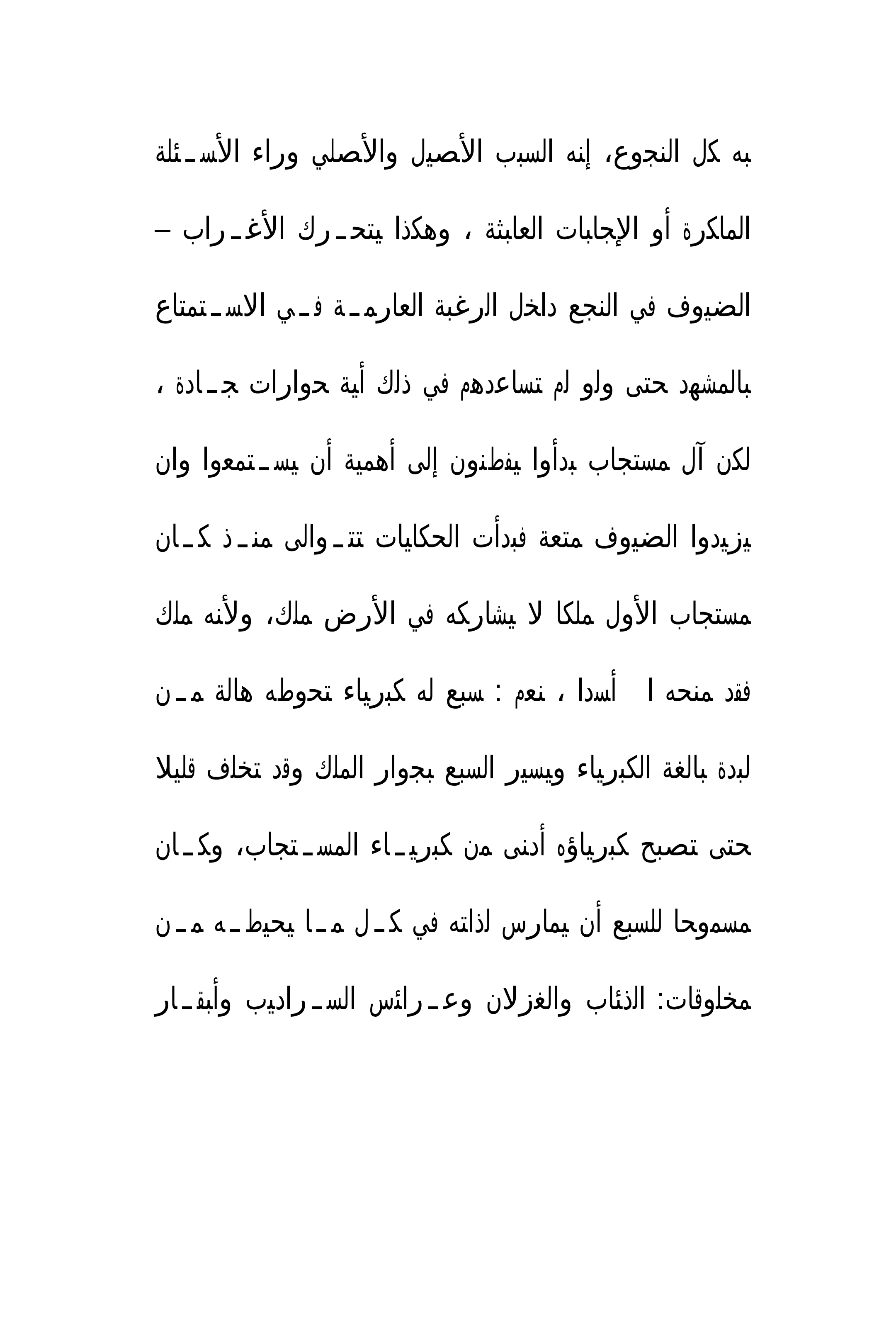
الذي كثيرا ما يكون مزعجا، أو مقلقا ،كل واحد يعرف كـل واحد جيدا وكل فرد له ملف خاص يحوي كل ما يرومونـه من إجابات دون أية أسئلة، أما الضيوف فهم أقوام هـادئون ذوو صوت خفيض برئ ، يسألون ويحـاورون ويبتسـمون دون تصادم أو تناهش ، يندهشون في حب وينحنون فـي ود ويشيرون بكفوفهم لحظة الوداع، القادم من الشـرق أو مـن الغرب يأتى إلى نجع آل مستجاب هادئ الخطوات كأنه قادم من جوف معمل الكتاكيت، متى مات مستجاب الأول ؟ وتبدأ الأسئلة الهامسة كي يأتي الرد : لا أعرف ، فإذ بالسؤال يأتى في حالة استدراك دون علامة استفهام: كيف مات ؟ ثم أليس في موته شبهة القتل؟ وعند هذا الحد يبدأ الصوت يرتفـع ، ويكون الضيف – مع ذلك –بادئ الابتسام مما يحيق بالسؤال


نوعا من التضخم الذي يحوي الإجابة في بطنـه، ويكـون النخيل قد توقف عن التمايل مع النسيم الضـاغط ، وبينمـا تتراجع الديار للخلف يبدأ الأفق وقد علته قبة القبر ، فيعـود الضيف لإثبات اندهاشه الجميل بالمشهد، لكنه يظل مصـمما على الاقتراب من واقعة اغتيال الأب الأول ، مع أن عـدد ا مذهلا من آل مستجاب قتل أو اغتيل أو احرق أو صـلب أو تم تدميره دون أن تحاط الوقائع بالأسئلة ، عنـد ذاك تبـدأ المسافة التي تتقاص بينهم وبين القبر لتكشف عن هذا التكوين الذي لا يزال أثيرا : الكلب وقد اعتلي المقبرة ، ثم أقعي فوق قمتها ، وكأن. الكلب قد اخترق حجب الأسئلة ليصبح ظـلا لما لم يطرح منها ، وبالتالى فإن الظل امتد ليغمر النجع كله ، حتى ان أصوات الدواجن وزقزقة العصافير ونعيق الغربان



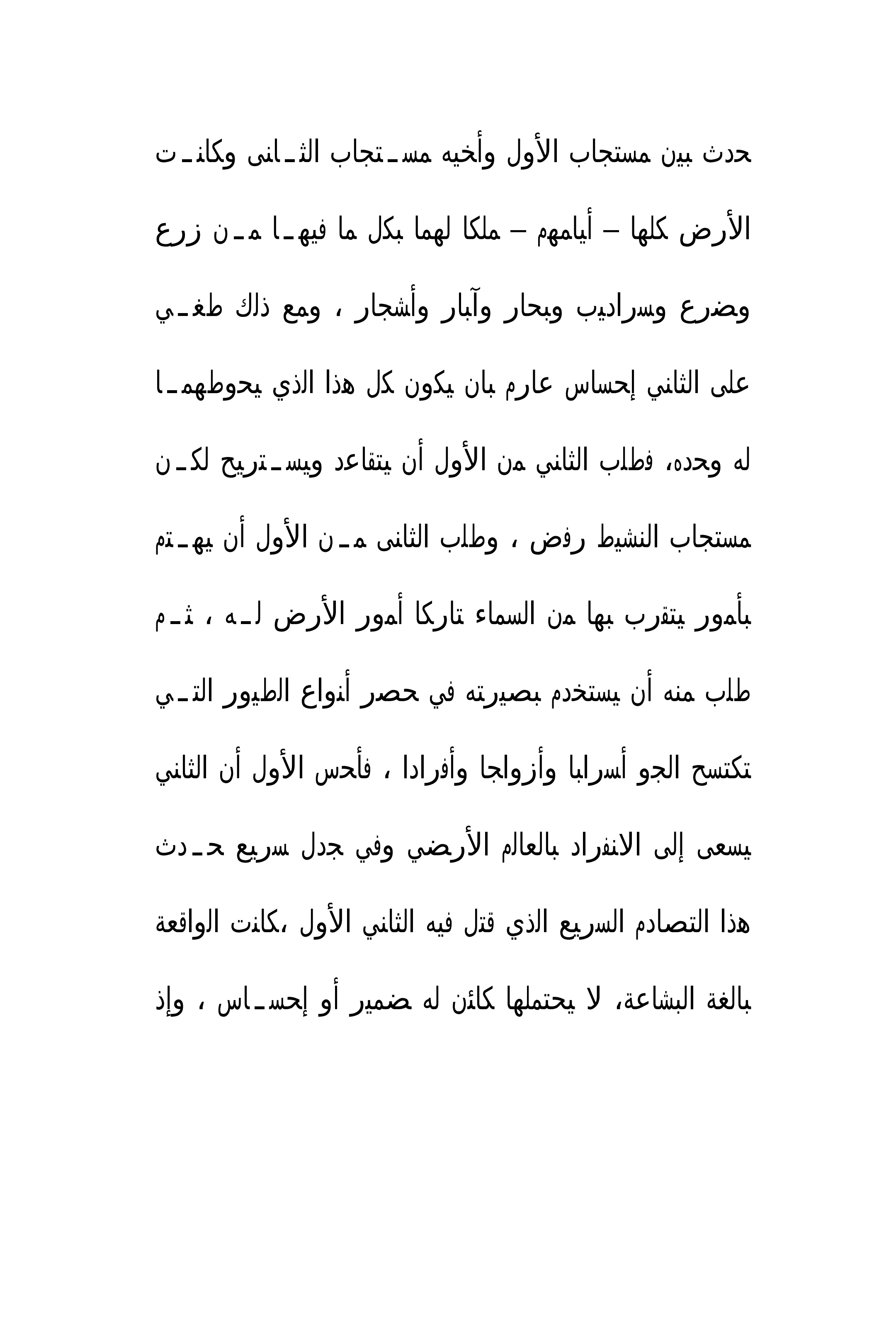
ومواء القطط تتوقف تماما حتى يتاح لغروب الشمس أن يأخذ المشهد بين أحضانه مرتفعا فوق كل الأسئلة، والتي جعلت أم آل مستجاب تظل تمعن من بعيد – أو قريب – فـي عيـون الكلاب ، هذا الذي كثيرا ما شعر بالحرج ليغلق عيونه برهـة تسمح للأسئلة أن تسيل في الوادي.

إلا أن توصيف الكلاب بالنجاسة أثار في النجع مشكلة لا يصح الاقتراب منها، لأنها قد تتطلب ما لا يستطيع أبنـاء مستجاب مواجهته ، إذ أن الكلاب كان قد غمر النجع بأفاعيله النبيلة التي أنقذتهم مرات من ضراوة المـداهمين ، كمـا أن الصديق الأثير لجدهم لا يصح أن يوقعوا به – إن استطاعوا ، وبالتالي فإن إقعاء الكلاب فوق المقبرة في لحظات اقتـراب الشمس من الغروب صنع المشهد الفريد الأثير الذي لم تحظ

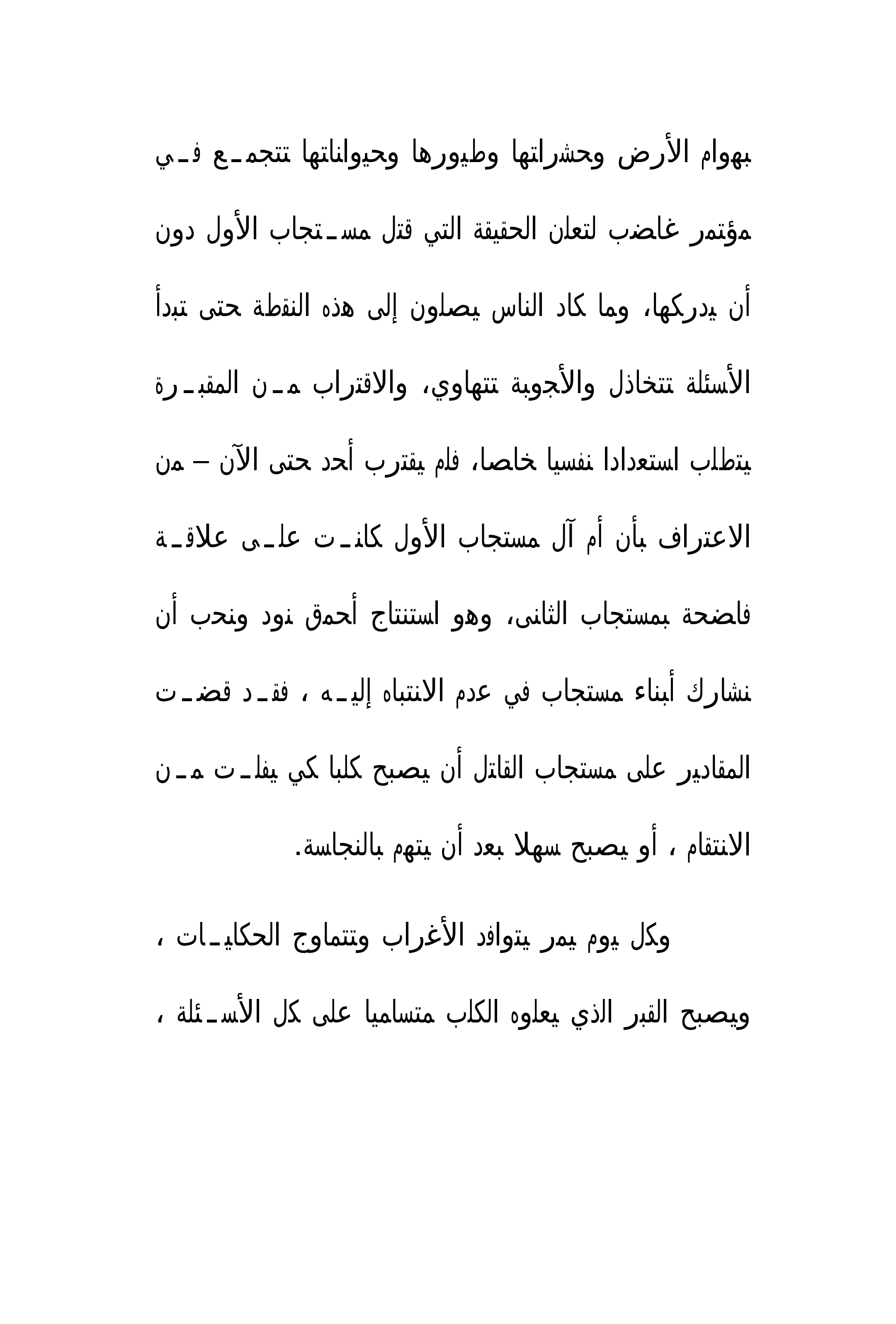


به كل النجوع، إنه السبب الأصيل والأصلي وراء الأسـئلة الماكرة أو الإجابات العابثة ، وهكذا يتحـرك الأغـراب – الضيوف في النجع داخل الرغبة العارمـة فـي الاسـتمتاع بالمشهد حتى ولو لم تساعدهم في ذلك أية حوارات جـادة ، لكن آل مستجاب بدأوا يفطنون إلى أهمية أن يسـتمعوا وان يزيدوا الضيوف متعة فبدأت الحكايات تتـوالى منـذ كـان مستجاب الأول ملكا لا يشاركه في الأرض ماك، ولأنه ماك فقد منحه ا أسدا ، نعم : سبع له كبرياء تحوطه هالة مـن لبدة بالغة الكبرياء ويسير السبع بجوار الماك وقد تخاف قليلا حتى تصبح كبرياؤه أدنى من كبريـاء المسـتجاب، وكـان مسموحا للسبع أن يمارس لذاته في كـل مـا يحيطـه مـن مخلوقات: الذئاب والغزلان وعـرائس السـراديب وأبقـار

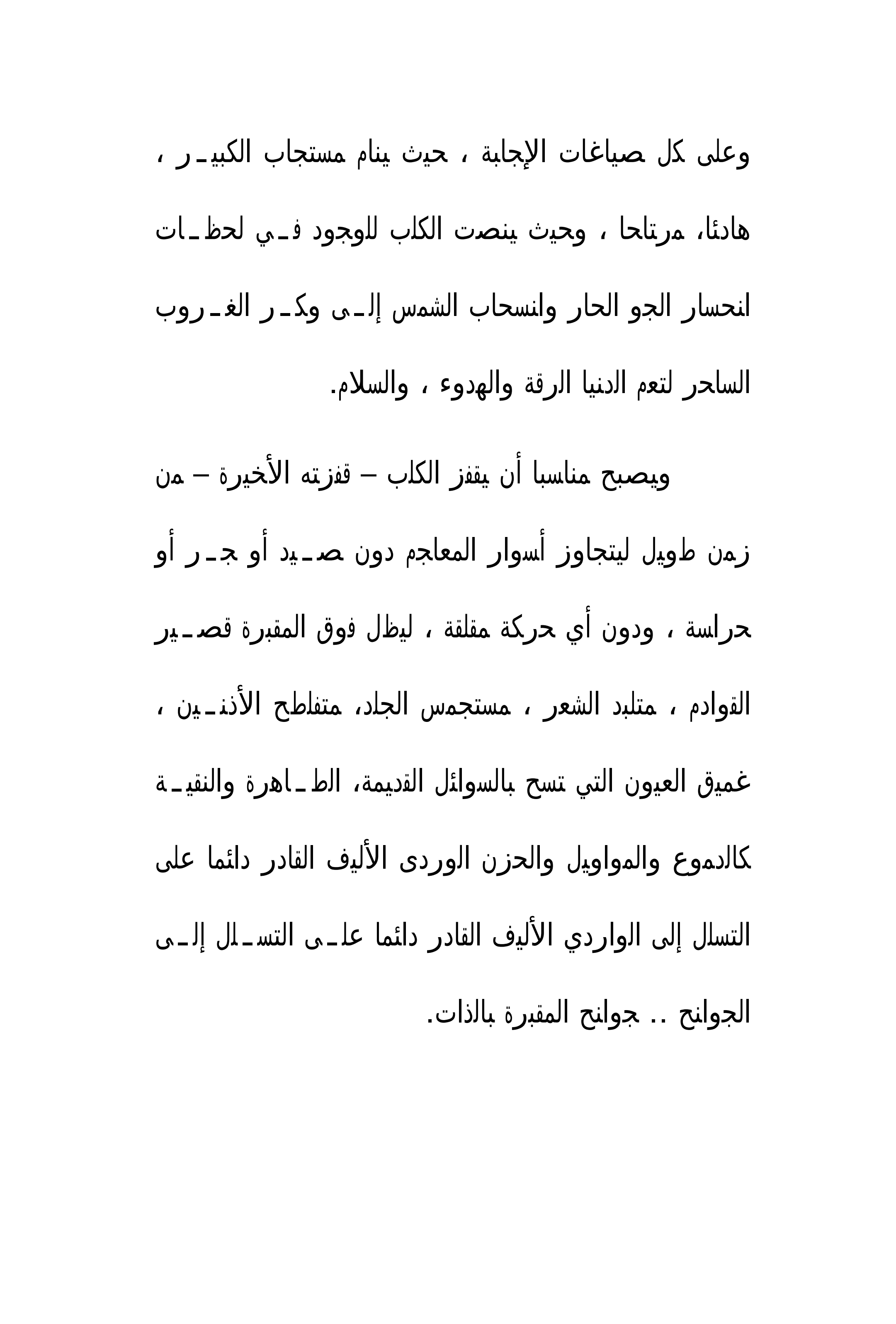
الوديان، إلا أن تصرفا لا يليق قام به السبع من وراء ظهـر مليكه الكبير ، ذلك أنه وقع في براثن جنية جاءته في شـكل قروية أو حورية أو بائعة برتقال فانشغل بها حتى أن السـبع بدأ يتهاون أو يتكاسل أو يتمارض لاجئا إلـى عرينـه دون مصاحبة الملك، وبناء على وسوسة شريرة كانـت الموقعـة التي ضبط فيها مستجاب الأول سبعة في أحضان هذه الفاتنة الفاتية ، وكان غضبة عظيما فقرر أن يطلب من السـماء أن تحيل سبعة فارا أو حلوفا حتى يتمرغ في الضآلة أو الـذل، لكن السماء رأت أن يظل العقاب في حدود أن يصبح الأسـد كلبا ، إلا أن الأغراب اشتموا من هذه الحكاية أن الحوريـة تمتلك مواصفات تقتـرب مـن أم آل مسـتجاب، فاضـطر المستجابيون أن يلوذوا بحكايات شاعت من زمن حـول مـا



حدث بين مستجاب الأول وأخيه مستجاب الثانى وكانت الأرض كلها – أيامهم – ملكا لهما بكل ما فيها من زرع وضرع وسراديب وبحار وآبار وأشجار ، ومع ذلك طغي على الثاني إحساس عارم بان يكون كل هذا الذي يحوطهما له وحده، فطلب الثاني من الأول أن يتقاعد ويستريح لكن مستجاب النشيط رفض ، وطلب الثانى من الأول أن يهتم بأمور يتقرب بها من السماء تاركا أمور الأرض له ، ثم طلب منه أن يستخدم بصيرته في حصر أنواع الطيور التي تكتسح الجو أسرابا وأزواجا وأفرادا ، فأحس الأول أن الثاني يسعى إلى الانفراد بالعالم الأرضي وفي جدل سريع حدث هذا التصادم السريع الذي قتل فيه الثاني الأول ،كانت الواقعة بالغة البشاعة، لا يحتملها كائن له ضمير أو إحساس ، وإذ


بهوام الأرض وحشراتها وطيورها وحيواناتها تتجمـع فـي مؤتمر غاضب لتعلن الحقيقة التي قتل مسـتجاب الأول دون أن يدركها، وما كاد الناس يصلون إلى هذه النقطة حتى تبدأ الأسئلة تتخاذل والأجوبة تتهاوي، والاقتراب مـن المقبـرة يتطلب استعدادا نفسيا خاصا، فلم يقترب أحد حتى الآن – من الاعتراف بأن أم آل مستجاب الأول كانـت علـى علاقـة فاضحة بمستجاب الثانى، وهو استنتاج أحمق نود ونحب أن نشارك أبناء مستجاب في عدم الانتباه إليـه ، فقـد قضـت المقادير على مستجاب القاتل أن يصبح كلبا كي يفلـت مـن الانتقام ، أو يصبح سهلا بعد أن يتهم بالنجاسة.

وكل يوم يمر يتوافد الأغراب وتتماوج الحكايـات ، ويصبح القبر الذي يعلوه الكلاب متساميا على كل الأسـئلة ،



وعلى كل صياغات الإجابة ، حيث ينام مستجاب الكبيـر ، هادئا، مرتاحا ، وحيث ينصت الكلاب للوجود فـي لحظـات انحسار الجو الحار وانسحاب الشمس إلـى وكـر الغـروب الساحر لتعم الدنيا الرقة والهدوء ، والسلام.

ويصبح مناسبا أن يقفز الكلاب – قفزته الأخيرة – من زمن طويل ليتجاوز أسوار المعاجم دون صـيد أو جـر أو حراسة ، ودون أي حركة مقلقة ، ليظل فوق المقبرة قصـير القوادم ، متلبد الشعر ، مستجمس الجلد، متفاطح الأذنـين ، غميق العيون التي تسح بالسوائل القديمة، الطـاهرة والنقيـة كالدموع والمواويل والحزن الوردى الأليف القادر دائما على التسلل إلى الواردي الأليف القادر دائما علـى التسـلل إلـى الجوانح .. جوانح المقبرة بالذات.

الفهرس